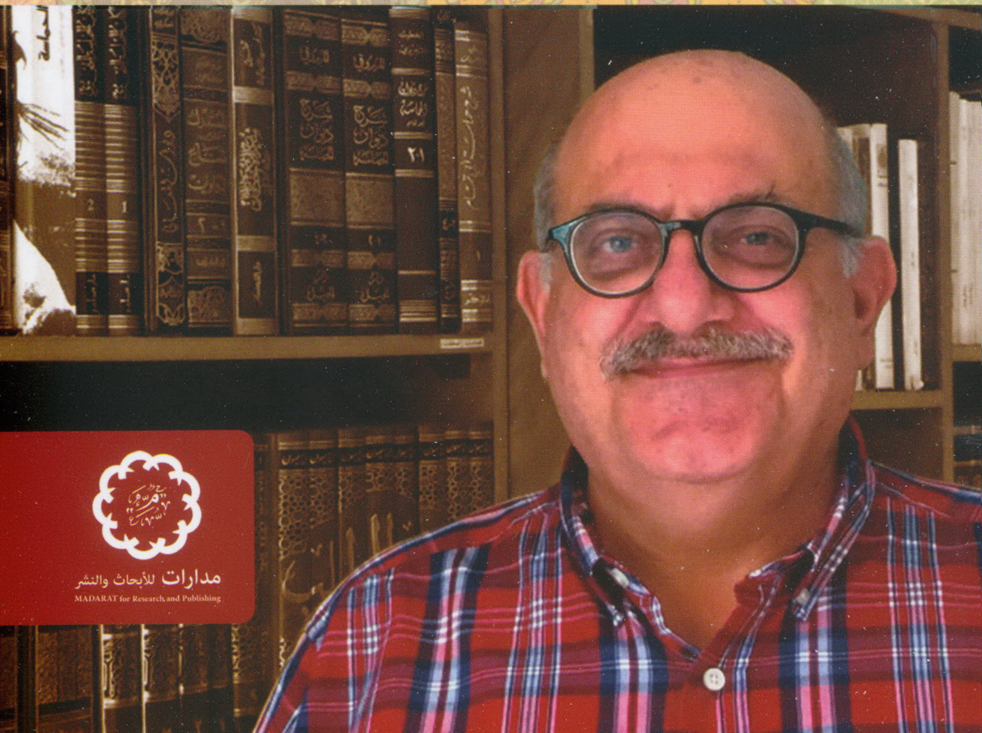
عارف حجّاوي

هكذا أفكّر



مدارات للأبحاث والنشر
MADARAT for Research and Publishing

عارف حجّاوي

هكذا أفكّر

مدارات للأبحاث والنشر
MADARAT for Research and Publishing

هَكَذا
أفَكِّرُ

عارف حجّاوي

- ولد في نابلس بفلسطين، ١٩٥٦، وفيها نشأ.
- متزوج وله ابنتان، وحفيدان. ويقيم في مدينة رام الله.
- عمل في التدريس المدرسي والجامعي، ثم عمل في الصحف ومحطات الإذاعة والتلفزيون.
- صدر له: سلسلة الزُّبدة: أنطولوجيا الشعر العربي في خمسة أجزاء، (القاهرة: دار المشرق، ٢٠١٦).

هكذا أفكر

عارف حجّاوي

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ١٧١٩٣/ ٢٠٢٢

الترقيم الدولي: ISBN 978-977-6459-51-9

الطبعة الأولى: صفر ١٤٤٤هـ - سبتمبر/ أيلول ٢٠٢٢م

مدارات للأبحاث والنشر

٥ ش ابن سندر - الزيتون - القاهرة - جمهورية مصر العربية

☎ ٠١٠٢٤٤٤٦٣٧٢

✉ info@madarat-rp.com

facebook.com/Madaratrp

وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ

صدق الله العظيم

العنكبوت: ٦٩

المحتويات

أنا والناس

أفكار شتى

شيء عن المستقبل

حديث الأدب

مقدمة

هذا الكتاب شقٌّ توأم سيامي. وسيأتيك بيان ذلك.

عندي ما عند كل أحد من «شهوة الحكي»، ولست بحكاء، فأنا أحكي مع شاشة حاسوبي. وعلى مدى نحو ثلاثين سنة اجتمع لدي «حكي كثير».

وكان بعض فضلاء الزملاء من الصحفيين يبعث إليَّ بأسئلة عن نفسي، فكنتُ أجيب كتابة، وأحتفظ بنسخة من الأسئلة وإجاباتها. وهذا حكي أيضًا. وأشار عليَّ الصديقان محمد عبد العزيز الهجين، وعبد القدوس الهاشمي، بنشر ما عندي. فصنعتُ من ذلك كتابًا جاء كبيرًا جدًّا، فرأينا - الناشر وأنا- أن نجعله كتابين. فهذا الذي بين يديك أحد التوأمين. سمَّيته **هكذا أفكر**، وذاك الآخر سمَّيته **هكذا أكتب**. وسيصدران معًا.

وقد اعتنى المحرِّر، في دار مدارات الزاهرة، بكلا الكتابين فصحَّح أخطائي، واجتهد في أن ينفي عن الكتابين المفردات القديمة والعامية والمبتذلة، فكنت أوافقه مرة وأخالفه مرات. على أنه وقاني الزلل في مواضع كثيرة.

في ذلك الكتاب «الآخر» كلام عن الإعلام، والتعليم والتدريب وقد عملت في هذه الحقول عقودًا، وفيه كلام عن اللغة وقد عابثتها كثيرًا.

فأما هذا الكتاب ففيه شيء يشبه السيرة الذاتية، وفيه أفكار شتى، وفيه شيء عن الأدب القديم.

يقول بعض الكتُّاب إنهم يكتبون لأنفسهم، ولا يعبأون بالنشر، ولست كذلك. ما كتبت شيئًا إلا تمنيت أن يجد طريقه إلى الناس حتى لو جرَّ عليَّ ندمًا.

عارف حجاوي

١ يونيو/ حزيران ٢٠٢٢م

٢ ذو القعدة ١٤٤٣هـ

عنّي بشكل رئيسي

شذرات ١

- يمكنك أن تُغاضِبَ صديقك مرارًا، لكنك لا تُهينه إلا مرة واحدة.
- الجنس: شيء إذا فعله الناس أحيانًا أنتجوا بشرًا، وإذا فكروا فيه دائمًا أنتجوا انتحاريين.
- تقول: إنك تتمتع بخيال خصب! هل أنت قادر يا فالح على أن تتخيل أن جدَّتك هذه قد مارست الجنس؟
- السيارة الجديدة: كتلة من حديد تركبك حتى تنتهي من سداد أقساطها، ثم بعد ذلك تعاف أنت ركوبها.
- كم شخصًا قال لك: «أقطعُ يدي لو..»، وكم شخصًا قطعها فعلًا؟
- العراق: بلد عربي يرأسه كردي، كانت تُذبح فيه الخراف والرجال يقولون: بسم الله، واليوم يُذبح فيها البشر، والخراف تقول: «ماء».
- الإنسان: شيءٌ تخرج منه رائحة كريهة إذا أكل الثوم، وإذا صحا من النوم، وإذا نام، وإذا قام، وإذا مات. وكلما شمَّ رائحة قال: «أف».
- شانيل وفانيل: الشانيل شيء ترشُّه المرأة على نفسها؛ لأنها لم تستحم منذ أسبوعين حفاظًا على التسريحة، والفانيل يلبسه الرجل للاحتفاظ بالعرق على بدنه.

- الداعشي: شخص يحترمه الأمريكان؛ لأنه كاوبوي مثلهم، وبعض الإسلاميين؛ لأنه فعل ما كانوا يتمنّون فعله.

- الدِّين: القطار الوحيد الذي يوصلك إلى الجنة، شريطة أن تركب من الرصيف الصحيح.

- خلف تلك اللحى الكثَّة والسيوف المصلتة هناك رقة وحنان، ألا تراهم يتكنون بأسماء أنثوية: قتادة وعبادة وطلحة. قد يأتيك خليفة داعش المقبل واسمه أبو الزوز.

- الراصد الجوي: شخص يسكن في الطابق الذي فوقك، ويرى الغيمة مُقبلةً قبل أن تراها أنت.

- أوسلو: مدينة تغطيها الثلوجُ معظم السنة، ونكتوي بنارها منذ عشرين سنة.

- عندهم تعدد الأحزاب، وعندنا تعدد الزوجات، لا أحد أحسن من أحد.

- الفارق بين الأسفلت والسيجارة: الأسفلت ليس فيه نيكوتين.

- قالوا لها: «تزيني فقط لزوجك»، قالت: «أخجل! الطلب الصريح أهون».

- الفيس بوك: اختراع يجنّبك رؤية «أفياس» الناس.

- قديمًا كان الإنجليز يجللون سيقان الطاولة إمعانًا في الحشمة، واليوم تكشف نساؤهن عن سيقانهن، ولا من يلتفت إليهن.

- الملك حسين: حذق رياضة ركوب الأمواج؛ ركبها أربعين سنة، ومات واقفًا.

- من يعتقد أن حبَّة البطاطا لا تتألم وهو يذبحها لن يفهم كيف يتحول الكمي إلى نوعي.

- ضع مخدتك تحت المجهر، وسترى وحوشًا لها مخالب وأنياب تسرح وتمرح. أما زلتَ تنكر أن الجهل مفيد أحيانًا؟

- قال لنا الأستاذ: «لحم الخنزير يسبب الأمراض والموت السريع. ومتوسط عمر الإنسان في ألمانيا ٨٠ سنة، وفي أفغانستان ٤٩ سنة. لا بد أن هناك خطًا في الإحصاءات».

شذرات ٢

- أسوأ ما يمكن أن يحدث لرجل أن ينزل من سيارته لتبديل كاوتش مثقوب. وأجمل ما يجعل صباح الرجل مشرقًا أن ينزل من سيارته لتبديل كاوتش سيارة تقف سيدة بجوارها وتلوِّح بيدها. لهذا السبب فإن النشيد الوطني للنساء هو: «يا هبايل يا هبايل».

- الفقير يضحك لنكتة الغني لأنه غني، والغني يضحك لنكتة الفقير بشرط: أن يكون مهرجًا.

- قال بيدبا: «ما أشد ندمي على الفواحش التي لم أرتكبها».

- نحتل بلادهم باسم الدِّين فهذا فتح، ويحتلون بلادنا باسم الدِّين فهذا الفتح العثماني. والآن نحن مقبلون على فتوحات كثيرة فيما يبدو.

- بعد هيروشيما ساد الفلسفةَ جوٌّ من التفاؤل، فها هي أخيرًا الوسيلة التي ستضع حدًّا لهذا العبث كله.

- قال مؤلف القاموس: «بعد أن نشرتُ قاموسي بدأت أكتب بالعامية، وأستعمل الأساليب الخطأ في الفصحى، ألم أثبت أنني أعرف الصواب؟ الآن أريد أن آخذ راحتي».

- منذ بضعة مقالات وأنا أحاول إقناع القراء بأنني أسوأ مما يظنون.

- كلُّنا مررنا ذات يوم من قناة فالوب، ويظن ديليسيبس أنه أعظم المهندسين. سبحان الله.

- دولة اسم عاصمتها (سري جاياوارد نابورا كوتي) لا بد أن تكون دولة عظمى؛ سريلانكا.

- يمارس المهربون غسيل الأموال، وتمارس الحكومة غسيل الدماغ، وبينهما يعيش شعب غافل.

- قبل ثلاثين سنة قالوا للملك: نشرة الأخبار كلها مخصصة لجلالتكم، والناس يشتكون. فقال لهم: «اطفوا» التلفزيون. وعندما انتشرت الفضائيات صاح الملك شاكيًا، فقالوا له: «اطفِ» الحاسوب.

- بعد انشطار تشيكوسلوفاكيا قلتُ لنفسي: «تشيكيا الصناعية ستنتعش، وسلوفاكيا ستنحدر». ثم سمعت فرقة إذاعة براتيسلافا السمفونية فاطمأن بالي إلى أن السلوفاك قادرون على التكاتف والعمل معًا وتوزيع الأدوار.

- يقول الشيخ إمام: «رافعين جباه حرة شريفة، باسطين أيادي تؤدي الفرض/ ناقصين مؤذن وخليفة ونور ما بين السما والأرض». وكل هذا تحقق بفضل الله، وبمبايعة الخليفة لا ينقصنا شيء.

- وهو خارج من عندي قلتُ له: «نسيتَ علبة سجائرك!» قال: «لا تقلق»، فهي فارغة. قلت له: «لذلك خذها».

شذرات ٣

- احتضنها بين ذراعيه، وقعد يبوس البوتوكس.

- ما وجه الشبه بين غوغل وحبَّة الفياغرا؟ بوجود غوغل صار كل حمار باحثًا، وبحبة الفياغرا صار كل وسيم بورنو ستار.

- المرأة مظلومة حتى يثبت العكس.

- البوهيمي: شخص يعلن عن نفسه بأقل تكلفة.

- البيانو: قطعة أثاث يقتنيها أثرياءُ العرب.

- المكتبة: دكان لبيع ألعاب الأطفال.

- لا أحب سوى مربى الفراولة، ولا أشتريه من دكان أبو حسن؛ لأنه ليس عنده غيره، بل أذهب للسوبرماركت الذي فيه خمسون نوعًا من المربى لكي أنتقي بملء إرادتي.. مربى الفراولة.

- أكلني حلقي أول أمس ثلاث مرات، ولم أُصَب بالزكام. أنا مدين للفيروسة بزكام. أنا مزكوم مع وقف التنفيذ.

- نسمع عن المدن الأوروبية عندما تزدهر، وعن المدن العربية عندما تُدَمَّر.

- ليس المهم أن يكون الحذاءُ جديدًا، المهم أن يكون من النوع الغالي.

- مع أن جدي كان خيَّاطًا فقد قال لي: أناقة الرجل في رأسه وفي حذائه، وما بينهما تحصيل حاصل.

- انتهيت لتوي من تأليف عنوان ديواني المقبل: «سقوط القشة في العصير، بعد أن قصمت ظهر البعير»، ولم يبقَ إلا نظم الشعر.

- لماذا ثلاثة أرباع الساعة أكثر من ثلثي الساعة؟ ربما لأن الثلاثة أكثر من الاثنين.

- القصة ذات النهاية السعيدة قصة ناقصة.. فأين هادم اللذات ومُفَرِّق الجماعات؟

- لكل من استخدم عبارة «العالم قرية صغيرة»، والله لن أقرأ لك كلمة بعد الآن حتى لو كنت أفلاطون.

- «السياسي الصادق» عبارة متناقضة داخليًا، تمامًا كعبارة «اليمن السعيد».

- عندما افتقر زوجها اكتشفت أنه أصلع.

- الأطفال يظنون غمازات السيارة للزينة، وكذا معظم السائقين.

- بوسعي أن أذكر لك أسماء عشرة علماء يفهمون النظرية النسبية، هل بمقدورك أن تذكر لي أسماء خمسة أشخاص يفهمون قواعد كتابة الهمزة؟

- فرغَت علبة شاي التواييننغ الفاخر، فوضعت فيها شاي الفراشة الحالمة الرخيص. ثم نسيت الأمر، وأنا الآن أستمتع بشرب الشاي الفاخر بأقل تكلفة.

- قال لي: «نابليون لم يكن يجيد قيادة السيارة». قلت له: «يا فالح، لم يكن هناك سيارات في زمن نابليون». فقال: «وهذا دليلٌ على صحة كلامي».

- من أهم الاكتشافات أن البقدونس ليس بحشيش.

- وراء كل عظيم امرأة. طبعًا، تلك التي رمَته من بطنها.

- لقد أغرته بأكل التفاحة حتى يتم اختراع الملابس.. ثم الأزياء.. ثم الشوبينغ.

- مقبول منك أن تلبس خاتمًا في إصبعك الصغير، فقط إن كنت سائق شاحنة.

- كان في بلدنا خطَّاط بارع اسمه شوقي يعيش. سألته عن خطَّاط منافس: «ما رأيك في خطِّه؟» فأجاب بكلمة واحدة: «مقروء».

شذرات ٤

- لا تسرف في الاحتراس؛ السهم سيأتي من حيث لا تحتسب.

- لا تجمع ولا تطرح؛ العملة تنزل باستمرار، والباقي من أيامك أيضًا.

- إذا اغتنى صاحبُكَ أرادك مرافقًا لا صديقًا، وإذا افتقر أرادك وسيلةً؛ وإذا كبر ولدُك جفاك، وإذا شاخ أبوك قلت: «أحسن الله ختامه»، وأنت تعني أسرع الله بختامه.

- رأيت كل الذين يؤلفون نكت الإنترنت أبرع مني، فقعدت أكتب الخواطر.

- تخرج السيجارة من علبتها فما أرشقها وما أجملها! وبعد خمس دقائق.. أف! كيف أتخلص من هذا المخلوق القميء. كذلك بالضبط كانت السيدة ن.ع. تنظر إلى الرجال.

- يذوي جمالُها، وتغزوها التجاعيد، ولكن دلال البنت الحلوة يلازمها حتى القبر. أيها الرجل الكهل إذا صادقتَ كهلةً فالتمس الدميمة، فهي أحسن أخلاقًا.

- أنا جزيرة، أطمح إلى أن أصبح قارة، وأحلم أن أكون العالم.

- الأصالةُ هي الاختلاف.

- الفنان والمخترع وجهان لعملة واحدة؛ عملة بلد أجنبي بعيد، وهات من يعرف قيمتها!

- شراء الفاكهة أول نزولها كالزواج ببنت أول بلوغها؛ شكلها حلو، وثمنها مرتفع، وطعمها مز.

- طبق الساتلايت مثل طبق بوفيه الشيراتون، يحمل إليك ما لذ وطاب؛ والأطيب صحن فول مدمس ورغيف وبصلة.

- المرضع تؤجّر ثدييها، والعاملة ذراعيها، والمذيعة وجهها، والمومس جلدها، والناطق الرسمي ضميره.

- بعض العظماء لا تظهر عبقريتُه إلا بعد موته، وبعضهم بحاجة إلى مئة سنة أخرى. مرت على أبي العلاء ألفُ سنة، وهو بحاجة إلى ألفٍ ثانية قبل أن يقتنع به بعضُ الناس.

- ما الفارق بين علبة السردين والحاكم؟ علبة السردين تنتهي صلاحيتُها ولا تعفن.

- الجرأة النادرة: أن تكون أمينًا عامًّا للجبهة الديمقراطية لمدة ٤٢ سنة ثم تبعث رسالةً إلى مصطفى عبد الجليل، المتزعم الليبي بُعيد الثورة، تهنئةً بسقوط «الطاغية».

دهاقنة الأسلوب

المازني (١٨٩٠ -١٩٤٩): سخَّر الفصحى ليسخَر من نفسه. اللغة عجينة بين يديه يصنع بها الخبز والبقسماط.. والكيك. كان ظريفًا. له ديوان كبير ليس فيه بيت شعر واحد؛ فقد خُلِقَ ناثرًا.

العقاد (١٨٨٩ -١٩٦٤): لبس قناعًا ليخفي ما في روحه من ظَرفٍ. امتلك اللغة وعبَّر بها عن رصانة مفتعلة. يحشد الحُجج لدحض ما لا سبيل إلى دحضه، أو لتأييد ما يمكن تأييده بأيسر سبيل. قلمٌ عنيد، وشديد على من يعاديه.

الرافعي (١٨٨٠ -١٩٣٧): متعمِّل يشتهي أن يخترع عربية جديدة أصعب من عربية الجاهلية. فإذا ما راق ترقرق كالجدول العذب. إذا خاصم غلبت عليه السوداءُ، وإذا عشق فتح المعجم.

محمود شاكر (١٩٠٩ -١٩٩٧): غضوب كمريديه. كتب ثلاثمئة صفحة ليشتم رجلًا، فقرأها الناس لروعة الأسلوب ولذعة السخرية. لم يفهم الشعر القديم في زمننا أحدٌ مثله. عبارته كحجر الألماس.. لا عيب فيها.

طه حسين (١٨٨٩ -١٩٧٣): كتلة مجاملات ومصارحات وتكرار. أخافه المتزمتون سنة ١٩٢٧، فظل حتى مماته يجامل ويتحايل. ذوقه الأدبي في الذروة. ورغم أنه متأورب الفكر، فقد دافع عن الفصحى دفاعًا مجيدًا.

مارون عبود (١٨٨٦ -١٩٦٢): متفاصح متحذلق، يحفظ الشعر القديم ويكتب النثر بأشطاره. سخر من العقاد وطه حسين، فبلغ ذروة الظَّرف والمقدرة. وضع كتاب الرؤوس عن كبار الشعراء؛ فكان من كبار النقاد. سمَّى ابنه محمدًا؛ فجامل المسلمين أكثر من نيوزيلندة.

ميخائيل نعيمة (١٨٨٩ -١٩٨٨): قلم سيَّال يكتب العربية الجميلة الصحيحة بلا تقعر. جرَّب أن يكون فيلسوفًا لكنه ظل أديبًا. عرف روسيا وكتب بلغتها، وعرف أمريكا وكتب بلغتها، وظلت العربية أجمل ما يسيل من قلمه. كانوا يدعونه إلى الفكر العروبي فيأبى إلا الإنسانية.

المنفلوطي (١٨٧٦ -١٩٢٤): يغترف الأساليب القديمة من أعماق التراث فيجعلها دموعًا تسيل على اليتامى والفقراء. ترجم كثيرًا عن الفرنسية -وهو لا يعرفها- يقصُّون عليه القصة فيكتبها بعربية تفوق الأصل رقةً وبكائيةً.

زكي مبارك (١٨٩٢ -١٩٥٢): دونكيشوت الأدب العربي، يُضحكك دون أن يضحك معك. من ملوك الكلمة. يكتب القصيدة ويضع لها مقدمةً نثريةً، فلا تجد في القصيدة شعرًا، وتجد المقدمة النثرية كأنها الشعر. خلقه الله ناثرًا.

المعرِّي (٣٦٣هـ - ٤٤٩هـ): مثلما أكل الجُدريُّ عينيه أكل السجعُ أسلوبه. ولكنَّ فكره العميق وبركان العبث في روحه جعلا

رسالة الغفران تحفة من تحف النثر العربي. لم يعرف العربية أحدٌ كما عرفها أبو العلاء. تلك كانت مشكلته، راح يتعالم.

الجاحظ (١٦٠هـ؟ – ٢٥٥هـ): كان يكتب ووزّاقو البصرة، ثم بغداد، ينشرون. استقى علمه من الكتب ومن السوق، وكتب بقلم حر وعابث. كان يكتب وهو يضحك، ونقرأه ونحن نضحك. لا.. نحن لا نقرأه، بل نجلس إليه.

التوحيدي (٣١٠هـ؟ -٤١٤هـ): مفرداته كالشلال الهادر.. وتقع كلُّ كلمة في موقعها، فإذا العبارات تنثال حارةً حارقةً. ونقرأها مرة أخرى فإذا هي مرصوفة بهندسة بديعة. كان أبو حيان يُجَنِّدُ كل كلمات العربية وأساليبها في خدمة نثره. كان يكتب كطفل حانق.

سَدَنة العربية

ناصر الدين الأسد (١٩٢٢-٢٠١٥): كتب كتاب عمره **مصادر الشعر الجاهلي**؛ فكان قمةً في الأسلوب والدرس الأدبي الرصين. وعاش بعده ستين سنة ينشئ المؤسسات العلمية كالجامعة الأردنية.

رمزي البعلبكي (١٩٥١ -): محقق **الجمهرة**، ومتِمُّ **المورد الأكبر**. صاحب باع في اللغات الشرقية.. وغير الشرقية. ومثلما قرأنا مقدمة والده لـ **المورد** لكي نتفرج على جمال لغتها، نقرأ مقدمته لـ **المورد الأكبر**، ونقول: ما زال فينا من يحسن الكتابة.

روحي البعلبكي (١٩٤٧ -): **معجمه (العربي - إنجليزي)** سيد المعاجم في بابه. ومعجمه العربي **(المورد عربي - عربي)** هو أفضل المعاجِم الموجودة اليوم، هو معجم عصري وفيه التراث الحي، وفيه سيل من المترادفات.

منير البعلبكي (١٩١٨ -١٩٩٩): ترجم سبعين روايةً وكتابًا بأسلوب الفحول. وعندما أصدر معجمه **المورد** ألغى كل المعاجم الإنجليزية العربية. وتوفي قبل أن يرى **المورد الأكبر** الذي أكمله ولدُه رمزي.

حسن الكرمي (١٩٠٥ -٢٠٠٧): عاش مئة سنة وسنتين. معجمه العربي -عربي **الهادي** تحفة معجمية. ومعجمه العربي -إنجليزي

المغني الأكبر مفخرة: يحفر عميقًا في أرض العربية، ويستخرج لك مفردة لم تخطر قط ببالك.

سلام الراسي (١٩١١ -١٩٧٩): صحيح أنه اختص بتدوين التراث الشعبي اللبناني، لكنه راسخ القدم في العربية الفصحى. نشر أول كتاب له وعمره ٦٠ عامًا. ثم تدفق بعشرين كتابًا.. تؤكل أكلًا.

أحمد شفيق الخطيب (١٩٢٦ -٢٠١٥): إذا رأيت هذا الاسم على غلاف كتاب في العلوم، فاعلم أن الكتاب جيد علميًّا ومتين أسلوبًا. كتب معاجم ضخمة في الهندسة والطب والكيمياء، وأثبت أن العربية قادرةٌ على حمل كل العلوم.

جبران مسعود (١٩٣٠ -): له **معجم الرائد**، ورتَّبه بحسب الحرف الأول مزيدًا أم غير مزيد فكانت بدعة حسنة. وله أنطولوجيا أدبية بديعة.

أحمد مختار عمر (١٩٣٣ -٢٠٠٣): معجمه الضخم للعربية المعاصرة يحتوي جهود المجمع المصري، وهو حقًّا معاصر. ومعجمه لألفاظ القرآن الكريم دُرَّةٌ ثمينةٌ.

بطرس البستاني (١٨١٩ -١٨٨٣): صاحب **محيط المحيط**.. أول معجم حديث مطبوع. كان بارعًا في علم الصرف، وسيظل معجمه مفيدًا. هذا الرجل كافح الطائفية في لبنان بشراسة. كان عالمًا كبيرًا وإنسانًا رفيع التهذيب.

عبد السلام هارون (١٩٠٩ -١٩٨٨): حقَّق الجاحظ وأنقذه من بين أيدي الهواة. من كبار العالمين بالعربية شعرها ونثرها، ومن طليعة المحققين للأدب القديم.

النهيق

قلـت: «أنا رجل عربي مسـلم». فاحتجَّت النسـوة على كلمة «رجل». قلـت: «أنـا مخلوق عربي مسـلم»، فاحتجَّ صديقي الأمازيغـي وقال: «أنا لسـت عربيًا، هلَّا قلت مسلم وكفى؟» قلت: «أنا مسلم». فاحتجَّ صاحبي الشامي، قال: «أنا مسيحي، فليس بيني وبينك جامع بهذا الوصف». قلت لهم: «أنا إنسان»، فقالوا جميعًا: «نحن كلنا كذلك». ولم يحتجَّ إلا حمار كان مربوطًا بالشجرة، ونهق.

لا أريـد أن أعقـد محاضرة في تعدد الانتمـاءات. البلد الذي فيه انتماء واحد: دينًا ولسانًا وقوميةً، بلد غير طبيعي. والإنسان الذي يحمل بداخله عـدة انتماءات إنسـانٌ سـويٌّ. والذي يرفـض تعدد الانتمـاءات يميل إلى التعصب والجهل. وأخيرًا: أنا إنسان عربي مسلم.

مدير نصف ناجح

الطفـل النكد يلحُّ في طلـب ثدي أمه، جائعًا وشـابعًا. والطفل الهنيء يطلب الثدي جائعًا ويلعب شابعًا. وكذلك الموظف.

قد اشـمأزت نفسـي -بعد ربـع قرن مـن العمل الإداري- مـن إلحاح الموظفيـن في طلب العـلاوات والزيادات، ورأيت أكثرهم طلبًا وإلحاحًا أقلهم إنتاجًا وإبداعًا. ومثل الطفل النكد: الموظف يعبر عن أشياء أخرى في نفسه؛ فهو يلحُّ في طلب العلاوات كي يثبت لنفسه، ولك، أنه أحسن من غيره. وهو قليل النقد لذاته، قليل الموضوعية.

لشدة قرفي من هؤلاء الناس أكاد أرجع إلى أبيات البحتري، والمتنبي وأبـي تمـام التـي فيها إلحاح علـى الممدوحين لبذل العطاء فأشـطبها من مختاراتي من أشعارهم.

عشـت كل هذه السـنوات وأنا أهزُّ رأسي لمثل تلك الطلبات، وأخفي مشاعري الحقيقية من الاحتقار لها ولأصحابها. هذا هو المدير المتوسط النجـاح: يبلـع القـرف، فيرضـى عنـه النـاس نصـف رضـا. وأمـا الناجح والفاشل من المديرين فيقولان صراحةً: «الباب يفوّت جمل».

بسم الله الرحمن الرحيم

الشخص الذي يجلس إلى منضدته لكي يكتب مقالًا شخصٌ مسكينٌ يستحق منَّا الشفقة. إنه يأخذ بنصائح بِشر بن المعتمر فيتخيَّر أنسبَ وقت: عندما تكون زوجتُه عند أمِّها، وأولادُه يلعبون في الشارع. ويرشو نفسَه بكوب شاي، ويجلس إلى المنضدة، وينتقي القلم الصالح الغالي الذي لا يُقَطِّع، والورقَ غيرَ المسطَّر، حتى يُحِسَّ بالحرية.

يجلسُ إلى المنضدة، فيكتشف حبةَ سُكَّرٍ تحت دستة الورق، فيقلِبُ الورقَ ويأخذ بالبحث عنها حتى يجدَها. يلتقطُها ويبعدُها بكل اهتمام، ويمسحُ المنضدة. ثم يتخيَّلُ أن يديه فيهما دِبقٌ، وعَرَق. أما العَرَق فلأنَّ الفكرة طارت، وأما الدبق فربما من حبّة السكر. يغسلُ يديه، ويعودُ إلى مكانه، ويخطط بحرف الرُّقعة بسملةً في رأس الورقة، ويفرحُ أن رأى أخيرًا شيئًا مكتوبًا. البسملةُ خير ما يجلبُ القريحة. يقول: «بسم الله الرحمن الرحيم»، ويضعُ سنَّ قلمه فوق أولِ الورقة مبتعدًا قليلًا عن الهامش، ويقول في نفسه: ألا هكذا تكون الكتابة الحسنة، فليسرحِ القلم على وجه الورقة وحدَه حرًّا طليقًا. ويكتب كلمة «أمس»، ويفكر قليلًا. يقول لنفسه: «لماذا نصرُّ دائمًا على بدء المقال بشيء حدث في الماضي؟ لا. في هذه المرة أريد أن أبدأ مقالي من المستقبل». يشطب «أمس»، ويكتب «غدًا». ثم يقول بسم الله الرحمن الرحيم. لا يقولها استفتاحًا لباب الخير ولا استقدامًا للبركة، ولكن تعوُّذًا مما سمع. فقد سمع صوتَ الباب يفتح فجأة، وصوتَ ولده يدخل إلى البيت صارخًا باكيًا، وساقُ

سـرواله مرفوعـةٌ، وركبتُـه مجرَّحـة. يضع الكاتـب قلمه، ويأخـذ بمداواة جـرح ابنه، وهـو يحلم بمهنـة أخرى، فالكتابـة مهنة فقـر. الكلمة الأولى صعبةٌ كقلع الضِّرس، ولو نزل الإلهام على الكاتب وأنهى مقاله، فسـيجدُ فـي اليـوم الثاني صديقًـا له يقول: «يا أخي ما أشـطركم فـي الحديث عن المشاكل، وتجاهل الحلول».

المازة اللبنانية.. والشواء

إذا أردت أن تـرى مراهقًـا تجـاوز السـتين، فتفضل. تعـال لتراني وأنا أتحدث عن آخرِ شخص ذبحته بالسكين.

عندما أمسـك بتلابيب مؤلِّف وأُحبه، أظل أغرس سـكيني في أحشـاء مؤلفاته حتى أسـتنزف دمه. وتراني مهتاجًا متحمسًـا كأي مراهق اكتشـف شـيئًا جديـدًا. لا أنصحـك بـأن تجلس إليَّ وأنـا في حالة الذبح، فسـوف أُصدِّع رأسك بالحديث عن المؤلف وأفكاره وكتبه.

وضحيتـي هـذه الأيام بيل برايسـون. مسـكين! ومسـاكين أنتـم! فهلمَّ أحدثكم عنه.

لـه فـي السـوق عشـرون كتابًـا، وقـد أتيـت علـى الأربعة الأخيـرة في الشـهرين المنصرميـن. وفـي الواقـع فقد بقي كتـاب لـم أقـرأه بعد. رأيت الرجـل فـي هـذه الكتب الأربعـة يكتب عن ترحالـه في أوروبا وأسـتراليا وأمريكا، ساخرًا سخريةً لذيذة، ساخطًا على أمور صغار، لاهيًا عابثًا. هو أمريكي عاش ٢٥ سنة في أمريكا، و٤٠ سنة في بريطانيا.

كتـب عـن اللغـة الإنجليزية أربعة كتـب. والرجل رغم خفَّته ورشـاقة أسلوبه كان وهو في العشرينيات من عمره مدققًا في أهم جريدة إنجليزية وقتئذ: **التايمز**. هو فحل من فحول اللغة، وهو يسخر من قواعد هذه اللغة وإملائها. لكنه يعرف كيف يسـخر؛ لأنـه يعرف اللغة. مبيعاته في بريطانيا هي الأعلى، إذا استثنيت كتب الطبخ وقصص الأطفال.

خطر بباله أن يكتب كتابًا عن «العلم». وهو رجل ترك الجامعة في السنة الثانية، وعاد إليها متأخرًا ليحصل على البكالوريوس. هو رجل لا يعرف الكثير عن العلم؛ لذلك كتب كتابه **موجز تاريخ كل شيء تقريبًا**. ولأنه لا يعرف فقد ذهب يسأل العلماء، وابتلع مئات الكتب. وجاء كتابه -وهو فيما أعلم كتابه الوحيد الذي تُرجم إلى العربية- تحفة من التحف. انتقده أحد العلماء قائلًا: «ما يغيظني أنه ليس في الكتاب أخطاء». استغل برايسون جهله فتعلَّم، وكتب كتابًا رائعًا عن العلم: الكيمياء والفيزياء والجيولوجيا... إلخ. وبسرعة كرَّمته الجمعية الملكية للعلوم (هذه الجمعية التي كان رئيسها ذات يوم إسحاق نيوتن)، وكلفته بتحرير كتاب كبير عن تاريخ الإنجازات العلمية للجمعية. ولقي التكريم الملكي، وأصبح رئيسًا لجامعة دورهام، ونال -حتى الآن- عشر دكتوراهات فخرية. كل هذا وهو رجلٌ ساخرٌ سخريةً حلوة، عابثٌ عبثًا جميلًا، يتناول الأفكار برشاقة مدهشة.

ماشَيته لأرى آخرتها معه، فهو أمريكي أبيض. وأنا مستعد أن «لا» أحبك يا برايسون إذا لم يكن لك موقف من تاريخ أمريكا. ويا لروعة ما اكتشفت!

كنت قديمًا أقرأ تاريخ الولايات المتحدة في كتاب أمريكي جامعي من جزأين كبيرين. تاريخ مشذَّب، مثير للاشمئزاز، مليء بأنصاف الحقائق، وبالأكاذيب أيضًا. المؤسسة الأمريكية تقدم صورة مشرقة لتاريخ مليء بالوحشية. هم في هذا يشبهون الأنظمة القمعية التي تشوه التاريخ.

وجاء بيل برايسون الساخر، جاء عنيفًا، لكن بكلمات تقطر استهزاءً. حدَّثني كيف كان الهنود الحمر يساعدون الواغلين البيض في الزراعة، وفي التعرف على البيئة الصعبة، وكيف أمعن «أجداده» البيض في تقتيل الهنود الحمر بعد ذلك. وحدثني عن السود. نقل إليَّ إعلانًا نشرته جريدة أمريكية قديمة: (عبيد للبيع. امرأة سوداء، ٢٤ عامًا، وطفلان، في الثامنة والرابعة من العمر. العبيد المذكورون يمكن بيعهم جملة أو فرادى، بحسب الرغبة). وبعبارة صغيرة لفَت المؤلفُ النظر إلى أن حالة التفريق بين الأم وأولادها كانت أمرًا سائدًا. حتى نحن في عصور الجواري المظلمة كنا إذا ولدت الجارية ارتقت عن مرتبة العبودية، وأصبحت تسمى «أم ولد»، ولم يجُز عليها ولا على أولادها بيع ولا شراء.

مزق برايسون كثيرًا من الأساطير التي حيكت عن «الآباء المؤسِّسين» وعن الرؤساء المشهورين. اسمعه ينقل لك كلمات محرِّر العبيد أبراهام لنكولن: «لستُ، ولم أكن قطُّ، مع إحداث مساواة اجتماعية أو سياسية بأي شكل بين العرقين الأبيض والأسود... لم، ولن أؤيد أن يصبح السود ناخبين ولا أعضاء هيئة محلفين، ولا أن يتم تأهيلهم لشغل منصب عام، ولا أن يُعقد أي زواج بينهم وبين البيض».

مزق برايسون أكاذيب التاريخ الأمريكي الرسمي بلا رحمة. لكن بالحقائق والاقتباسات، وبغير الانزلاق في النواح. لقد شمخ برايسون في نظري إنسانًا طاهرًا من دنس العنصرية.

ترسانة برايسون: الجلَد على البحث العميق والواسع، والأسلوب الأخَّاذ، والخفَّة، وامتلاك ناصية اللغة. شيء آخر أقوله لك عن بيل

برايسون: «قد شاهدت بضع محاضرات له على اليوتيوب، هو خجول ومتلعثم. وفي اللقاءات يظل خجولًا، ولكن عقله يفيض بالفكاهة الحلوة». وشيء أخير أقوله لك: «لم أجد أحدًا يملك من سعة المعرفة (العامة) ما يملكه بيل برايسون».

الإنترنت مثل المازة اللبنانية -بدأت باستطراد.. فانتبه- يفرشون أمامك على المائدة ٥٧ صحنًا صغيرًا فيها من المقبّلات ما تعرفه وما لا تعرفه، وتظل تنقنق، ثم يأتي الشواء فتعافه نفسك.

الإنترنت طريف: ترى فيه أعلى عمارة وأطول جسر، وترى السيارة التي تشقلبت خمس مرات، وترى الرقص الشرقي.. وترى طبعًا أشياء أخرى أنت تعلمها وأنا لا أعلمها.

لكن الكتاب هو العمق، وهو المعرفة، وسيظل كذلك مدة من الزمن.

توجيه الناشئة نحو الكتاب يجب أن يأتي من الأعلى: من البيت، والمدرسة، وحتى الحكومة. لا ليس من الجامعة، فالذي وصل إلى الجامعة دون أن يكمل قراءة كتاب لن يصبح قارئًا أبدًا.

فماذا أقول لأحد تلامذتي وقد جاءني يقول: «أنا لا أقرأ الكتب، ولن أتغير. وها هو الجدار يا أستاذ فاضرب رأسك به». أقول له: «المرء لا يصبح إنسانًا بقراءة الكتب. أنت إنسان حتى لو كنت أميًّا. وقد يصبح كارهُ الكتاب تاجرًا، أو موسيقارًا، أو عاملًا، أو صاحب مصنع. الكتاب ليس شرطًا لإنسانية الإنسان. وما أكثر المثقفين المتعصبين! وما أكثر القارئين الذين قلَّ نصيبهم من الشهامة والشرف! أنت إنسان بقلبك. والأمم المتقدمة فيها ملايين ممن لا يطيقون قراءة كتاب. لكنَّ فيها ملايين أخرى

ممن يقرأون الكتب. وهنا يكمن الفرق بين أمة متخلفة وأمه متقدمة. الأمة المتخلفة فيها قلة قليلة تقرأ بنهم وتملك المعرفة الواسعة، وهذا لا يكفي للنهوض».

لعلك سمعتَ بالإحصاء الذي يقشعر له البدن: العربي يقرأ ست دقائق في السنة مقابل ٢٠٠ ساعة للأوروبي. هذه مبالغة طبعًا، فلا تنقل عني هذا الإحصاءَ القائم على تخمينات. خذ إحصاء آخر له أساس قوي: في بريطانيا ينشر كل عام ١٨٤٠٠٠ كتاب مختلف. وهذا أكثر مئة مرة مما ينشر في المغرب والجزائر معًا (وهما في عدد السكان أكبر من بريطانيا). ففي البلدين العربيين، اللذين ليس فيهما حرب ولا ربيع عربي، يُنشر أقل من ١٧٠٠ كتاب سنويًا. وقِس عليه.

جرد حساب متأخر

بعد ساعتين أمضي إلى المطار. سفرة عادية. رتبت حقيبتي، لم يعد أمامي شيء سوى ساعتين طويلتين. فهذا سبب هذه المقالة.

أكاد أنهي كتابًا من ألف صفحة عن عظماء الموسيقى الكلاسيكية لمؤلفه مايكل ستين. جلُّهم -اللهم إلَّا سيبيليوس الفنلندي- ماتوا ميتات بائسة، وافتقروا في فترات مختلفة من حيواتهم. وأكثرهم مات دون سن الثانية والستين، التي سأبلغها بعد خمسة أشهر. وأنا بصحة معقولة، ومدخِّن شره، ووزني مئة وخمسة وثلاثون. وبصراحة، قد لا تكون هناك حاجة لجردة حساب، فالجردة هي ترتيب الماضي استعدادًا للمستقبل، وأنا لا أتوقع أنه بقي أمامي كثير مستقبل. لكن، أمامي ساعتان.

أنهيت كتابي الكبير **الزبدة**، تاركًا ورائي أنطولوجيا للشعر العربي في شتى عصوره. ولحقت نفسي، فسجلت كثيرًا من الشعر بصوتي الذي بدأ في الخفوت والتغير منذ بضع سنين، ولست راضيًا عن آخر التسجيلات، ولكنني نفضت يدي من تلاوة الشعر. وسأرتِّب مقالاتي في مجلة هنا لندن للطباعة، بل رتَّبتها ولم يبقَ إلا التحرير الثالث. وستكون كتابًا فيه بعض النثر الجميل، وفيه بعض أشعار أيضًا. فيه خواطر رائقة، وفيه معلومات أدبية عتيقة. هو كشكول يمتع محبي الأدب القديم، وفيه الكثير لمحبي الكتابة الحرة. لا يهمني أمر النشر كثيرًا، سأنشره في طبعة سريعة

في بلدي فلسطين على حسابي، وسأعمم النسخة على الإنترنت، ولتعش حياتها.

وكتابي **غلط غلط** منشور في بلدي ومعمم على الإنترنت، وبه قضيت حق الحديث الإذاعي. وسأجمع مقالاتي في جريدة **الحال**، وقد أنشرها بالطريقة نفسها. وتبقى المقالات الفكرية، وهذه تستطيع أن تكون كتابًا كبيرًا. وقد تكون كتابين أحدهما عن اللغة ومشكلتها معنا، والثاني عن كل شيء آخر. والثاني سيكون صادمًا وقاسيًا.. ومؤجَّلًا.

وروايتي اليتيمة التي قد يكون اسمها **إعصار في السماوة**، سأسعى في نشرها عربيًّا. ها قد أتيت إلى المهمة الكبيرة المقبلة: البحث عن ناشر عربي. وسأجده، ولن أتوانى في هذه. هذه الرواية فيها كتابة مختلفة. فيها انضباط وصفَه أحسن وصف صديقي أحمد عبد الرحيم، عندما فوجئ بأنني تخليت عن روح العبث والسخرية، ثم أثنى على أنني استطعت التحرر من أسلوب، واتخذت أسلوبًا آخر يناسب شكلًا أدبيًّا آخر. مستعد للدفاع فكريًّا وفنيًّا عن روايتي التي تقع في ٦٧ ألف كلمة. لقد عاشت أحداثُها في ذهني نحو خمس سنين. وكتبتُها في اثني عشر يومًا، وحررتُها ثلاث مرات. ولا مانع عندي في تحرير رابع. ولكنها وصلت إلى درجة الخلو من المشكلات في السياق والزمن والأخطاء المطبعية واللغوية.

المهمة الأكبر هي الموسيقى. هل سأظل على فكرتي في كتابة مئة صفحة في شرح الموسيقى النظرية على سبيل التمهيد للقسم الثاني الذي هو نوتات أغنياتي، وكلماتها، وتسجيلها الصوتي؟ ربما. لكن كتاب الموسيقى سيكون المشكلة الكبرى، بل ربما المتعة الكبرى. أول أمس

وقعت على تسجيل بصوتي لأغنية «غير مجد في ملتي واعتقادي». ودهشت! دهشت لأنني كنت أديتها أداء طيبًا حقًّا. ثم غنيتها من جديد، واكتشفت أن صوتي الغنائي، الفقير جدًّا، قد أصبح أفقر. بمزيد من التدرب على الأغنية سأقيمها على قدميها كيفما اتفق. وسأسجل في الأشهر المقبلة نحو ثلاثين أغنية، مدة كل أغنية منها نحو خمس دقائق. فهل سأفضح نفسي بطبع هذه التسجيلات على سي دي مرفق بالكتاب؟ في الغالب سأفعل. سأستمر في محاولاتي اليائسة في إقناع أحد بغناء ألحاني، ولكنني سأغنيها لكي تكون موجودة، ولكي تكون الدليل لمن سيغنيها. اكتشفت أن التدرُّب كثيرًا على الأغنية.. وتركها مدة والعودة إليها يجعل أداءها أفضل: يغوص المرء في اللحن ويركِّز العُرَب. وقد أكتفي بتدوين نحو عشرين أغنية بالنوتة. أميل إلى أن أسجل هذه الأغنيات، لكي أتفرغ بعد ذلك لمزيد من التنويت، وللكتابة. قد أكتب فصلًا عن التأليف الموسيقي في تلحين الكلمة.

لن أعود إلى **اللغة العالية** بالتحرير والزيادة. ولن ألبِّي رغبات بعض الأصدقاء في كتابة سيرة ذاتية طويلة مكتفيًا بـ **حياتي في الإعلام**. لا أجرؤ على كتابة «اعترافات» حقيقية، ولا أريد كتابة «تبريرات».

فاتني أن أتقن النحو والصرف واللغة ذلك الإتقان الذي يجعلني «حُجَّةً» في الموضوع. ولست نادمًا. فقد قضيت وقتي أتسلَّى بأشياء كثيرة، وأنفقت قوة «الذاكرة» في مجالات شتى. حسبي أنني أخذت من علوم اللغة ما يعصمني من الخطأ، وما يمكِّنني من الكتابة السليمة. لستُ، لا في بلدي ولا في بلاد العرب، حُجَّةً في اللغة. ولئن وضعني بعض المحبين في هذا القالب فإنني لم أغترَّ برأيهم الحَسَن فيَّ.

وفاتني أن أكون موسيقيًا محترفًا، فقد بدأت متأخرًا، ولم تستقم لي الملكاتُ الأساسيةُ، فأذني الموسيقية متواضعة، وعزفي ضعيف، ولم أنغمس في الموسيقى الانغماس الضروري، والموسيقي الحقيقي يعيش ويموت لصناعته. على أنني امتلكت أشياء في هندسة اللحن، وفي التعرف على الجملة المطربة، وامتلكت فهم الشعر القديم الذي هو معظم ما لحَّنت. وبهذه العناصر غير المكتملة صنعت ألحاني. وهي عزيزة على قلبي، وكثيرًا ما أتخيلها وقد أُديت أداءً قويًا مع توزيع جيد فأسمع في أذن خيالي غناءً قويًا.

منذ أشهر لم ألحن شيئًا، وكأنني أخلدت إلى أن المهمة الإبداعية قد انتهت، وآن أن تبدأ عملية الضبط وتوريد المنتج إلى السوق.

لن أطالب نفسي بإبداع جديد. يا لقسوة هذه العبارة! هل سأقضي ما تبقى لي من سنوات، أو أشهر، وأنا أُعلِّم الطلبة في تلك الدورات الإعلامية؟ هذا شيء محبب لأنه وسيلة للالتقاء بالشباب، ولكنه لا يشفي.

لن يخرجَ مني شعر. وكنت محقًّا في ترك الشعر في مرحلة مبكرة؛ فقد عرفت أنني لست شاعرًا. ولن أتمكن أبدًا من إتقان لغة أجنبية إتقانًا يجعلني أخوض في ثقافات أجنبية خوضًا بليغًا. سأظل أقرأ بالإنجليزية كتبًا فيها معلومات.

هل سأصدر كتابًا مع تسجيلات موسيقية عن الموسيقى الكلاسيكية؟ ربما. هو شبه جاهز. لكنني في كتاب كهذا أكون مجرد معلِّم ينقل إلى الناس معلومات من الكتب. لا، هذا شيء بائس. قد أعاهد نفسي على ألا

أفعل هذا. أنا أبحث عن فتحة في جدار الكهف المسدود، أبحث عن شيء إبداعي أصنعه فيما تبقى من العمر.

الكتاب الذي يضم المقالات الفكرية قد يتطور إلى طرح فكري متكامل. وكنت أومأت إلى هذا الطرح في روايتي، والواقع أن الطرح موجود في كثير مما كتبت، موجود في **غلط غلط**، وفي مقدماتي الضافية للفصول عن الشعراء في كتاب الزبدة.

أنتظر طباعة مجموعتي القصصية **الرخيصة والرخيص في مصر**. هذه المجموعة مما أعتز به.

أين يوجد إبداع؟ وهل وجد إبداع بعد الثانية والستين؟ كلما ذهبت إلى رام الله قلت في نفسي سأمشي كثيرًا، وسأعيش حياة اجتماعية عادية. وفي كل مرة أجد فيها نفسي في رام الله أقعد في البيت لا أخرج. وهذه المرة سيكون فرضًا عليَّ أن أعيش بعض الحياة الاجتماعية، فسأحضر بعد أيام عرس ابن أخي ثم بعد أسبوع، خطبة ابنتي مريم.

وسأراقب تقدم العمل في بناء شقتين إضافيتين فوق منزلنا. هل أفتح صالونًا أدبيًا؟ أنا لست ذلك الشخص. أبدًا. هل سأكوّن جمعية أدبية أو لغوية؟ لستُ ممن يُحسِن تأسيس أي شيء. ولا أحب السفر، ولا القعود مع الأحفاد. هل أكتب رواية أخرى؟ ليتني أستطيع.

فكرة أخيرة: ماذا لو تنشَّطت كثيرًا على الفيس بوك، وصنعت لنفسي حيزًا اجتماعيًا افتراضيًا مُرضيًا؟ لعلها فكرة جيدة. إبداع. قد عشت عمري كله وأنا أحسب الإبداع كلامًا بين دفتي كتاب. فها هو ذا إبداع في الهواء. إبداع في الفيسبوك ومعه حياة اجتماعية.

آن لي أن أمضي. لو سقطت الطائرة لخلصتني من حيرتي.

فنان في تضييع الوقت

لي في إضاعة العمر فنٌّ ليس لأحد. أنفق سنوات عمري وأسرف.

أربع سنوات قضيتهن أتعلم لغة لن تفيدني في مقبل أيامي إلا قليلًا، ولست بموهوب في اللغة أصلًا، وعشرون أو ثلاثون سنة قضيتها ألملم الشعر العربي وأشرحه وأطبعه في كتب. أنفقت زهرة شبابي وبعض كهولتي على شعر لم يعدُ ديوانَ العرب المعاصرين، ولا جزءًا من وجدانهم. لا يريد أحدٌ هذا الشعر، وإذا أجبرت المدارسُ والجامعاتُ الطلبةَ عليه إجبارًا فمن كرم الأخلاق ألَّا نُعينها على ظلمها.

وقضيتُ ساعات طويلة وأنا أبسِّط النحو للناس تبسيطًا، وأنا رأس المطالبين بالتخفف من الإعراب، وإلغاء بعض أبواب النحو كالممنوع من الصرف، وأنا -أيضًا- أُنكر أشد الإنكار أن يكون للإعراب وتشكيل أواخر الكلمات أي أثر في فهم المعنى، بل أرى المعنى مفهومًا بترتيب الكلمات في الجملة، وبعد ذلك يأتي التشكيل ليجعل حياة المذيعين صعبة، وليجعل المتحدِّثين بالفصحى يحملقون في السقف بحثًا عن القاعدة النحوية وينسون الفكرة التي يريدون التعبير عنها. لا أرى أننا سنعيد إلى العربية بهاءها الإعرابي، بل خير لنا أن نركز الجهد على المفردات ومعانيها مما يثري اللغة ويجعلها أحسن تعبيرًا عن مقاصد الإنسان. ومع ذلك كتبت ثلاثة كتب في النحو ونشرتها. فأي مِضياعِ وقت أنا!

وقضيت أربع سنوات أضع الألحان العتيقة لأشعار اقتبستها أو كتبتها. تلحين على طريقة التطريب. وحتى لو تناولت مقامًا ليس فيه ربع صوتٍ، ونادرًا ما أفعل، فإنني أسير في تقطيع نوطاته وإصحابه الكلام سيرة شرقية طربيـة. وهـذا مجّـه الناس. من شـاء أن يسـمع القديـم فالقديـم موجود، والإنترنـت يقـدم لـك ما تشـتهي. الناس يعيشـون زمنهم لا زمـن آبائهم. سترتُ ألحاني، غير أنه يعِنُّ لي في الحين بعد الحين أن أبرزها، كأني في ذلـك بطلُ رواية كـورت ڤونيغت **البيانو**؛ فإن ذلك الرجل كان متواريًا من السـلطان، مطلوبًـا بجرم كبيـر، وكان في بعض وقته يتسـلّى بنحت بيادق الشـطرنج وأفراسـه ورخاخه من الخشـب، فاكتملت لديه مجموعة رآها بديعـة دقيقـة الصنع متقنة النحت، فأعجبته نفسُـه. فطرق باب جارته يريد أن يريها ما صنعت يداه. فكانت علاقة، ثم كان افتضاح، ثم حبل المشنقة.

مضيـتُ أبدِّد عمري. أشـتغل في التلفزيون خمس سـنوات، وأنا كاره لهذا الذي أعمله، وليس لي في صناعة التلفزيون رغبة.

ولو رأيتني وأنا أنفق ساعات طوالًا أتعقب بفأرة الحاسوب كرة تجري فوق الشاشـة، وأسـجل الانتصارات الباهرة في ألعاب بليدة لعرفت أنني اتخذت العبث طريقةً للتخلص من ساعات هذا العمر.

لا والله، لا يفعل السجين المحكوم بالمؤبد فعلي.

تجدني أفرُّ من كتاب معاصر يسعى مؤلفه إلى استكشاف الكيفية التي يـدور بهـا هذا العالم إلى كتاب عتيق لا يفيد أحدًا، ولا يجعل شـعبًا يقوم ولا يقعد. فلتعلم أن آخر ما قرأتُ قبل أن أدقَّ كلماتي هذه فوق الصفحة قصيدة لشاعر اسمه الكلحبة العرني.

لا أسـافر إلا مرغمًا، وأنت تعلم فوائد السـفر. ولا أنام قبل الخامسـة صباحًـا، وأنت تعلـم مضار السـهر. وقاعد الآن أتسـلى عليك: أكتب لك كلماتي العتيقة، وأقصُّ عليك قصة سأمي من هذه الدنيا.

كل بضاعتـي عتيقة. وعلى مدى هذه السـنوات التي كنت فيها متحيرًا في تبديد عمري كنت أكتب أشياء متفرقة. ولعلي من باب الاعتزاز بالإثم مقبـل على نشـر بعـض ما كتبت. فهذا سيعطيني فرصة ثمينـة لكي أضيع ساعات كثيرة وأنا أطبع ما هو مخطوط بالقلم، وأشكل بالفتحة والكسرة ما هو مدقوق على الحاسوب. وقد أنسق هذا كله تنسيقًا حسنًا وأجعل له الفهارس.

ولسـت، بعدُ، عدميًّا. يشغلني مستقبل شـعبي وبلادي، ومصير الناس الذين أنا منهم. فأنا منتمٍ إلى القوم الذين رُبِّيت وسـطهم. لسـت واثقًا كل الثقـة مـن طبيعـة انتمائـي. أحـب المسْـلمين؛ لأننـي تربيت مسـلمًا، فإذا تعصبـوا نفرت منهم نفورًا. وأحب المسـيحيين؛ لأنني نشـأت في بلد فيه مسـيحيون، وتلمسُ شـغافَ قلبـي محنـةُ تناقصهـم فـي بلـدي، ولكنني أحسدهم على سمو أخلاقهم وعلى تقدمهم في التعليم، وأتمنى أن يكون المسـلمون مثلهـم فـي هـذا وذاك. وانتمائـي للعـرب انتماءٌ إلى لسـاني، وانتمائي للبربر وللكرد انتماءٌ إلى أناس يعيشون معنا ويشاركوننا أراضينا. كل هـؤلاء النـاس أنتمي إليهـم. الكويتيون أنتمي إليهم: فهـم فتحوا آفاقًا ثقافيـةً عندمـا تدفق المـال بين أيديهـم، وسـاعدوا، ولا يزالـون، القضايا العربية وقضيتي الفلسطينية، ثم أصابت كثرتَهم عقدةٌ نفسيةٌ بغزو بلادهم عام تسعين، ولا ألومهم على ذلك، ثم أضروا بالفلسطينيين كثيرًا من باب الحذر ومن باب الانتقام، ومن باب العثور على منفس لتفريغ ما حاق بهم من قلق. (لعل الحكم في الكويت رأى بعد تحرير البلد من الغزو العراقي

أن الفرصة سانحة للتخلص من نصف مليون فلسطيني يميل بوجودهم ميزان الجنسيات الأجنبية.. جاءه الغزو فالتحرير شحمةً على فطيرة). ومثلهم أحب اللبنانيين وأنتمي إليهم، وإن كانوا فعلوا فعل الكويتيين في خضم حربهم الأهلية ثم بعد انتهائها، فقد تصالحت قبائل لبنان واتفقت على إلقاء اللوم كله على رأس الفلسطينيين: هذا يجعل الصُّلح فيما بينهم أسهل. لكن، يخفق قلبي بحب شديد كلما رأيت لبنانيًّا يتنكَّب طريق العوام ويفكر بعقل راجح، ويدرس الأسباب ويوزع اللوم توزيعًا عادلًا ويرفض العنصرية. وهؤلاء موجودون في كل طائفة. وأنتمي لمصر انتماءَ حبٍّ لأن مصر علمتني؛ كبار أدبائها وشيوخ العلم والكتابة فيها علموني. لا أحب تعصب ميلاد حنا لقبطيته ولكنني أتفهمه. ولا أحب العنف الطائفي، ولا استقواء الأغلبية.

ها قد أثبت لك أنني لست عدميًّا. لست كارهًا الدنيا، ولا حاقدًا على أهلها. ربما قليلًا فقط.

تنقص دماغي إحدى القطع. ينقصه دينامو يدفعه دفعًا إلى الإنجاز. ينقصني الهدف الواحد الذي أكرس كل طاقتي للوصول إليه. ومع ذلك فلستُ أحب أصحاب الهدف الواحد المعلوم. أراهم غافلين عن عبثية الدنيا.

أنا في هذه الدنيا أتسلى. أحيانًا يكون إمامي بوكاتشيو الإيطالي الذي راح يتسلى بكتابة القصص. كان واضحًا أنه يحب الكتابة ويتسلى. وأحيانا أأتمُّ بأبي عثمان، فالجاحظ كان يكتب ويحب أن يكتب، ويقرأ ليكتب، ويجتمع بالسوقة وبالملوك ويجمع الحكايات ليكتبها. يكتب وهو فرحان. لكن في قلبي قليلًا من مرارة ابن الرومي.

وأنـا أكتـب عن نفسـي كثيـرًا، أعـرف أن مقروئية هذا أعلـى، أنا ككل إنسان يحب أن يتكلم عن نفسه.

وخطتـي فيمـا تبقـى من سـنوات العمر -أو أشـهُره- أن أفتح لنفسـي موقعًـا على الإنترنت، وأن أكتب. وأن أسـافر وألتقي بالناس لكي أكتب، ولكننـي لا أصبـر كثيرًا على مجالس السـوقة. ولا أحـب مخالطة الملوك ولا المشـاهير، وتشـمئز نفسـي من السـعي إلـى لقائهم، بَلـه مخالطتهم. أتمنـى ألا أسـقط في وحل الإدارة بعد إذ اسـتقلت من قنـاة الجزيرة (بقي على نفاذ استقالتي شهران وأسبوع).

بعد خمس سـاعات أركب الطائرة إلى ألمانيا. سـأقضي أسـبوعًا طيبًا فـي برلين، يومـان لمؤتمر عن الإعلام والسـلام، وأربعة أيـام في التفرج على الناس. بالطبع لن أزور متحفًا ولا مَعلمًا. ولن أقرأ الجريدة الألمانية، فأنا مالٌ من اللغات الأجنبية كلها. الحمد لله أنني حجزت فندقًا آخر على الإنترنت سوى الفندق المحجوز للمؤتمر. فأنا لا أريد أن أحمل حقيبتي وأدور في شـوارع برلين باحثًا عن فندق. إذا طردت الكسـل عني فسـوف أشـتري خريطـة معقولة لوسـط برلين وسأمشـي سـاعات. أعلـم أنني لن أفعل، أنا لا أمشي ولا أحب الرياضة ولا التريض.

فرَّحنـي كتابٌ في الاقتصاد قرأته، وكتاب فـي تاريخ العرب. الكتابان يسـتحقان كلمـة: هما بالإنجليزيـة، معلش. الكتـاب الاقتصادي لإدموند كونـواي وأمثلتـه بريطانية وأمريكية. وهو يضم خمسـين فكـرة اقتصادية، كتاب مبسَّط لغير المتخصص. ومثله يوجين روغان صاحب كتاب **تاريخ العرب** الصادر مؤخرًا (ربما في أواخر عام ٢٠٠٩). روغان شيطان كتابة. وكنـت قـد بعثتُ إليه إيميـلًا حيَّيته فيه، ثم بعثت إليـه فريق تصوير أجرى

معه مقابلة طولها نصف ساعة سنأخذ منها عشر دقائق لبرنامج كتاب قرأته. ومن بين الأسئلة التي أمليتها على الفريق: هل قصدتَ أن تكتب كتابك كأنه سيناريو، وأن تقطِّعه تقطيعًا إلى مناظر؟ وسررت أنه واعٍ بما فعل. وقد أيدني في هذا الرأي زميل تلفزيوني قرأ قطعة صالحةً من الكتاب ودُهش لطريقته وحاول أن ينتج سلسلة وثائقيّة مستندة إلى الكتاب، ولكن الرياح جرت بما لا يشتهي.

«الكتابة الحسنة» ربما كان عنوانًا حسنًا لكتاب أكتبه. لكنني بحقٍّ مللتُ من الكتب التعليمية، وحسبي ما اقترفتُ منها. وقد انتقدتُ نفسي مؤخرًا انتقادًا مرًّا؛ لأنني لا أكتب كتابة سهلة في تلك المقالات الشهرية القصيرة جدًّا التي أنشرها في جريدة **الحال**. قرأت بعض ما كتبتُ وأحسست أنني أبدأ من طرف الموضوع ضنًّا بفكرته الأساسية، ثم أقصُّ على القارئ أمورًا متفرقة تشتت ذهنه، ولكنها تجعله نفسيًّا مستعدًّا لاستقبال النتيجة، ثم أسوق له النتيجة. وهذا أسلوب معلّمي الصبيان. والقارئ الذكي يريد غير ذلك. يريد في البداية «مختصر المدراء»، أي فقرة تجمل الموضوع كله إجمالًا، ويريدها مركزة ومفهومة. يريد أن يطمئن إلى ما سيقرأ. وبعد ذلك يشتاق إلى بعض الأمثلة التي توضح الفكرة الأساسية وتدعمها، وتدعوه إلى الإيمان بها أو إلى إيجاد ثغرات فيها.

لا أعرف إن كنت سأغير كثيرًا من طريقتي في الكتابة، على أنني أودُّ تجنب طريقة المعلّمين.

كيف تكتب الشعر الحداثي

(قبل اندلاع البحر ها)

(صوفاد بخَّر سادنُ الحرم العجوزُ سماحةَ المطران ها)

(صوفاد في زخِّ البنفسج)

(روحي بنفسجة تعوسَجَ عِرقها)

(فقعدتُ في سَبَخات ها)

(صوفاد مِصيَدتي لأصدأ في شعاع البرتقال)

شرح القصيدة

يقولـون قبـل انـدلاع الحـرب (فلنقل انـدلاع البحر)، أحلـى. والبحر يذكِّرنا بالباخرة فلنكتب (بخر)، والذي يبخِّر هو سادن الحرم وسنجعله يبخر سماحة الـ.. لا ليس سماحة المفتي، بل سأقول المطران. والمطران يذكرني بالمطر، لذلك يأتي زخُّ البنفسج. الشاعر الحداثي يجب أن يظل يقول البنفسج إلى يوم يموت.

والآن نستكمل الأسطر، بل الإشراقات؛ فالشاعر الحداثي لا يكتب أسطرًا ولا أبياتًا؛ إنه يتلقى الوحي، وكتاباته إشراق. وهو دائمًا صوفي. لا تقل كلمة «أبيات» أمام شاعر حداثي فهي من بذاءات العموديين.

يقـول: روحي بنفسجة. أليس صوفيًا؟ هو كذلك، وهو ذاتي بالحتم والختم. حتى لو كان مثلنا يشتري البطاطا في السوق، فإنه في شِعره ذاتي

متصل اتصالًا نُباشرًا مع قوى غيبية (والنون في نباشرًا ليست غلطة مطبعية، أنتم لا تعلمون يا سادة كيف تخرج اللغة من سنِّ قلمي خَلقًا جديدًا).

لا بأس في أن يتعوسج عِرق هذه البنفسجة. والعوسج شجر شوكي لم يره شاعرُنا الحداثي ولا أنا رأيته. ولكن الشاعر الحداثي يحب اللغة، ويحب أن يستخدم من كلماتها ما يعرف؛ والأفضل ما لا يعرف. وليس كثيرًا على البنفسج أن يستدعي العوسج. هذه يسمونها الحداثيون (خلِّ عنك يا مُصَحِّح؛ لي لغتي الخاصة) يسمونها الحداثيون «الموسيقى الداخلية».

بعد ذلك قعد شاعرنا في سبخات مصيدته لأنه مأزوم؛ والشاعر الحداثي مأزوم دائمًا. وها هو يصدأ، وقد جاءه الصدأ من حرف الصاد في كلمة مصيدة. تداعٍ حر. ولا بد من الشعاع، فهو من لوازم الإشراق. وليَصدر الشعاع عن البرتقال. فالشاعر الحداثي لديه رخصة باستحضار البرتقال من بين كل أصناف الفاكهة. هل سمعت بشاعر حداثي كتب عن الموز؟

الحداثي يجب أن يسبَّ نزار قباني وأحمد مطر، ويجب أن يكون ناقدًا، وأن يكتب الشعر لنفسه فقط. وهو لا يتدخل في السياسة؛ لأنه فوق السياسة. لا علاقة لهذا بدوامه في وزارة الثقافة.

الحداثي لا يؤمن بأي شكل شعري. له «صوته الشعري» الخاص. وهو يقول لك بعد أن يغمض عينيه نصف إغماضة: «أنا لا أكتب القصيدة؛ هي تكتبني».

أما بالنسبة لكلمة «صوفاد» الواردة في القصيدة، فهكذا أُنزلت.

مقالة الاستقالة

قبل أربع سنوات عُيِّنت مديرًا للبرامج في قناة الجزيرة، وخضتُ غمار الوظيفة؛ فحققت أشياء، وأخفقت في أشياء. وبعد انقضاء سنتين بدأت أرى الإدبار. وصلتُ القمة فيما يمكنني تحقيقه. وما بعد القمة إلا الهبوط من الجهة الأخرى. ما يجعل الهبوط محتملًا هو أن المرتب ينزل في الحساب كل شهر. وما يجعله ضاغطًا على القلب هو أنه هبوط، وأن ثمة بديلًا للهبوط. والبديل أن يقطع المرء طريق هبوطه فيطير من المؤسسة.

هبطت سنتين. لكن، ببطء شديد. وهذا ساعدني على احتمال الهبوط. كانت الأمور تسير على ما يرام. وصلتُ، كما قرأت في أحد كتب الإدارة، «إلى نقطة انتهاء الكفاءة» وكل إنسان له نقطة انتهاء كفاءة. قال مظفَّر النواب: «وكلٌّ على قَدرِ الزيت فيه يُضَاءُ».

كان من مزاياي أنني بارعٌ في وضع إصبعي في خرم السد فيبقى متماسكًا. وضعت إصبعي في خرم السد بأن أدرتُ الناس إدارةً فيها مداراة، وفيها فهمٌ لنفوسهم، ونلتُ ثقتهم بثقافتي وسعة حيلتي. وأخفقت في اجتلاب أناس جدد لدائرتي. أخفقت في توظيف كفاءات قوية. سبب إخفاقي كسلي، وعدم وجود نظام توظيف مرتَّب في المؤسسة. كنت أفضِّل كثيرًا لو كان هناك نظام واضح للتوظيف النزيه. لكن الموجود هو طريقة استقدام أشخاص من أهل الصنعة من مؤسسات أخرى بحسب

المعرفة الشخصية. وهذه طريقة ناجحة.. للآن هي ناجحة. وهي ليست طريقتي، ولا أملك مهارات فيها.

أعزو مشكلاتي أحيانًا إلى ضعف الذاكرة، ولكن الأمر ليس كذلك تمامًا، فلست بالعجوز. أنا مُشَتَّتٌ. جزء كبير من ذهني يعمل في التلحين، وجزء آخر في قراءة الشعر القديم، وجزء ثالث في التسلي بألعاب الكمبيوتر حينًا وبالكلام مع الناس حينًا آخر. فذهني غير مركز في شغلي، ولا في استحضار أسماء الناس الذين من شأنهم أن يعاونونني.

دائرتي تشتغل. تسير بقليلٍ من المشكلات. بعض المشاريع تفشل نصف فشل. وبعضها ينجح نصف نجاح. وقليل منها ينجح كثيرًا.

المرتب يوفر لي تأمينًا لبضع سنوات مقبلة. وجاءت نقطة الطيران. واخترتُها قبل أن أصل إلى الحضيض بمسافة معقولة. أريد أن أطير قبل أن تنكشف نواقصي كلها. وقبل أن تزيد مشاريعي نصف الفاشلة عن مشاريعي نصف الناجحة.

استقلت استقالة قوية وحازمة. وتم رفضها رفضًا باتًّا. ولقيتُ من مديري تقديرًا عظيمًا لشخصي. أهو مثل بعض العشاق، يريد أن يكون هو من يرميني؟ دعاني إلى مطعم أول من أمس، وقال لي: «إنني أحسن واحد في الدنيا»، فألقمني الحجر.

أمس دعا ثلاثة من الموظفين في دائرتي واجتمع بهم. يريد أن يباشر معهم مشروعًا بالتعاون مع دائرة أخرى ضمن المؤسسة. لكنه لم يدعني للاجتماع. وذهب الثلاثة ليجتمعوا به وقد تأنقوا. هذا اجتماع مرتَّب له. عندي مصادر معلوماتي.

وهـذا الصبـاح صحوتُ مـدركًا ما حـدث. مديري يفـكك دائرتي من تحـت قدمـي. أهـو يفعـل ذلـك تمهيـدًا لرميـي؟ إذن فلمـاذا دعانـي إلى المطعـم؟ أم هـو يمارس عـادة كل المديرين في التآمـر؟ أريد أن أنصرف بكرامتي. أريده انصراف اللا غالب ولا مغلوب. وهو يأباه. هو يرى أنني جديـر بمنصـب آخـر أهم مـن الذي أنا فيـه. ولكن، ربما كانـت تلك حبَّة مسكِّن.

شـعوري الحقيقـي الآن هـو أن أقلـب المنضدة وأنصرف. وسـيعرف الجميـع أن المديـر فكَّك لي دائرتـي فانهزمت. سـأنصرف حينئذ بنصف كرامتي. ويخالجني شـعور آخـر: أريد أن أنتظر بعض الوقت حتى أعرف صدق وعوده. فإن صدقت فسـوف أسـتمر، أو أقلـب المنضدة وأنصرف بكرامتي مسببًا له الأذى. وهذا مؤلـم جدًّا لي. فهو الذي وظفني، وله عليَّ حقُّ الولاء، ولن أغفر لنفسي شيئًا كهذا.

هـل أذهب إليه وأقول له: «يا سـيد، لك علـي حق الولاء، ولا أريد أن أنصـرف بضجـة؛ فاتركنـي لأسـتقيل الآن موفـور الكرامة؟» هـو لا يفكر بعقله بل بقلبه... ككل مدير ناجح ومتميز. وإنه لفي غاية التميز والنجاح والقوة. هل أنتظر بعض الوقت؟

الموظفـون سيلاحظون بالتدريـج، لا بـل قد بـدأوا يلاحظـون، تآكل وضعي. وعندي شـهوة خطرة: شـهوة أن أكبت الحسَّاد وأن أُري الجميع أن هـذا الـذي ظننتموه يهبط حلَّق تحليقةً أخرى وصعد إلى قمة أعلى من الأولـى. عنـدي رغبة عارمة في كبت الشـامتين. لا ليسـت عارمة. فأنا لا أتمتـع بمثـل هـذه الرغبات العارمات. وذهني منشـغل بأشـياء أخرى. قد

أكملت تلحين أغنيتين في المعمعة السابقة، إحداهما مليئة بكل جديد وغريب.

هل أصبر صبر الموظف العادي، وأراقب مسيرة التفكيك والهبوط، فإذا ما تعزَّز ظني في أن الوعد مجرد تسكين استقلت استقالةً هادئةً، وانسحبتُ انسحابًا إلى اهتماماتي الأخرى؟ يشجعني على ذلك أن معظم الناس يختارون هذا الطريق. فلن أكون مختلفًا.

مديري ليس من القوم الشرَّانيين. هو يقدِّرني ويريدني. ليست مسألة حياة أو موت. هي مسألة احترامي لنفسي، ورغبتي الدفينة في أن أختار أنا خطًّ سَيري. أريد أن أستريح مما تسميه كتبُ الإدارة «سباق الجرذان»، وهو ذلك التنافس فيما بين المسؤولين في المؤسسة، وهو ذلك السعي إلى التقدم في المراتب الإدارية.

أكون راضيًا لو عملت عملًا رتيبًا، ثم تفرغت أكثر للشعر القديم ولمشروعاتي الثقافية الصغيرة. والأفضل أن أتفرغ تمامًا وأن أتقاعد. ولكن المال الذي معي لا يكفي لشيء من هذا. والمال غير مضمون والدولار غير مضمون. أظن أن من قرأ الأسطر السابقة بإمعان سوف يستنتج أنني سأصبر، وأنني لن أستقيل الآن[1].

---

(١) ملحوظة تحريرية: كان هذا في الجزيرة في زمن كان فيه وضَّاح خنفر مديرًا عامًّا. وسبقني وضَّاح خنفر إلى ترك الجزيرة. وجاء بعده من جعل الاستقالة سهلة عليَّ. في القطعة أعلاه مشاعر المدير المتوسط المختلطة، وفيه دليل واضح على أنني لا أصلح مديرًا. في النهاية استقلت استقالة مشرِّفة وأُقيمت لي حفلتان.. حضرهما مدير المحطة الجديد.

نودّعُك بابتسامة

تخلَّص حسين شهيدي من أوجاعه، وتخلص من سفالات هذا العالم. ومـات. هـذا رجل عرفتـه ربع قـرن، وكان مثاليًّا. هو إيرانـي يتقن العربية ويحاضـر بهـا، وبالإنجليزيـة أيضًـا. حصـل علـى درجـة الدكتـوراه مـن أكسـفورد، ولغته الأم الفارسـية. وكان يقرأ جريدة **الحال**، ويناقشـني فيما أكتـب ويكتـب غيري. هـو حفيد ابن عربـي الذي لـم يكن يُفـرِّق بين دين ودين ولا بين مذهب ومذهب، وحفيد أنبياء الرحمة من ماني إلى يسـوع إلـى محمد. والواقع أنه من أسـرة تنتمي بِنسـبها إلى علـي بن أبي طالـب، هكذا قال لي مرة عندما سألته عن الأعراق المختلفة الموجودة في إيران، وكانت مضت على معرفتي به سنوات كثيرة لم يذكر لي فيها هذه الحقيقة؛ لأنه ليس من أصحاب التباهي بالأنساب.

إذا حـدث أن أثنـى أحدُهـم على دورة إعلامية قمتُ بها سـارعتُ إلى القول: «أعرف من هو خير مني.. حسين شهيدي».

كانت فلسـطين تشـغَله مثلما تشـغله إيران. وأحَـبَّ الأردن التي عمل بهـا، وأحـب لبنان التي تعلَّـم فيها العربية. وبريطانيـا أحبها أيضًا. لم يكن شـتَّامًا ولا ناقمًـا، وغايـة أمـره إذا صـادف موقفًـا رديئًـا فيه نذالـة أنه كان يمسكني من عضدي ويقول: يا خيي! ويمدها على الطريقة اللبنانية مطلقًا ضحكة مجلجلة، ثم لا يعلق بأي كلمة مسيئة.

الصديق القديم ذاكرتك وتاريخك، وخلايا دماغك التي لا تتجدد. وفي العاشر من إبريل/ نيسان ٢٠١٤ فقدت بضعة مني. نحزن على أنفسنا بموت صديق حقيقي، ونبتهج له أن قطع صحراء الحياة ولديه في قربته بعض الماء فلم يعطش.

حسين شهيدي لم يكن يكتفي بالإشفاق على الضعيف، بل كان يحترمه أيضًا ويتعب وهو يبحث عن مكمن القوة لديه؛ لذلك كان معلّمًا كبيرًا. دعاه مركز تطوير الإعلام بجامعة بيرزيت لإجراء دورات تدريبية، فرأى المتدربون شخصًا يحبهم، فتعلّقوا به. ولأننا -نحن المدربين الآخرين- أحببنا حسين شهيدي لم نستطع أن نحسده، بل ازددنا له حبًا. وصارت تدعوه مؤسسات إعلامية أخرى؛ لما حقّق من سمعة طيبة. وعندما طلبته إحدى المؤسسات للمرة الثالثة أو الرابعة، اعتذر قائلًا: «أعطيت ما أستطيع». قد كان التعليم بالنسبة إليه رسالة لا مورد رزق. هنا الفرق، كل الفرق.

هذا رجل لم ألقَه يومًا إلا وهو متفائل. كيف استطاع أن يموت؟

مقابلة ١

- نرجو أن تكون الإجابات قصيرة ومختصرة ومكثفة. ما الذي يشغلك هذه الأيام؟

وفي كل الأيام.. فلسطين.

- ما آخر عمل صدر لك وما القادم؟

آخر ما صدر **إحياء الشعر**، المقبلُ رواية **إعصار في الهلال الخصيب**.

- هل أنت راض عن إنتاجك ولماذا؟

أنفقت خيرة سنوات العمر لاهثًا وراء المرتَّب العالي، فاستعضتُ عن الإبداع بإنتاجٍ كتابيٍّ معظمه تعليمي.. أستاهل!

- لو قيض لك البدء من جديد، أي مسار كنت ستختار؟

فتح مطعم لبيع شطائر الفلافل.

- ما التغيير الذي تنتظره أو تريده في العالم؟

أن أرى العرب في طور الصعود.

- شخصية من الماضي تودُّ لقاءها، ولماذا هي بالذات؟

عمر بن عبد العزيز؛ كان رقيق القلب. أحبه، ومستعد أن أؤلف خرافات جديدة أنسبها إليه. هو بطل أسطوري عربي. وحقيقته -التي ليست بأسطورة- تشحن القلب بكل معنى جليل.

- كتاب تعود إليه دائمًا؟

لسان العرب لابن منظور؛ أقرأه قراءتي للرواية.

- ماذا تقرأ الآن؟

كتابًا لكاثي أونيل بعنوان: **الرياضيات كأسلحة دمار**، ويبحث في الصيغ الرياضية التي يتم تقييم الناس والأشياء بمقتضاها، وكيف تجحف بالمهمشين فيزدادون تهمُّشًا. وفيه أشياء عن خوارزميات غوغل والفيسبوك.

- هل تقترح علينا تجربة غنائية أو موسيقية يمكننا أن نشاركك سماعها؟

لحظة لو سمحت... سأقوم بتشغيل أغنية من تلحيني أدَّيتُها على جهاز التسجيل قبل نصف ساعة. صوتي رديء في الغناء، ولكنني مفتون بألحاني. الأغنية قصيدة «لا تعذليه» لابن زريق البغدادي. وطريقتي في الغناء أن أهمس همسًا حتى أستر نقيق الضفدع التي تعيش في حلقي. عَدمتُ هذا الصوت. لكن اللحن فاخر؛ لم يحظ مقام «الجهاركاه» بلحن مثله.

مقابلة ٢

- ما الذي جاء بك إلى عالم الكتب؟

وأنا صغير كان ملعبي الشارع، وما جعلني أصبر على أذى الشارع وقسوته أنني كنتُ أعيش في عالم آخر في بيتي.. عالم الكتب.

- ما الكتب الأكثر تأثيرًا في حياتك؟

قرأتُ في كتب العلم صغيرًا، ولا سيما كتب أحمد زكي **بواتق وأنابيق في الكيمياء**، و**قصة الميكروب في الأحياء**، و**مع الله في السماء في الفلك**. وقرأت **عرائس المجالس** للثعلبي، وهو كتاب عتيق يسوق قصص الأنبياء على هيئة أساطير. وقرأت العقاد، ومارون عبود، وطه حسين، وسلامة موسى. وظللت حتى اليوم أقرأ العلم والأدب.

- من كاتبك المفضل، ولماذا؟

بيل برايسون؛ لأنه يبحث عميقًا، ويملك الأسلوب الخلاب. ومن فضائله أنه وجد نفسه لا يعرف عن العلوم شيئًا فشدَّ الرحال إلى العلماء يسألهم مئات الأسئلة، وقرأ من كتب العلم المئات، ثم كتب أشهر كتاب له، وهو موجز **تاريخ كل شيء تقريبًا**. مشكلتي معه أنني قرأتُ كتبه جميعًا فأنا قاعد أنتظر أن ينشر حضرته كتابًا جديدًا.

- هل تكتب ملخصات لما تقرأه ؟

ذلك شيء مضى. أصبحتُ أقرأ الكتاب وأنسى كل ما ورد فيه فور الفراغ منه. قضيت مؤخرًا ثلاثة أشهر قرأت فيها حمل بعير من

الكتب في الجغرافيا السياسية بغرض تأليف عرض لخريطة العالم السياسية. لم ألخص كلمة، ولا دونت ملحوظات، رغم أنني كنت أقرأ بغرض التأليف. وعندما قعدت إلى حاسوبي قلت لنفسي: ما علق بذهني من أفكار ومعلومات يكفي... فهذه الأفكار والمعلومات تعرضت لعملية مَخض داخل أعظم حاسوب في الكون وهو العقل البشري. لقد تحولت كلها إلى خلاصة حكيمة. قعدت وكتبت كتابي في بضعة أيام وصدر بعنوان **جولة في خريطة العالم السياسية**. ولم يحتو كتابي سوى القليل مما اختزنته في ذهني من المعلومات والأفكار، لكن ما اكتسبته من قراءاتي المستفيضة جنَّبني المزالق.

- هل تغيَّرت علاقاتك مع الكتب بعد دخول الكتاب الإلكتروني؟

صادقت الكتاب الإلكتروني بسرعة. وقرأت عن الشاشة عشرات الكتب. فأما مكتبتي الورقية فهي في بلدي فلسطين.. وهي كبيرة حد الإحراج، فكلما زارني زائر جديد كان أول سؤال له استنكاريًا: وهل قرأت كل هذه الكتب؟ بالطبع لا. كتبي تحتل الدور الأرضي في بيتي بكامله، وفيها من الأرفف أكثر مما في الدور الأرضي من الجدران، فهناك عدة أرفف ملتصقة ظهرًا لظهر. لقد حرصت على شحن كتبي من كل بلد أحل فيه إلى فلسطين قبيل مغادرة ذلك البلد. شحنت من ألمانيا قبل ٣٥ سنة ٨٦ كيلو من الكتب، وشحنت من قطر صناديق كثيرة كلفني شحنها مبلغًا جسيمًا. هذا إضافة إلى ما عندي من كتب من أيام الصبا. احتفظت بكل شيء.

- **ماذا تقرأ الآن؟**

هيـا نكـذب.. أقرأ كتاب مايكل ولف **النار والغضب**. لا، قد قرأتُه قبل يوميـن فـور وصول النسـخة المسـروقة إلى حاسـوبي. أنفقتُ فـي قراءته ليلتيـن. هـذه الليلة قاعد بـلا كتاب.. أجيب عن أسـئلتكم وأنا «محتاس» - أكثـر مـن محتـار قليـلًا - وأقول لنفسـي هيا تشـجع يـا فتى واقرأ شـيئًا جديدًا باللغة العربية فإن لغتك صارت خشبية. وها أنا أطيل الإجابة على أمـل أن يدهمنـي النـوم، لكـن لا فائـدة.. لا نـوم بدون صفحات. شـعور جميـل أن يسـقط الكتاب على صدرك وأنت تغفـو. وأجمل منه أن يكون الكتاب أمتع من الحلم، فتقوم وتسـتعدي على النوم المهاجم كوبَ قهوة حتى تبقى مع الكتاب الحبيب سويعة أخرى.

مقابلة ٣

- ما أبرز المحطات التي شكَّلت شخصيتك الإعلامية؟

درستُ في مدرسة حكومية، وعشتُ في بيت كبير، فيه الجدة والجدة وعمة الأب والأعمام، فنشـأت كما ينشأ معظم الناس في بلدي. وعملت في التدريس، وكان العمل في الإعلام مجزيًا أكثر؛ فعملت في الإعلام.

- ماذا تعني فلسطين لك؟

تعني فلسـطين لي ما تعنيه السـاق العرجاء للأعـرج. بعضهم يولد في بلد حر، وبعضهم في بلد يقع تحت الاحتلال. فلسطين قدري.

- متى يمكن أن نقول عن المشتغل في الإعلام: إنه يتحدث لغة عربية «صحيحة»؟

عندما تقل أغلاطه، وينطق الفصحى بمخارج حروف معقولة.

- ما مدى حرصك على اللغة العربية؟

حريـص علـى اللغة الصحيحة قليلًا، وحريص علـى المضمون كثيرًا. وأنـا أبيـع (لغـة عربيـة) سـواء فـي الـدورات أو البرامـج.. هـي مطلوبة. الفصحى صارت نادرة.. وهي بضاعة.

- ما الفارق بين تجربتك في هيئة الإذاعة البريطانية والجزيرة؟

ذهبت إلى هيئة الإذاعة البريطانية جاهلًا في الإعلام فتعلمتُ، وذهبت إلى الجزيرة متعلمًا فتعلمتُ أكثر. بارك الله في المؤسستين.

- كيف أنت والإعلام الجديد؟

خبرتي قليلة بالإعلام الجديد، لكنه سيرسم ملامح المستقبل الإعلامي عند الشعوب المحرومة من إعلام صادق.

- قلتَ في إحدى المقابلات «رميتُ نفسي في محطات الوظائف، وتقلبتُ فيها فاقدًا للإرادة، فاقدًا للهدف، ولا أزال»، فماذا تقصد؟ وما هي الأهداف التي فقدتَها؟

الوظائف فيها إغراء المال والنفوذ. ولعلي لم أحقق منهما الكثير. فاتني التبحرُ في العلم. فظللت ألتقط المعلومات التقاطًا، لا تخصصتُ في عِلم ولا ارتقيتُ بفكري إلى مستوى كنت أنشده. حسبي الله على الوظائف.

- كيف ترى مستقبل الإعلام عربيًا وعالميًا؟

التلفزيون في خطر. والجرائد في حالة موت سريري. الراديو عائش الآن فقط على السيارة. وعندما ينجح اختراع السيارة التي تمشي وحدها وينام الشخص في المقعد الخلفي، فإن الراديو سيموت أيضًا. عربيًا.. شعوب العرب بحاجة إلى صدمات كهربائية كثيرة.

- كيف تَعلمت المهارات الإعلامية التي تقوم الآن بتدريب الإعلاميين عليها؟

أحسن ما أصنعه أن أترك المتدربين يعملون وحدهم ويدربون أنفسهم بأنفسهم. لا أومن بالتعليم بل بالتعلُّم. ومهاراتي الشخصية محدودة. أهمها أنني أكتب كما أتكلم.

- في فترة تقلبك بين مواقع إعلامية متعددة، قلتَ: «إن العمل الإعلامي هو: ١٠٪ مهارات و١٠٪ لغة و٨٠٪ حرية.. »، فما المقصود بالحرية هنا؟

الحرية في الحصول على المعلومات وفي نشرها. رأيتُ فيما رأيت وسائل إعلام تمتلك اللغة الممتازة والفصاحة والأجهزة والمهارات في تشغيلها، لكنها وسائل إعلام كسيحة؛ لأنها لا تملك الحرية في نشر الخبر الصحيح.

- ما المواقف الطريفة التي تذكرها في حياتك الإعلامية؟

إعلامي شتمني في وجهي وفي قفاي، وبعد بضع سنين سجل لحضور دورة معي. فلبستُ قبعةَ المعلِّم، واحترمتُ قراره، هذا شخص يريد أن يتعلم فمرحى. أنا أنسى الشتم والإساءة بسهولة، ولكنني لا أغفر ولا أنسى أن يسخر أحدٌ مني. (وبصراحة هذا يدل على ضعف الشخصية، فالذي شخصيته قوية يتبادل مع خصمه سخرية بسخرية ويضحك على نفسه وعلى خصمه، ويتمكن بسهولة من تحييد الخصم أو حتى تحويله إلى صديق. لا أملك هذه المهارة، وعرفت أشخاصًا يملكونها وحسدتهم).

- ما توقعاتك لمستقبل الإعلام واللغة العربية؟

اللغة العربية بخير... وستصبح أفضل إذا أصبح أهلُها متعلمين بشكل أفضل. مستقبل الإعلام مثل مستقبل زر الفلافل في المقلى. سيظل يتقلى سواء قلبناه أو تركناه، وفي النهاية سيستوي. وبالمناسبة اللغة كذلك..

مثـل زر الفلافـل وسـتتطور وحدها. وأقـول للذين يغارون علـى العربية: سألتُكم بالله أن تتركوها وشأنها.

-ما الذي تقدمه من نصائح للإعلاميين تحديدًا، ولعموم الشباب؟

ابحثوا -وبسـرعة- عن مهنـة أخرى. ولعموم الشـباب، تزوجوا باكرًا لتحلوا عقدة الجنس التي ترهق شعوبنا، وتعلموا استخدام موانع الحمل.

مقابلة ٤

- أين ترعرعت وما تأثير المكان على تكوين شخصيتك؟

ولـدتُ فـي نابلس بفلسـطين، وكانت جـزءًا من الأردن آنـذاك. وفيها كانـت «الرعرعـة». وهـي مدينة محافظـة، وفيها مكتبة عامـة. يقولون: إن أهالـي الوديـان ينشـأون ضيقي الأفـق، وكانـت نابلس عام ١٩٥٦، سـنة مولدي، غاطسة بين جبلين كبيرين، لا تكاد تتجاوزهما، وهي الآن تنتشر فـوق الجبليـن وفـوق جبـال أخـرى مجـاورة. وأنا ابـن عائلة مـن الطبقة الوسـطى، أبي خيـاط، وكذلك كان جدي ووالد جـدي. وجدتُ في بيتنا مجـلات كثيـرة وبعـض الكتـب، فمن هنـا ثقافتـي الأولـى. وتعلمتُ في المدرسة أن أكره المدرسة.

- تاريخ مهني طويل، ما أبرز محطاته وأهمها بالنسبة لك؟

اشتغلتُ في جريدة الشعب بالقدس ولي من العمر ١٩ سنة، واشتغلت خطاطًـا فـي وزارة الدفاع الكويتية وأنا في الحادية والعشـرين، ثم عملتُ في التدريس سنوات، في المدارس وفي الجامعة. وعملت مذيعًا ومحررًا في إذاعة لندن إحدى عشـرة سـنة، ومراسـلًا لهذه الإذاعة أربع سـنوات، واشـتغلت فـي قناة الجزيرة سـت سـنوات. اكتشـفتُ أنني أحـب جريدة الأمس، تمامًا مثلما يفضل بعضُهم الطبخة البائتة. وعلى هذا كان عليَّ أن أدرس التاريـخ، ولكننـي لم أنجح في مجال الأكاديميـا. ولأنني لا أحب

متابعة الأخبار، وليس عندي فضول، فإنني قضيت السنوات الكثيرة في العمل الإخباري مرغمًا.

- جمعت بين الخبرة الإعلامية الطويلة وسنوات من التدريس في الجامعة، في أي التخصصين وجدت نفسك أكثر؟

الويل لمن يسألني سؤالًا عن أمر أعرفه، فعليه عندئذ أن يسمع محاضرةً طويلةً. مشكلة المعلم أنه أمام خيارين: الأول أن يعلم الطلبة، والثاني أن يثبت للطلبة أنه يعرف. والويل للمعلم الذي يتفاصح، ويكون كل همه أن يثبت للطلبة أنه عبقري زمانه. ولـلآن أحاول أن أكون معلمًا حقًّا، أن أنسى ذاتي الخبيثة، وأن أحشد كل طاقتي لدفع الآخر لكي يتعلم بنفسه وليمارس. رأيتُ معلمين كثيرين أفضل مني، رأيت أشخاصًا لديهم قوة روحية جميلة في إنكار الذات، وفي السعي لمساعدة الآخر دون التفات إلى ذواتهم، وأنا أحسدهم بحق. أما الإعلام فقد أحببتُ فيه الراديو، غير أنني صنعتُ أيضًا بعض الأشياء في التلفزيون، واشتغلتُ في الصحافة، ولكنني في كل الأحوال أسير في الإعلام سير المعلِّم.

- هل هناك انحدار لغوي لدى المذيعين الجدد؟ ولماذا؟

نحن، العرب، نحب لغتنا؛ لذا حبسناها في غرفة مظلمة وعضلناها، أي منعناها من الزواج. واللغة فتاة لعوب، تحب التعارف والتزاوج مع بيئات شتى ولغات شتى. وقد تزاوجت لغتُنا رغم أنفنا، وتغيَّرت. وكلما بالغنا في إجبارها على أن تلتزم بالعتيق من المفردات والأساليب هربت إلى العامية. كل يوم أسمع موشح «الفصحى في انحدار»؛ فماذا تريدون؟ أن نلغي تعليم الكيمياء والتاريخ، وأن نكتفي بتعليم أبنائنا اللغة؟ اتركوا

اللغة بحالها، وتقدموا في العلم وفي البحث وسترون اللغة تتقدم معكم. المذيعون الجدد لغتهم جيدة. وفي النهاية ما يهمني هو أن يشعروا بالخبر، وأن يكونوا صحفيين، وأن يتقنوا السؤال القصير. وأنا رجلٌ لحَّانة، أي أنني أخطئ في النحو كثيرًا. وقد كنتُ أخجل من ذلك كثيرًا، ولكنني الآن أتفهم نفسي، فالفصحى بالنسبة إليَّ وإلى كل الناس لغةٌ ثانيةٌ. لكنني حريص عليها لأنها اللغة الأنيقة ولغة العلم والتاريخ والأدب. وأنا من أشد المؤيدين لتدريس كل العلوم باللغة العربية. أحب لغتي العربية. وأحب أن تتقدم، وأن تحمل كل العلوم على كتفيها القويتين.

- **كيف تقضي يومك بعيدًا عن مهام العمل اليومي؟**

أمارس الطبخ، ربما أكثر من اللازم. وأنام تحت كتاب سقط من يدي. ومأساة حياتي هي أنني نشأتُ في زمن كان فيه للكتاب قيمةٌ، فرسخ في ذهني أن خير عمل يعمله المرء أن يؤلف كتابًا. وعشت وشهدت الكتاب يصبح غريبًا في مجتمعي العربي. ولم أستطع، رغم كل ما بذلت من جهود، أن أفهم أن الكتاب صار شيئًا من الماضي. مهما بذلتُ من مساعٍ فأنا ما زلتُ مستعبَدًا لفكرة أن الكتاب شيءٌ عظيمٌ.

مقابلة ٥

- كيف أنت والتقنية الحديثة؟

تأقلمت بشكل متوسط. كان من حسن حظي أن سَرَت شائعةٌ في القسم العربي بهيئة الإذاعة البريطانية، بي بي سي، بأن القسم سيستغني عن الطابعات، وهن ست سيدات أو سبع كن يجلسن في غرفة كبيرة ونأتي إليهن حاملين التقرير أو نشرة الأخبار ونمليها على إحداهن إملاءً وهي تطبع على الآله الكاتبة الكهربائية. فبدأتُ أمرّن أصابعي على الآلة الكاتبة، مستغلًّا الأوقات التي تغيب فيها الزميلات، وهو عمل خسيس في الواقع. وصرتُ ببطء أطبع بإصبع من اليد اليمنى وأربع من اليد اليسرى، وهذا ما أفعله الآن. الآن حقًّا لأنني أجيب عن أسئلتك –أخي محمد زيدان– طابعًا لا متكلمًا. وجاء الحاسوب وقررت بعناد أنني لن أدخل على برامج تحرير الصوت، وظلت هذه بقعة عمياء في مهاراتي. لكنني دخلت بقوة في برنامج الكتابة «وورد». وأتعامل بشكل طيب مع غوغل، ومع تنزيل الكتب إلكترونيًا. وبأصابعي الخمس (١+٤) أنزلت ٤٢ ألف كتاب من النت هي مكتبتي. كلما صادفتني مشكلة مع الحاسوب أقول: لماذا لا يصبح مثل الثلاجة، التي تستعملها جدتي بكفاءة؟!

- هل تعيش اللغةُ العربيةُ حالةً من البعث الجديد؟

اللغة العربية لا يتحكم بها أحد، لا أصحاب المعاجم ولا المجامع، ولا أولئك النفر المتباكون عليها، ثكلتهم. فقط، نحتاج إلى أن نقرأ بها ونستعملها.

- هل الإعلام الجديد، ملتزم تجاه اللغة العربية؟

لا التـزام فـي وسـائل التواصـل؛ فأكثـر النـاس يسـتعملون العاميـات المختلفة. هذا خيارهـم.

- ما هو مشروع/ حلم عارف حجّاوي الكبير؟

كحلـم كل النـاس، أن أصحـو من نومـي فأجد كل الذيـن أكرههم قد ماتـوا. ومشـروعي الحالي أن أطبـع كتابًا مـن ٣٥٠٠ صفحة عرضت فيه للشعر العربي منذ الجاهلية إلى إيليا أبي ماضي. وقد وصلتُ فيه إلى نحو ٧٠٪، وأرجو ألا يدركني الكسـلُ. ومشـروعي المقبل أن أكتب كتابًا عن الصراعات السياسـية في العالم. شـيء مقيت، لكنني فرضتُه على نفسي. وبعـده – إن مـد الله فـي العمـر – سأسـجل ألحانـي فـي كتاب كبيـر. فأنا أمارس التلحين منذ عشر سنوات بعناد، وقد أسمعت بعض ألحاني أناسًا كثيرين، كلهم نفروا منها نفورًا لـم يزدني إلا عنادًا.

- هل ستسعى للتركيز على مجال بعينه؟

لـم يبق لدي وقت لكي أخطط لشيء فقد سرقني العمر. أحب التدريب لأمرين: أنني أشعر بأنني شاطر ومتمكن ويمكنني أن أتحذلق على المساكين ممن يحضرون دورة معي، وثانيًا لأنني مولود معلّمًا، ولأنني رُزقت مهارةً في تبسـيط الأشياء. بالنسـبة للغة والمعاجم فقد كتبتُ معجمًا للإعلاميين باسـم «اللغـة العاليـة» أعتز به كل الاعتـزاز. ولا أريد أن أدخل في مشـروع معجمي لأنني لا أملك من العمر ما يسمح بذلك، ولا أملك من المهارات اللازمـة في علم الصرف ما يقـوم بأمر معجم كبير وحقيقي. لكن اهتمامي

باللغة مستمر؛ لأنني أحب العبث بالمفردات والتراكيب. سوف أسعى لتجنب الترجمة راجيًا ألا تضطرني لقمة العيش إليها مرة أخرى.

- ما تقييمك للمشهد اللغوي في فلسطين، وللإعلام والتعليم والمناهج؟

فلسطين في الوسط من ناحية اللغة والثقافة وكل شيء. كثيرًا ما أفكر -حالمًا-: لماذا يا قوم لا تنغمسون في الثقافة والأدب والعلوم بما أنكم قاعدون لا تصنعون شيئًا في مجال السياسة؟! لكن الواقع غير الحلم. تستطيع أن تطلب من المريض في سرير المستشفى أن يملأ وقته الطويل العريض بالمطالعة، غير أنك لن تنصحه بذلك إن عرفتَ أنه يتألم طول الوقت، أو أنه يعاني سكرات الموت. ومجتمعنا الفلسطيني يعيش حالةً من الألم المتواصل والخوف على الوجود. المناهج الفلسطينية أحسن من غيرها، وهي مع ذلك رديئة. والنظام التعليمي في فلسطين أسيرُ صورة جامدة ورثناها عن الأردن ومصر، مثلما ورثنا النسر في شعار السلطة الفلسطينية. لا أدري إن كانت هناك نسور في فلسطين، ولكنني أدري أن هناك كثيرًا من الببغاوات.

- هل تحتفظ بمذكّرات، وهل تنوي نشرها في فترة ما؟

عندي أوراق كثيرة مخطوطة تقتنص لحظاتٍ عشتُهَا، وهي تصنع كتابًا قد يكون فيه بعض الفائدة. ولكنني أمتنع عن نشر سيرة حياتي؛ لأنني لم أقدم شيئًا حقيقيًّا يستحق أن يجعل سيرة حياتي مصدر إلهام. ولو نشرتُ كتابًا عن نفسي ثم جاءني أحدهم وقال لي: «ولكن، من أنت؟!» لذُبت خجلًا. سأنتظر صدور بعض ما كتبته عن الشعر العربي، وصدور كتابي الذي لم أكتبه بعد عن ألحاني، ثم بعد ذلك قد أرتب أوراقي على هيئة سيرة ذاتية.

مقابلة ٦

- بعد ثورات الربيع العربي، والتهجير أين تجد اللغة العربية اليوم؟

تغريبة الربيع العربية (والسورية خصوصًا) ستنشئ جيلًا لغتُه العربية لغة ثانية. وقد بدأت هذه العملية. وأما الجيل الذي هاجر بعد سن الرابعة عشرة فسوف تبقى العربية لغة أولى على لسانه في الغالب. بهذه التغريبة خسرت المنطقة العربية نحو سبعة ملايين إنسان سيخرجون من الثقافة العربية، وسيعود بعضهم إلى بلدانهم العربية على هيئة خبراء، لكن انتماءهم سيكون للبلد الذي رباهم.

- قبل فترة كنت أشاهد برنامجًا للأطفال يعلّمون فيه الطفل الكلمة باللغة الإنجليزية ثم بالعربية ثم باللهجة المحكية، ما الذي يفعله تمكين اللهجة المحلية باللغة العربية؟

البلدان العربية سائرة في طريقين: طريق التقارب بين اللهجات ودخول قدر كبير من مفردات الفصحى لتغني هذه اللهجة الموحدة. وطريق آخر هو تقعيد اللهجة المحلية لتتطور إلى لغة. لقد صنعت برامج الأطفال التلفزيونية القديمة الكثير لتعزيز الفصحى، ومثلها المسلسلات المدبلجة بالفصحى. واليوم غلبت العامية على المسلسلات المدبلجة، وهناك نزوع لدى المحطات الرسمية للابتعاد عن الفصحى كسلًا وقصدًا. وفي هذا الشأن لا فائدة من التباكي على الفصحى؛ فالعوامل التي تشكل لغة الغد موضوعية. وفي رأيي ستكون عندنا بعد مئة سنة لغة عربية

فصحى يعرفها الجميع، وهي سهلة وليس فيها إعراب، وستبقى لدينا لهجات محلية.

- هل نحن في أزمة لا يمكن الخروج منها في لغتنا الأم؟

الإنسان حر يكتب كما يشاء. ولا مبرر لتقديم نصح لمن يكتب بالعامية أن يتحول إلى الفصحى، تلك حريته الشخصية. هناك ٤٠٠ مليون شخص يخطئون في النحو، فمن الملوم؟ الأربعمئة مليون أم النحو؟

- هل انتهى عصر الصحافة الورقية والراديو والتلفزيون؟

ستضعف أكثر صحافة الورق والراديو والتلفزة، ومع ضعفها ستضعف سيطرة الحكومات على الإعلام. وفي هذا خير كثير.

- كتابك اللغة العالية، ما قصته؟

من جهة، هو ككل الكتب التي تهدي الصحفي إلى الصواب اللغوي. ومن جهة أخرى هو كتاب متحرِّر من القيود الصرفية المفتعلة. إنه ببساطة كتاب يؤمن بأن اللغة تتغير، وهو مليء بالعبث.

- عملت في الإذاعة وفي التلفزيون (وربما في الصحافة المكتوبة)، أي عمل كان الأمتع؟

بل قد عملت في الصحافة الورقية محرِّرًا ورئيسًا للتحرير أيضًا. أستمتع بالحديث المنطوق، لكنني في الكتابة أستطيع أن أتلاعب باللغة، وألاعبها؛ ثقة بأن القارئ يملك ما لا يملكه المستمع من التمعن فيما يقرأ.

- قرأت أنك راضٍ عن إنتاجك، وسؤالي هل هناك شيءٌ ما لم تجربه في الأدب؟ ومن الروائي المُفَضَّل عندك؟ ومن شاعرك المفضل ولماذا؟

ربما قلتُ في معرض حديث: إنني راضٍ عما صنعت، وربما كنت قلت في حديث غيره: إنني غير راضٍ. نسيت. الشعر شيء لم أجربه، وإن كنت أقول البيت والبيتين في الفينة بعد الفينة. لست قارئ رواية يمكنه أن يقول رأيًا. أحسن الروايات عندي كتب التاريخ. وأحسن ما كتب عن تاريخنا كتبه غيرُنا؛ لأننا نعيش حقبة الهزيمة (ومنذ مئات السنين)، فكتابتنا لتاريخنا مليئة بالاعتذارية والتمجيد، أو بجلد الذات بلا رحمة. الآخرون يكتبون عنا بموضوعية أكثر. شاعري المفضل في هذه اللحظة البهاء زهير.

- كتبت سلسلة الزبدة «أنطولوجيا الشعر العربي»، هل ينحدر الشعر كلما سار الزمان؟

لا. فقد سرت في مجموعتي من الجاهلية إلى العصر الحديث في خمسة أجزاء. وعندما أستعرضها الآن أجد أن الجزء الخامس الذي يضم شعر العرب في القرن العشرين أحفل هذه الأجزاء بالشعر. فشعراء العرب في القرن العشرين تحرروا من العبودية للحاكم ومن شعر المدح المتكلف، وبرزت شخصياتهم واضحة إذ تخففوا من تقليد الجاهليين. وعندما أجبتك بأن شاعري المفضل هو البهاء زهير (وهو قديم مضت عليه ثمانية قرون) فإنما قلت ذلك؛ لأنه كتب بلغة سلسة سهلة، ولأن شخصيته برزت بوضوح في شعره.

- مغـرمٌ بالتلحيـن، هـل لهـذا ارتباط ما باللغـة العربية؟ وأيـن تعلمتَ عزف العود؟ وهل تفكر في أن يغني مطرب ما قصيدة من ألحانك؟

أنـا لسـت مغرمًـا بالتلحيـن، أنا ملحّـن. ولا أجد علاقة بيـن هذا وبين اهتمامـي بالفصحـى. وتعلمـت عزف العود فـي بيتي وعلى نفسـي. وإذا وجدتم مطربًا (أو حتى مغنيًا لا يُطرب) فقولوا له: إنني أبحث عنه.

- رسالة لصحفي ناشئ.

اقـرأ كثيـرًا واكتـب كثيـرًا. ابـدأ بكتابـة يومياتك، ابـدأ اليـوم. أنا الآن تجاوزت الثالثة والسـتين، ولو أنني كتبت يومياتي وأنا في نحو الخامسـة والعشرين، لكان عندي اليوم سجل رائع بالأحداث والانطباعات.

مقابلة ٧

- سؤالنا الاعتيادي كيف كانت بداياتك؟

اختارنـي القدر من بين نحـو ٢٥ مليون خلية من خلايا أبي لأكون ابنًا لأمي. وعيت على الحرف العربي في الصف الثالث الابتدائي (وكنت في الصف الأول والثاني أميًّا)، اكتسبتُ الفصحى فجأة، في نحو شهرين من الزمـان عـن طريق قراءة كل قصة وكل قصاصة، وسـاعدني أن بيتنا كانت فيه أكوام من المجلات، فمن حسن طالعي أن أبي وأعمامي كانوا يضنون بالمجلات لا يرمونها بعد قراءتها. لم تعلمني المدرسـة القراءة، فالقراءة هـي التي علمتني القراءة. وبالكتابـة تعلمت الكتابة. وكانت الصحف في زمني تنشر القصائد والمقالات الأدبية، فوقع في خاطري أن الأدب شيء مهم. هذا من سـوء طالعي. لم أعرف قطُّ التخطيط لمسـيرتي في الحياة، يكفي لبيان ذلك أنني درسـت الهندسة الميكانيكية بضعة أشهر ثم عفتها. وضعت نفسي على كفِّ القدر، وأنا راض بهذا.

- مارست مهنة الخط في بداياتك، ثم انصرفت عنها باعتبار أنها مهنة ماتت. اليوم يجري حديث عن جعل الكتابة مهنة الروبوتات؟

أدركـت أن مهنـة الخطـاط إلـى زوال حتى قبـل أن أزاولهـا. وقد حل حرف الحاسوب محل ريشة الخطاط سريعًا. لقد جربوا تأليف سيمفونية عن طريق الكمبيوتر، ونالت الإعجاب. كل شـيء ممكن. أتذكر في نحو عام ١٩٩٢ عرضًا قدمه مندوب شركة حاسوبية لبرنامج ترجمة حاسوبي.

حضرت العرض، وكان في مكاتب القسم العربي من البي بي سي، وكان تعليقنا أن هذا لا يصلح ألبتة. والآن تغير الأمر وبدأت مهنة المترجم تموت. وعندما تلحقها مهنة الكاتب أكون لحقتُ بالرفيق الأعلى.

- ما التجربة التي أنضجت قلمك؟

لم ينضج قلمي بعد. أكره ما كتبت، وأشعر كلما اضطررت لقراءة فقرة كنت كتبتها بامتعاض. غير أنني لم أقلد أحدًا.. عجزًا وكبرياء. ولا أخاف أن يسرق أحد فقرة مني وينسبها لنفسه؛ لأنني أكتب نفسي، ونفسُ كل منَّا بصمَته.

- ما مقومات الكتابة الإخبارية؟

هي كتابة الحدث معجونًا بالتحليل. لا خبر إلا وله توجُّه. وهنا أقتبس عبارة تعدد قائلوها: «الخبر هو معلومة يريد بعضهم إخفاءها، وكل ما سوى ذلك علاقات عامة». الشرح: إذا استقبل الحاكم حاكمًا آخر، واستعرضا حرس الشرف وتحادثا، وتوادعا، وأصدرا بيانًا ينص على تطابق المواقف، فهذا «علاقات عامة». وهكذا فكثير مما يسمى «أخبارًا» في جرائد ومواقع العالم العربي ليس أخبارًا. الخبر يحتاج إلى أن يضع المراسل والمحرر في جوفه الغرض الخفي من الزيارة، وتحليل العلاقة بين البلدين وما بينهما من مشكلات، وما يحيكانه من صفقات أو مؤامرات. ولطالب الإعلام أقول: «ستسمع أستاذك يقول لك: إياك والخلط بين الخبر والتحليل! أخي الطالب إما أن تختار طريقته السهلة لكي تشتغل في جريدة رسمية، وإما أن تقتنع بطريقتي».

- قُلت في أحد لقاءاتك: إن النحو والصرف كذبة كبيرة، لماذا؟

لأن شعوب العالم تتعلم لغاتها بدون نحو وصرف. بالقراءة والحديث نتعلم اللغة. ها أنذا أتكلم ولا أفكر في فاعل ولا في مفعول. مع ذلك فإننا مضطرون إلى بعض القواعد؛ لأننا نستعمل لغة لم نقرأ بها ولم نتحدث بها. وعلى الفصحى أن تجاري العصر. المدارس تعلّم من النحو والصرف الكثير، سدى؛ لأنها تعلّم النحو والصرف اللذين عبث بهما القدماءُ كثيرًا على سبيل التسلية.

- يتهم الآخرون اللغة العربية بأنها لغة لا تُناسب العلم، وكيف نثبت بالدليل أنها الأنسب والأقدر؟

الدليل: المعاجم الطبية الإنجليزية-العربية كثيرة، وهي تثبت أن كل شيء موجود بالعربية أو باللاتينية. اللاتينية هي اللغة العلمية لاشتقاق أسماء الأدواء والأدوية، ويستعملها الإنجليز والألمان والفرنسيون وكل الناس بنفس المقدار. ونحن نستعملها. وكل ما هو بغير اللاتينية فله مقابل عربي. قبل نشوء الكيان الصهيوني بـ ٢٤ سنة فتح اليهود في حيفا جامعة تقنية، وسمُّوها «التخنيون». ومنذ يومها الأول قررت أن التدريس سيكون بالعبرية، هذا رغم أن اللغة العبرية كانت خديجًا يحاولون نفخ الروح فيها. ولليوم يدرّسون كل شيء بالعبرية. الذين يتهمون العربية بالقصور العلمي عندهم مشكلة استلاب.

- جيل اليوم لديه مشكلة مع اللغة العربية، لماذا؟

مشكلتنا أننا لا نعترف بأن عربية اليوم مختلفة كثيرًا عن عربية الأمس. مناهجنا تصرُّ على تدريس القديم. ونحن لا نقرأ. وعندنا حالة انبهار،

قريبة من الهبل، بالغرب. وعندنا حالة انهيار طابعها الرئيسي أن الرعاع يتولون المناصب الكبيرة. هذا عَرَض معروف في الدول الموشكة على الزوال.

- قلت: إن كل ما يتعلق باللغة العربية تقليدي، لماذا هذه النظرة، وما هو تصورك لمستقبل العربية؟

هذا تلخيص مجحف لشيء «ربما» كنت قلته. اللغة العربية عظيمة، ودقيقة، وثرية.. ولا ذنب لها في ثرثرة الثرثارين، وفي جمود الجامدين. الناطقون بالعربية اليوم قليلو الثقافة، قليلو الثقة بالنفس. مشكلتي الحقيقية هي مع العرب لا مع العربية. عندما تتفاخر الأم بأن ابنها ضعيف بالعربية وممتاز بالفرنسية، فالذنب ذنبها لا ذنب اللغة العربية الشامخة.

- في ماذا تختلف الكتابة الإذاعية عن الكتابة التلفزيونية؟

في الإذاعة يضطر المرء إلى أن يصف الأشياء، وفي التلفزيون يضطر المصور إلى التقاط هذه الأشياء، فلا يبقى للمراسل التلفزيوني إلا أن يحفر عميقًا في ثقافته ليضيف معلومات لا توردها الصورة. لا أريد تحويل هذه الإجابة إلى محاضرة، لكنني أتهم التلفزيوني العربي بتهمتين: الأولى أنه يعيش في ماضي الجرائد والإذاعة، ولا يكتب للصورة باحترافية. الصورة نفسها لغة، فلو شاهد الشاب العربي فيلمًا من الخمسينيات فسوف يدرك فورًا أن التعامل مع الصورة قد اختلف كثيرًا، من زوايا التصوير إلى تعاقب اللقطات إلى كيفية حكاية الصورة للقصة. الشاب العربي اليوم متعود على الأفلام الحديثة، ويستطيع بمهارة انتقاد الأفلام القديمة إخراجيًا. وبالمثل فإن نص تقرير تلفزيوني في

الخمسينيات يختلف كثيرًا عن نص تقرير تلفزيوني حديث. هذه صنعة، والتلفزيوني العربي يدرسها في معهده نظريًا، ثم في التطبيق كثيرًا ما يعود إلى اللغة المزركشة وإلى الثرثرة وإلى الوصف الجرائدي. كل هذا عن التهمة الأولى. وها هي التهمة الثانية: الإعلامي العربي قليل الثقافة، قليل البحث، كثير الكسل.

- في عالمنا العربي، كثير من التدريب الإعلامي. لماذا لا نرى تغييرًا على مستوى الكفاءات؟

في الغرب يتولى التدريب ناس عركتهم التجربة، وقد يكون بين المتدربين شباب لامعون يُثرون الورشة من خلال النقاش مع المدرب. عندنا يكون الانتساب للدورات مسألة رسمية يسعى المدير إلى تنفيذها بأي شكل فيرسل الموظفين للدورة. وربما انتسب بعضهم إلى الدورة لمجرد الحصول على شهادتها. ولأننا لا نحترم التدريب لا نأبه بمن يقدمه. رغم ممارستي للتدريب كثيرًا فلست أراه ناجحًا. كلما ابتعد التدريب عن التدريس كان أفضل.

- ما الإنجاز الذي تعتز به؟

رواية لي بعنوان **إعصار في الهلال الخصيب**، وهي قيد الطبع.

- العمل الحر من المجالات القديمة الحديثة، فما نصيحتك للشباب العربي بشأنه؟

لم أمتلك الجرأة ولا الاستقرار النفسي ولا رأس المال كي أمارس العمل الحر.

- أصبح كل حامل لهاتف نقال صحفيًا، هل من ملحوظات على هذا التوجه، وكيف يمكن مأسسته وتقنينه؟

عندما يعيش المرء في بلاد إعلامها كذَّاب فهو يرحب بأي شيء: بالشائعات وبالتشنيعات وبالشتائم وبالتشرذم، وبكل ما فيه حرف الشين. بلاد يضع إعلامها الحاكم في مقام النبي لا بد أن ترحب بأي نمط إعلامي مختلف. وها هي بلاد العرب تحاول مأسسة الإعلام الاجتماعي، وكيف.. عن طريق الذباب الإلكتروني. تعجز جيوشها المسلحة عن تحقيق أي نصر، فترسل جيوشها الإلكترونية لكي تمأسس الإعلام الإلكتروني. كنت كتبت قبل ٢٥ سنة: «إذا لم تعطونا الخبر الصادق، فسوف نطلق الشائعات، وسوف نصدقها».

- قناتك على اليوتيوب هل تنوي أن تجعل منها ديوانًا يوتيوبيًا؟

أنا مستطيع بغيري، تسنَّى لي قبل نحو سنة صديقتان أعانتاني في رفع بعض المقاطع، ثم انشغلتا عني. ولست في مزاج صالح لتعلم تقنيات جديدة على الحاسوب، ولو توافر لي مالٌ كافٍ فقد أوظِّف من يقوم بمهمة كهذه.

أنا والناس

أفكار (غير) مسؤولة

عندما وضعوا البزابيز في متوضَّأ الجامع بمصر قبل مائتي سنة قال علماء الشافعية: هذه بدعة، وقال الحنابلة: هذا مكروه، وقال المالكية: هذا غير مستحب، وقال الحنفية: لم لا؟ فصار اسم البزبوز... حنفية.

ومن ثقب هذه الحنفية سأحاول استخراج بعض الأفكار السائلة. أولى هذه الأفكار أن المشايخ يبالغون في التدخل في شؤون حياتنا بتقديم الفتاوى حين لا داعي للفتاوى. وسأظل أنادي بعودة المشايخ إلى المسجد، وعودة الدِّين إلى القلوب... هذه فكرة.

سمَّيت أفكاري «سائلة»؛ لأنني أكره تعبير «النقد المسؤول»، وأفضِّل النقد غير المسؤول. ولماذا يريدون لانتقاداتي أن تكون مسؤولة! لماذا يريدونها أن تقع تحت طائلة المسؤولية! أن تتعرض للمساءلة؟ كي يسألها الحاكم، والمجتمع، وكي يسألها القاضي. «النقد المسؤول» عبارة تخفي وراءها تكميمًا للأفواه.

أعود إلى الحنفية مع فكرة أخرى. كانت حنفية بيتنا القديم من نحاس، إذا أدرت فراشتها بعكس عقارب الساعة قليلًا أعطتك الماء «سنسولةً»، أي خيطًا رفيعًا من الماء، فترغي الصابونة مع قليل الماء بكفاءة عالية، ثم تدعك كفيك بالرغوة فيفعل هيدروكسيد الصوديوم فعله، ثم تدير فراشة الحنفية أكثر فيتدفق الماء بضع ثوان فتذهب الرغوة. ويكلفك غسل يديك كوب ماء.

ثم جاءت الشركة الألمانية.

صنع الألمان حنفيات لها مقبض ترفعه قليلًا جدًّا... فإذا الماء يتدفق كالشلال. وتحاول خفضه «شوية»، وتتعب وأنت تخفضه، ويظل الماء يتدفق. وتغسل يديك، ويكلفك غسل اليدين دلو ماء. وإذا وقفت تغسل الصحون بأمر من السيدة زوجتك، على الأقل هذا ما يحدث معي، فأنت تتعب نفسيًّا إذ ترى الماء المهدر.

في ألمانيا مطر كثير وأنهار كثيرة، وقد اخترعوا حنفيات تناسبهم، فلماذا استوردناها إلى صحرائنا الجافة؟ نقلدهم.

كان استيراد الحنفية لتكون بديلًا عن الاغتراف من الحوض عملًا يخدم التوفير والنظافة، وأما استيراد الحنفيات الشلالية فعمل يستنزف المياه الشحيحة. استيراد الأفكار والتقنيات ليس رديئًا، ولكن تطويعها لحياتنا ضروري. (هذه فكرة صغيرة، أليس كذلك؟ المقبلة معقدة).

بلغت في هذا المقال حدَّ الـ ٣٠٠ كلمة... وقد تعودتُ في الماضي أن أكتب مقالات بهذا العدد من الكلمات، فعندما قال لي الزملاء في هذا الموقع: «أطِل قليلًا»، غدا واجبًا عليَّ أن أجعل الفكرة تلد الفكرة. فإن كنت منشغلًا بشيء فاذهب إلى شيئك. وإن بقيت معي فهيَّا إلى الصحراء.

في دول الخليج يُحلُّون مياه البحر بكلفة ثلاثة دولارات للكوب واصلًا إلى البيت (كلمة كوب عند المهندسين المدنيين تعني المتر المكعب). ما رأيك في أن نقلل الاستطرادات حتى يسير المقال سيرًا حسنًا؟

الكلفة عالية وفيها استهلاك للطاقة ولأغشية الترشيح وللمواد الكيميائية. وتدعم الحكومات الغنية سعر الماء المُحَلَّى فيدفع المستهلك النصف، وتتحمل الميزانية الحكومية النصف.

في بعض البلدان يُعفى المواطنون، أي أهل البلد بخلاف المقيمين، من دفع فواتير الماء والكهرباء إعفاء كاملًا. وههنا مشكلة: الاستهلاك الاستهتاري. ليس عند كل الناس، فمعظم الناس لديهم ذلك الحس الطيب، فلا يبددون الماء والكهرباء كثيرًا. ولكن الإنسان مطبوعٌ على الأنانية، فإذا لم تكن هناك محاسبةٌ فالمرء يميل إلى أن يملأ البانيو لكي «يلعبط» برجليه قليلًا ثم يفتح المصرف ويذهب الماء هدرًا. والمرء يفتح خرطوم الماء نصف ساعة على رأس سيارته كي تستحم جيدًا، والمرء يترك منزله طول الليل يستحم في أنوار الكشافات المركبة على جدران الحديقة، (المصيبة أنه يترك الكشافات مضاءة طول النهار أيضًا، ولكن الشمس الساطعة تجعلنا لا نلاحظها).

الحل: تسيير دوريات تحذر المواطنين من ترك الكشافات طول الليل والنهار، ومن غسل السيارات بالخراطيم. وهذا الحل، القليل الجدوى أصلًا، يكلف الشرطة عبئًا ثقيلًا.

الفكرة المجدية اقتصاديًا تصيب عصفورين بحجر: تجعل المواطن يدفع، وتجعله أيضًا يكسب بعض المال. لنمنح كل بيت مبلغًا من المال كل شهر، وليدفع فواتيره. فماذا سيحدث؟ سيوفر المواطن في مائه وفي كهربائه، وسيفرك كفيه بفرح عندما تأتي الفواتير أقل من المبلغ الممنوح.

تقنين الاستهلاك سيجعل البلد بشكل عام يستهلك أقل، وسيقلل الهدر، وسيجعل المستهلك واعيًا بما يستهلك.

أنا كإنسان أريد أن أتحكم بميزانيتي، ولا أريد صدقة تعقبها مساءلة... فاشلة.

مهنة المدير

صحفي يجلس إلى مكتبه وأمامه شاشة الحاسوب، ويريد أن يكتب مقاله. يندلق كوب الشاي ويلتقطه بسرعة ويبدأ بتنشيف الشاي الساخن وإبعاد الرذاذ الذي أصاب لوحة مفاتيح الحاسوب، ويلاحق القطرات التي بدأت تتسرَّب من سطح المنضدة إلى الأرض. ويعمل حينًا، ويحس بأصابعه أخذت تتلاصق من السكر الموجود في الشاي. يقرر الصحفي أن يشرب الشاي بدون سكر من الآن فصاعدًا، وهو يعرف أنه كاذب في قراره.

تأتيه فكرة، يكتبها على الحاسوب، ثم ينشف الشاي المدلوق، ثم يكتب سطرين، ثم تقع ولاعته على الأرض فتحدث فرقعة عجيبة؛ فقد انكسر البلاستيك من طرفها وانطلق الغاز فرشق ضغطُه الولاعة كأنها رصاصة إلى أقصى الغرفة.

يُخرج الصحفي علبة الكبريت. ثم يقرر أن يترك التدخين، بعد الفراغ من مقاله. كذاب.

سيجارته تستريح على علبة الكبريت. يكتب سطرين.

طبعًا تتوقعون ما سيحدث عندما تحترق السيجارة وتصل إلى طرف علبة الكبريت!

انطفأت السيجارة لأن التبغ رديء. يقرر أن يدخن التبغ الأجنبي من الآن فصاعدًا. يشعل سيجارة أخرى ويكتب سطرين. ويلذ له أن المقال

بدأ يأخذ شكلًا متسقًا. بقيت في قعر كوب الشاي رشفة صغيرة. فما المانع من ارتشافها الآن وقد حصلت المصيبة وعولجت آثارها بعض العلاج. مع ارتشاف الشاي يتحرك سلك الحاسوب المتصل بوصلة الكهرباء القلقة. تبيض الشاشة ابيضاض سوء، ثم تسود. ثم لا شيء. خرج الفيش من البريز، أي خرج القابس من المَقبِس.

إعادة تشغيل الحاسوب. باختصار، المقال طار.

لا ضير. الآن الأفكار نضجت. وتتم إعادة كتابتها بسرعة قصوى. وعلى نحو أجمل وأكثر اختصارًا. أذان العصر. للأسف أن المؤذن المداوم اليوم هو صاحب الصوت الرخيم. لذا لا بد من إلقاء الذهن إليه قليلًا، فاليوم خميس وسيسبح تسبيحة «كيف ترقى رقيك الأنبياء»، وهي لا تفوَّت من حنجرة الشيخ عجعج.

رنَّةٌ على البلاط. معناها أن البرغي الأيمن الذي يمسك مقعدة الكرسي سقط أرضًا. برغي قلق من يومه. ككل شيء في هذه الدنيا. على الصحفي ألا يتحرك يمينًا أو يسارًا وإلا بدأت مقعدة الكرسي الخشبية ترقص تحته.

مهنة الإدارة هي مهنة معالجة المشكلات. هي مهنة الترقيع والتصليح والترميم. لا شيء مهيأٌ كما تريده. كل شيء قلق. نفوس الناس تضطرب من حولك. طلباتهم كثيرة. الموظف «حاسوب» قلق، والموظف الآخر «كوب شاي» قلق، والموظفة سيجارة قلقة. وكلهم يطلبون طلبات عجيبة. حتى الموظف «كرسي»، رغم أنه في قاع السلم الإداري، يعلن العصيان الجزئي.

والمدير الفاشل يفرك يديه في أول النهار ويقول: حسنًا، لنبدأ في تعديل أمزجة الناس وملاينتهم ومسايرتهم. شغلتي سهلة، شغلتي مدير. شغلتي تلبيس الطواقي. وإرضاء الناس، وسأخرج في آخر النهار لا غالبًا ولا مغلوبًا. وسيخرج الناس راضين... بعضَ الرضا. وهذا يكفي.

المدير الذي يصنع هذا الصنيع موجود بكثرة. والمدير الناجح هو الذي، بحاسوبه القلق وبكوب شايه الساخط وبسيجارته المتمردة وبكرسيه النكد، يقوم في آخر المطاف... بكتابة مقاله. لا بد للمدير من تحقيق إنجاز على أيدي موظفيه، ورغمًا عن مشاكلهم.

نعم هناك مدير يمسك بكوب الشاي ويلقي به في سلة المهملات ولا يرتشف الرشفة الأخيرة منه. ويقذف بالكرسي بعيدًا في زاوية المكتب، ويضرب الحاسوب بحذائه. هذا المدير العصابي يطالب دائمًا بإقالة ثلاثة أرباع الموظفين قبل أن يبدأ مشروعه الإنتاجي. وإذا نجح في إقالتهم فسوف يترحم على أيامهم، وسيفشل مع الموظفين الجدد.

مهنة الإدارة هي مهنة الأمور المعلقة. كل أمورك معلقة. ليس هناك من يقين. كل شيء مشكوك فيه. وكل موظف يخدمك في جانب ويخيِّب أملك في جوانب. وأنت تضع رأسك على الوسادة بعد عشر ساعات من العمل المتواصل، وتقول في نفسك: ذهبت من الجبل صخرة، وغدًا أصحو لأحاول من جديد إزالة الجبل.

الجبل لن يزول، والشغل لن ينتهي.

ارتشف أيها المدير الرشفة الأخيرة من كوب شايك، واستمتع باللحظات الصغيرة، ولا تنس أن المقال يجب أن يكتب.

جمعيات بالعشرات

عشتُ في مدينة بألمانيا اسمها دارمشتادت. وكان عدد سكانها أيّامئذٍ في أوائل الثمانينيات مئة وخمسةً وثلاثين ألفًا. وقد دُهشت للعدد الكبير من الجمعيات الموجودة في تلك المدينة الصغيرة نسبيًّا.

هناك جمعيةٌ لمرضى السكر، يلتقي أعضاؤها كل شهر، ويتداولون في أمورٍ تهمهم؛ وجمعية لمالكي السيارات من طراز كذا، فإذا فقد أحدُهم غمَّازًا عرف من زملائه في الجمعية كيف يحصلُ على بديل بثمن زهيد؛ وجمعية لعشاق المطرب الفلاني، أو الروائي الفلاني، وهم يتبادلون الأسطوانات أو الكتب. ومن هذه الجمعيات ما يعمُّ نفعُه الكثيرين: هناك جمعيةٌ معماريةٌ تهتم بالطراز المعماري للمدينة، وأخرى للحدائق، وثالثةٌ للبيئة، ورابعةٌ للحفاظ على سلامة اللغة. عشرات الجمعيات للمعوَّقين وللنساء ولقضايا لا تخطر ببالنا. وكل هذه الجمعيات قانونية ولها ميزانيات، وتتلقى الدعم من أعضائها أساسًا. لكنها قد تتلقى تبرعات من الشركات أو البلدية أو هيئة الحكم المحلي.

إذا كنت تريد أن تقومَ بسياحة في ألمانيا فإنك ستسيح ثم تعود، ولا ترى هذه الجمعيات. إنها الحضارة غير المرئية. إنها متغلغلة في نسيج المجتمع. وهي تُقلقُ راحة البلدية والحكومة بمطالباتها المتكررة. وهذا هو المطلوب: أن يُسَبِّب المجتمعُ للبلدية وللحكومة القلقَ المستمر،

حتى يكون هناك تحسـينٌ مستمر. في بلادنا جمعيات، وهي تتلقى أموالًا أكثر مما تنجز من أعمال.

الجمعيات الناجحة حقًّا في بلدنا هي العائلات. وهي تلملم المجتمع فـي أطر معينـة، ولكنها تفتّته أيضًـا. ووجود جمعيات كثيـرة عابرة للأطر العائلية يسـاعد في سـبك المجتمع سـبكًا قائمًا على المصالح المشتركة، والاهتمامات الثقافية والمعيشية والترفيهية.

مدينة النساء القويات

لم تسبق لي تجربة مع الممارسة الجنسية المثلية رغم أنني ولدتُ ونشأتُ في نابلس. وأغلب ظني أن هذا الشيءَ موجودٌ في نابلس بقدر ما هو موجود في غيرها، إلا أن مؤلِّفي النكت يحتاجون دائمًا إلى عنوان ثابت لكل خصلة بشرية.

على أن هناك قوالب جاهزة أخرى يمكنني التحدث عنها حديث العارف.

نسيت اسم ذلك النابلسي الذي كان إذا أكل أوقية كنافة في السوق عاد إلى بيته ودفع لزوجته ثمانية قروش حتى لا يكون استأثر دونها بمتعة من متع الحياة.

القصة تمثل الرجل النابلسي جيدًا، فهو أنيس وودود وبيتوتي، وله في المطبخ باع، وله في بيته عيشة، ولا يتخذ من البيت فندقًا.

عاش النابلسي بضع مئات من السنين صاحب دكان أو تاجرًا أو إقطاعيًا أو وسيطًا بين أهالي القرى المحيطة بالمدينة وبين أهل المدينة، أو معلِّمًا أو فقيهًا متوسط العلم، أو عاملًا يحمل على كتفه قصعةً يترجرج فيها سائلٌ يغلي وتنبعث منه رائحة مؤذية ويحاول أن يصير صابونًا، أو خادمًا يسعى في حاجات أهل الثروة ويعيش من فتات موائدهم، أو مزارعًا يستنبت الخضار من البساتين التي كانت حتى عهد قريب تملأ

الوادي بين جبلي نابلس الشهيرين عيبال وجرزيم، وترتوي بمياه الأمطار ومجاري البلد.

لـم يعـرف النابلسـي الوظيفـة الحكومية ولا دخـل عالم السياسـة إلا متأخرًا. وما نشـهده اليوم من قلة واضحة في الساسـة وأهل الحل والعقد النابلسيين يعود جزئيًا إلى هذا الماضي. فقد كانت نابلس دائمًا مدينة ثانية أو ثالثـة، فالقـدس عاصمـة سياسـية تاريخيًـا، ويافـا جعلهـا البحـر كبيرة ومهمـة، وغـزة جعلتها النكبات حاضـرةَ إقليمها. لذا ظلـت نابلس الابن الثاني الذي لا يرث وجاهة أبيه.

قلَّ في نابلس من اشتغل بسياسة البلاد، لكن تكونت فيها زعاماتٌ محليةٌ تدافع عن مصالحها المحدودة. وذابت هذه الزعامات بذوبان الإقطاع. وظل المجتمع النابلسـي مجتمع عائلات قليلة العزوة، فلم تتماسك العائلات في تشكيلات واسعة على هيئة عشائر يتزعمها أفراد يتحولون إلى زعماء مرموقين ذوي أتباع كثر كما شهدنا ونشهد حتى اليوم في الخليل مثلًا. ونابلس كانت دائمًا بعيدة عن البداوة في الجغرافيا والطبائع.

أتحـدث هنا عـن مجتمع نابلـس المدينة. ولا بأس قبل اسـتئناف هذا الحديـث مـن أن نلـم إلمامًـا بأثر نكبـة ١٩٤٨ التي جاءت إلـى المجتمع النابلسـي بـآلاف اللاجئيـن الذيـن لـم يسـتوعبهم النظـامُ الاجتماعـي-الاقتصـادي للبـلاد فظلـوا مجتمعًا هامشـيًا يتمتع بعلاقة غيـظ متبادلة مع سـكان المدينة. ولـم تزد نكسـة ١٩٦٧ من هذا الاحتقان، بل ربما خففته قليلًا لأن سـكان المخيمات اسـتفادوا من العمل في إسرائيل مالًا حسَّنوا به حياتهم ووفروا لأبنائهم تعليمًا أفضل.

ربما تكون نابلس قد شهدت في الأربعين سنة الماضية هجرة من الريف ومن المخيم أكثر مما شهدته في قرون كثيرة. وقد بدأنا نرى اختلاطًا بالتزاوج فيما بين أبناء الجيل الثاني والثالث من وافدي القرى والمخيمات من جهة، وبين أهل المدينة من جهة أخرى.

لكن هذا الاختلاط يظل أقل بكثير مما نشهده في مدن أخرى في الضفة الغربية. ومن هنا جاء الوصف النمطي -ولعله صحيح- بأن نابلس المدينة تبغض أهل الريف والمخيم. وهم يبادلونها صاعًا بصاع.

نعود إلى أهل نابلس التي كانت؛ نابلس ما قبل الانقلابات الاجتماعية الأخيرة.

أسلفنا الحديث عن الرجل النابلسي. أما المرأة النابلسية فهي حكاية.

تفحصت عمة أبي الخضراوات التي ابتاعها رجل البيت من السوق، واكتشفت حبات تالفة فقالت له: «أصحاب الدكاكين في «سوق البصل» يرونك قادمًا من بعيد، فيقول بعضهم لبعض: ها قد جاء أبو فلان فهلُمَّ نستعد «لنضحك عليه» ونغبُنه». وصار قولها طرفة من ميراث العائلة. وقد سمعت منها، ربما مئات المرات، تلك الدعوات المنمقة من قبيل «سبعين عين تطرقك».

المرأة النابلسية قوية الشخصية، ولها يد طولى في سَوس بيتها واتخاذ القرارات في شؤون أهله، وإن أدى ذلك إلى مناكفة رجلها الوديع. وهي ذات فصاحة ولَسَن، ولها معجم مستقل من الكلمات والتعابير والشتائم والأمثال والدعوات للآخرين وعليهم لا يستخدمها الرجال.

وأنصح لكلِ من يفكر في الزواج بامرأة نابلسية أن يتأهب، فهي ليست سهلة. لن يستطيع أن يشكمها بعد الزواج بحجة أنه الذكر وكفى. هذه الحجة تعرفها النابلسية وهي طفلة، وقد دحضتها أمها وجدَّاتها من زمان. المرأة النابلسية رمال متحركة، فلا يدخلنَّ فيها إلا من رضي بالاستقرار في داخلها والسير على قانونها.

هذه على الأقل حصيلة مشاهداتي.

ليس النابلسي مادة صالحة للتحول إلى «قبضاي». إنه بالأحرى شخصية مفاوضة تسعى إلى التفاهم. وهو يميل إلى التنفيس عن غضبه بالكلام، وبتعزية الذات، وبقبول الوضع القائم.

ونابلس قد أسبغ عليها لقبها الشهير «جبل النار» ما لا تملك. هي بالأحرى طفل وديع يغفو بين ثديي أمه. ولئن صحَّت أقوال بعض الأنثروبولوجيين عن وعورة أخلاق أهالي الجبال وسهولة أخلاق أهالي السهول، فإن نابلس كانت دائما واديًا، ولم تتسلَّق عماراتها سفوح جبليها إلا في العقود الأخيرة. وأما ثورة عام ١٩٣٦ التي جاء في خضمها اللقب فقد كان الفاعل فيها ريف نابلس، وأما المدينة نفسها فاكتفت بنزع الطربوش ولبس الكوفية بعض الوقت لتمويه تحركات الثوار على القوات البريطانية المحتلة.

نابلس جالسة في قاع زبدية كبيرة. ومن أي مكان من المدينة تستطيع رؤية أربعة أخماسها بيتًا بيتًا. وإذا سألك أحدهم عن بيت أبي فلان فما عليك إلا أن تصحبه إلى الشرفة وتشير بيدك.

لـم يكن للقلة من الأزهريين الذين عادوا إلى مدينتهم أثرٌ بارزٌ في رفع شـأن العلـوم الدينية في نابلس. على أن نابلس أحبـت المعرفة. ربما كان اكتسـاب التعليـم ترفًـا تمتع بـه أبنـاء وبنات الأغنيـاء لعدم وجـود وجوه استثمار أخرى في النصف الأول من القرن العشـرين. وصار المتعلمون الأوائل ذكورًا وإناثًا قدوة. وبالعدوى تعلم كثيرون تعليمًا عاليًا.

وكانت المكتبة البلدية التي أنشـئت عام ١٩٦١ أكبر مكتبة في الأردن لعـدة سـنوات، ومـا زالـت مكتبـة مهمـة. وكان يرتادهـا كثيـرون من غير الطلبة. وأمثالي ممن تجاوزوا الخمسين يصرون على أن عصر الانحطاط الحالي جعل رواد المكتبة يقتصرون على الصبية الذين يأتون إما للتسلية، أو لاجترار كتب مدرسية يحضرونها معهم.

رأيت رئيس بلدية نابلس حمدي كنعان يزور المكتبة في أواخر الستينيات وكان معـه لفيـف من كبار الـزوار. وبعد أن تجول مع ضيوفـه بين الرفوف برفقـة أميـن المكتبـة، اتجه نحـو الباب وبيده كتـاب إنجليزي اختـاره أثناء جولتـه. عنـد البـاب تصدَّت لـه موظفة درج الإعـارة، وألزمتـه أن يقدم لها الكتاب لكي تسجله. ودار بينها وبينه حديث، وقال لها رئيس البلدية: «إنه بالتأكيد سيعيد الكتاب فأين المشكلة؟» وأفهمته الموظفة بابتسامة عذبة أن القانون هو القانون. هذا موقف شهدته بعيني وترك في نفسي شيئًا.

وصلت نابلس ومعها أجزاء كثيرة من فلسـطين إلى لحظة الإحسـاس بلذة أن يكون هناك قانون. لكنه كان حلم ليلة صيف.

من مكتبة بلدية نابلس اسـتعرت كتب كثيرين من أبنائها: عادل زعيتر، مترجم مونتيسكيو وفولتير، وأحد أساطين التراجمة في العصر الحديث؛

وأكرم زعيتر المؤرخ والخطيب؛ وفدوى وإبراهيم وقدري طوقان وثلاثتهم عاشوا وماتوا في نابلس وأثروا في أهلها وفيما أبعد من ذلك؛ وسحر خليفة الروائية المهمة.

يدهشني التناقض بين شخصيتي فدوى طوقان وسحر خليفة. فالأولى كانت غاية في الوداعة والرقة، وكانت شاعرة بكل معنى الكلمة، والثانية امرأة نابلسية بحسب النموذج الذي رسمته – محقًّا أم مفتريًا – مقدامة وذات شخصية قوية وصاحبة رؤية أدبية جريئة وأصيلة.

وقد عرفت فدوى طوقان بعض المعرفة، وقصَّت عليَّ قصتها المشهورة عن أبيها المتجبر الذي حرمها التعليم الرسمي. ولكنني أميل إلى تصديق عجائز نابلس اللائي يقلن: إن الأمر لم يكن كذلك، وإن فدوى كانت تبالغ لتستدر العطف. من يدري! فقد عاشت فدوى طوقان حتى خنقت الثمانين ونيفت، وصارت روايتها عما حدث المصدر الوحيد؛ لذا رأيت أن أسجل رأي عجائز نابلس لأنهن محرومات من وسائل الإعلام.

للهجة النابلسية من يتذوقها. وأكثر الناس غرامًا بها مثقفو القرى المجاورة، الذين يرونها مخلوقًا عجيبًا لأنه شديد التميز. فلهجات القرى في طول فلسطين وعرضها تشترك مع بعضها البعض في كثير من المفردات وطريقة النطق. ولهجات العديد من المدن تلونت بفعل الاختلاط. وبقيت في الضفة -وربما في فلسطين- لهجتان شديدتا التميز: لهجة الخليل ولهجة نابلس.

اللهجة النابلسية فيما رأيت وسمعت أعصى على التقليد من أختها الخليلية؛ ربما لأن اللهجة الخليلية اشتهرت أكثر، واتخذت مادة للتندر في منطقة واسعة بسبب الهجرة الخليلية المبكرة للقدس ورام الله.

أبـرز ما يطرق الأذن فـي لهجة نابلس توزيع النبر على مختلف مقاطع الكلمـة بما يقرب من التسـاوي. وهـذه الميزة تجعـل وقع اللهجة يوحي بالبلادة والبطء. لا بل إن اللهجة العتيقة تجعل كل مقطع من الكلمة ينطق مـع بعـض الانفصال الصوتي عن المقاطع الأخـرى. ومما يلاحظه المرء بسـرعة الإمالـة فـي أواخـر الكلمـات بحسـب نظـام معين. فأنـت تقول: «شـرقَه» بفتح القاف إشـارة إلى الحي الشـرقي من المدينة، فإذا أردت أن تشـير إلى الحي الغربي قلت: «غربِه» بكسـر الباء. وتصف ألوان شـنطتك فتقول: إنها شـنطة «صفرَة» بفتح الراء، و«سـودِه» بكسر الدال. ولا وجود للثـاء ولا للـذال ولا للظاء ولا للقاف في لهجة نابلس العتيقة التي تجدها الآن على ألسنة قليلين في البلدة القديمة وبين أبناء الطائفة السامرية الذين حفظوا اللهجة في أصفى صورها.

ونزيد همزة في أوائل بعض الكلمات: «أبِدوش بيجي؟» (بمعنى: ألا يريـد أن يأتـي؟). وكثيـرًا مـا نزيد همـزة مكسـورة أخرى فنجعـل العبارة (إأبـدوش بيجي؟) ونقول مخاطبين الرجـل: «بدكّيش تروح»، ونخاطب البنـت: «بدكّيـش تروحي». فبدكّيش للمذكر والمؤنث سـواء بسـواء ولو كره الآخرون.

ولنا غرام -من بين الحركات الثلاث- بالضمة: فالفُلفُل عندنا مضموم الفاءين كما في الفصحى، والسُمسُم مضموم السينين خلافًا لها. والأفعال تتزين بالضمة في المواضع التي لا يتوقعها أحد.

عندما وقفتُ أمام شباك مكتب التسجيل في جامعة بيرزيت قبل خمس وثلاثين سـنة قالـت لي الموظفة: «إيش بدّك؟» فقلـت لها: «بدي أحجُز»

(بضم الجيم)، فانفجرت ضاحكة، وأدركت أن الذي تراه من فتحة اللوح الزجاجي رأس نابلسي طازج.

انتقلت عن نابلس بعد أن بلغت الثامنة عشرة، وصرت أزورها بعد ذلك مرة في السنة أو مرتين؛ لذلك فإن كلامي إنما يصور انطباعاتي عن تلك المدينة في زمن معين. أما ما جرى عليها في العقود الأخيرة فلم أرصده بما يكفي لوصفه.

افتحي ثلاجتك

افتحي ثلاجتك: مربى فرنسي، زبدة دنماركية، جبن تشيدر إنجليزي، خبز بلدي.. مصنوع من دقيق أمريكي. افتحي الجمَّادة: لحم أسترالي.. الجزار من بلادنا والسكين والخروف مستوردان. انظري تحت: حذاؤك المنزلي صيني. انظري فوق: صباغ بيتك ألماني. الآن اركبي سيارتك المستوردة، يا ست «تفيدة» لكي تذهبي مع عضوات الجمعية الخيرية إلى حي الصفيح، ومعكن رزم الملابس الشتوية القديمة للتبرع بها.

عادت الست تفيدة إلى البيت، بعد تلك الزيارة إلى حي الصفيح، وهاتفت زميلتها: «ليس معقولًا هذا الذي رأيناه. خبزهم فيه رمل، وسكَّرهم فيه تراب. لو كان الرمل في السكر لكان قد رسب في قعر كوب الشاي، ولكان أهون. لكنَّ قدرهم أن يبلعوا كل شيء».

هذه بالطبع قصة خيالية، ولكنها تستند إلى حقيقة. وتفيدة (غيرتُ الاسم) مرضت ثلاثة أيام؛ وهي تصر على أن المرض كان بسبب هول ما رأت، وليس بسبب كوب الشاي الملوث.

نبحث، نحن العرب، عن أعداء لكي نهزمهم، نركز أنظارنا على الأمم المنتعشة نريد تدميرها. وعندنا طبقات حاكمة تتعامل مع هذه الأمم وتبيعها قطعةً من سيادتنا وقطعةً من أرضنا، وقطعةً من حقوقنا الاستراتيجية، وتبيعها حلمنا بالمستقبل. والمقابل: الحصول على سيارات بي إم، وشوكولاطة سويسرية.

فيما يلي تصنيف للعقول الموجودة في بلادنا العربية. أولًا: عقل الثري الذي زوَّج ابنته من ابن الوزير، فهو بالتالي ابن الطبقة الحاكمة. هذا الرجل حريص على أن يأكل أولاده اللحم كل يوم، وعلى أن يركبوا أحسن سيارة، ويتفكهوا بأحسن شوكولاطة، ويلبسوا المستورد الغالي. يريدهم وحوشًا. يريد لهم أن يذوقوا طعم النعمة حتى يعرفوا كيف يحافظوا عليها عندما يكبرون. من نشأ في الترف حمل سيفَه ليحافظ على الترف. عقل الثري يحسب الحسابات الدقيقة، المهم عنده تجارته وعلاقاته المفيدة. هو لا يفكر بمستقبل البلاد. ثانيًا: عقل الفقير المعدم، هذا عقل يشبه كتلة السباغيتي التي أمامك في الطبق. ومثل السباغيتي فهو يتقبل أي صلصة. والتلفزيون الحكومي يساعده على أن يبقى في حالته السباغيتية. هو يصدق كل شيء ويكفر بكل شيء في الوقت نفسه. هذا عقل أنهكته قلة المعرفة والانحصار في مدى جغرافي ضيق، هو كالإنسان الأول. ثالثًا: عقل ابن الطبقة المتوسطة، وهي في بلادنا طبقة تنحدر بتسارع. هو متعلم قليلًا، وتعجبه الأفكار الشاذة. يكون يساريًا فلا يهمه شيء إلا أن «أمريكا رأس الحية»، ويكون يمينيًا فلا يعجبه إلا أن يعيد عقارب الساعة إلى الوراء. هو عقل عنيف، وصدق المثل الإنجليزي: «المعرفة القليلة شيء خطر». وكثير من المثقفين العرب يملكون هذا الطراز من العقل. ينجرفون في آرائهم، ويبحثون عن سبل التدمير لا سبل البناء.

ليس مطلوبًا مني أن أشقَّ الطريق إلى المستقبل وأفرشه بالحصى والأسفلت. لقد شقَّته شعوب عديدة، وما علينا إلا أن نفحص تجاربها. إزالة العوائق أول المهام وآخرها. فإذا أزيلت فالطريق يسفلت نفسه. العائق الأول: المعرفة القليلة، والمعرفة المنحرفة. وهو عائق كبير.

العقول التي ليس فيها علوم، والأيدي التي لا تملك المهارات الصناعية والزراعية عائق. العائق الثاني: مافيا الحُكم. فهذه المافيا -المكونة من الساسة والأثرياء: والساسة أثرياء، والأثرياء مرتبطون بالساسة، هم جميعًا شيء واحد- سعيدة برفاهيتها. وتخاف من منح الفرص لقطاع واسع؛ لأن هذا يهدد ما تقوم به من بيع البلاد.

عندما حاول عمر بن عبد العزيز أن يخرج على مافيا الحُكم سقوه السم.

إزالة العائقَين معًا طريقةٌ مُجرَّبة. وغالبًا ما تكون هناك حاجة إلى نخبة ذات «رؤية» أو ذات «مصلحة». ها هي نخبة ذات مصلحة: أرباب الصناعة في بريطانيا كانوا «نخبة مصلحية»، أرهقهم ملاك الأراضي من بقايا الإقطاع بقوانين سنُّوها في برلمانهم لخدمة مصالحهم كقانون القمح سيئ الصيت. فسعوا في توسيع التمثيل البرلماني، وتوسيع دائرة منح الفرص. ظلت بريطانيا رأسمالية، ولكن النخبة المصلحية فتحت بابًا لتنشيط الصناعة ولتصنيع الزراعة. وها هي «نخبة ذات رؤية»: العائلة الحاكمة في اليابان، أسرة ميجي قبل مئة وخمسين سنة فتحت أبواب العلوم، وأخذت على يد الإقطاعيين. وبسرعة نهضت البلاد. وظل الإمبراطور مقدسًا، لكن الفرص أتيحت لقطاع واسع.

أحيانًا تتولى النخبة الحكم بعد ثورة، وأحيانًا لا تكون هناك ثورة. وقد كان الربيع العربي ثورات، واكتشف الثائرون بثمن باهظ قوة مافيوات الحكم في عدة بلاد. واكتشفوا الاهتراء المعرفي عند الشعوب. وسنعيش سنوات قد تطول قبل أن يتحقق العنصران: المعرفة والنخبة.

اجتاحت العربيَّ موجةُ حزنٍ عندما صعد الأمريكيون إلى القمر، وقال في نفسه: «أين نحن من ناسا؟» وسمع العربي بتقنية النانو، والروبوط، وقال في نفسه: سأحتاج إلى ألف سنة كي ألحق بالركب.

لكن، لا. ليس عند كوريا ناسا، ولا عند ماليزيا تقنية النانو. وليس مطلوبًا من كل شعب أن يصنع كل شيء، ولا من كل فرد أن يعرف كل شيء. ثم إن المسألة ليست مسألة سنين. الموهوبون كثر، لكنهم بدون فرص لا يصبحون شيئًا. والذي يمنح الفرص لعموم الناس هي النخبة التي لا تكون مافيا.

والموهوبات كثيرات. ولكن تقييد المرأة في الطبخ والإنجاب يجعلنا نتكاثر كالأرانب ونفقد مواهب كثيرة تظل مدفونة في عقول النساء. ماري كوري حصلت على جائزة نوبل مرتين. والمختبرات في بلدان كثيرة عامرة بالنساء اللائي يجرين أعقد التجارب.

المرأة تستطيع أكثر من الطبخ والرقص الشرقي.

الاختلاط

طُلِبَ إليَّ أن أكتب مقالة عن المرأة، أو عن الآثار، أو عن النكبة.

فأما النكبة فنحن نراها بأم أعيننا. وما نحن فيه كفانا شرَّ الحديث عن نكبات الماضي.

وأما الآثار فكل ما عندي من أفكار فيها لا يتعدى السطرين: حافظوا على الآثار أو لا تحافظوا فالزمن كفيل بتحويل كل شيء إلى آثار. الآثار شيء متجدد. وقد يعجز المنقبون عجزًا فاضحًا في العثور على أثر واحد يؤيد رواية سياسية أو تاريخية، فيأتي المؤرخون المزيفون ويستعيضون عن الآثار بنصوص يزعمونها مقدسة، واليهود في فلسطين سادة هذا الاتجاه. لقد أعجزهم علمُ الآثار فلجأوا إلى النص.

وأما المرأة فهي حبيبة قلب الرجل، ومن الحب ما قتل، ومن الحب ما حبس، ومن الحب ما اضطهد. ويفعل بعض المتزمتين بالمرأة فعل المؤرخين المزيفين بالآثار. يعجزون عن العثور على سند ديني لاضطهادها، فيلجأون إلى التقاليد لكي يحبسوها ويحرموها حقوقها.

النساء يؤدين فريضة الحج مع الرجال، ويؤاكلن الرجال، ويتعلمن معهم. وجاء المتزمتون وظلوا يضيقون على المرأة ويسترونها كأنها عيب من العيوب. وليس لديهم حجة من الدين، بل هي غريزة حب السيطرة.

ويقولـون: المـرأة فتنة. ألا حقًّا مـا يقولون: المرأة فاتنـة، لكن الرجل أيضًا فاتن. وقد خلق ربك الجنسين كي يتقاربا ويتفاعلا.

قد كنت أعلِّم الفتيات والفتية في الجامعة في تخصص الإعلام سـت سـنوات. وكان مـن حسـن حظي أن عـدد الفتيـات كان دائمًـا يفوق عدد الفتية بقليل. لـم أشاهد -ولا مرة واحدة- أمرًا شائنًا. بل لقد تخرج طلابي وطالباتي، وهم جميعًا أقدر على تفهم الجنس الآخر. بكل بسـاطة أقول: كان التعامـل فيمـا بينهم أخويًا. فـي البدايات كان الطالـب القادم من بيئة محافظة «يكش» قليلًا، وكذا الطالبة. ولا تمضي أسـابيع قليلة حتى يأخذ الطلبـة جميعًـا -مـن الجنسـين- فـي العمـل في مشـاريع مشـتركة، وفي التفاعـل الصحي الإيجابي. ويدرك كل واحـد وواحدة أن المجال مجال عمـل وتعلُّم. ويدرك الشـاب أن الفتاة مخلوق نشـط وذكـي ولا يقل عن الشـاب في أي شـيء. وتدرك الفتاة أن الشـاب ليس مجرد شخص صائع يعاكس الفتيات، بل هو مخلوق لديه ضوابط من الخلق الحسن. ومن لـم يكن حسن التربية في بيته فإن وجوده في بيئة صحية مع فتيات يربيه.

الشاب الذي درس في جامعة مختلطة يصبح أكثر تهذيبًا.

أنـا أدعـو أيضًا إلى الاختلاط المدرسـي فـي كل المراحـل. وتجاربنا الحيـة فـي هذا المضمار ليسـت قليلة. هناك في فلسـطين مدارس خاصة كثيـرة فيهـا اختلاط. وأنا أعيش منذ ثلاثين سـنة فـي رام الله، وقد علَّمت سـنتين منها في مدرسـة الفرندز المختلطة، وأرسـلت بنتين لي إلى ثلاث مدارس مختلطة. وحمدت النتيجة. ولـم أسمع شيئًا يسوءني عن الاختلاط المدرسـي، لا مـن بناتي ولا مـن أي أحد، طوال هذه السـنوات الثلاثين.

وأول مدرسة مختلطة أرسلت بنتيَّ إليها كانت الإبراهيمية بالقدس: مدرسة إسلامية مختلطة لكل الصفوف.

كلما فُتح موضوع الاختلاط في المدارس أقول لنفسي: الدليل موجود أمامكم.

فماذا نصنع بالفتنة؟

هذه طبيعة إنسانية: أن يميل المرء إلى الجنس الآخر. وهي طبيعة جميلة ويحسن بالمجتمع أن يراعيها، وأن يتخذها وسيلة إلى تعزيز الألفة.

البحث عن مهنة لا تموت

ما أقبح الشاشـة البيضاء في عين الكاتب، يفتح شاشة جديدة، وتلعب أصابعه في الهواء غير مجترئة على لمس مفاتيح الحاسـوب. يكاد ينشـقُّ من الغيظ، فقبل سـويعات كانت يكتـب على صفحة ذهنه عبارات رائعة، كان يؤلف مقاله في عقله وهو يمشي بين أرفف السوبرماركت، فتتسلسل العبارات جميلة معبرة تحمل الأفكار على جناحي نسـر يحلق عاليًا دون أن يرفرف بجناحيه. أين ذهبت كل تلك الأفكار والعبارات؟

عندمـا كنـت أكتب على ورق كانت الصفحة البيضاء قبيحةً أيضًا، غير أنني كنت أبدد حالة الاعتِقام الكتابي برسـم البسـملة، ثم أزخرفها بتوريق وتزهير.

قد نشـأتُ علـى فكرة أن إتقان الخط العربـي، بأنماطه، خير ما يصنعه المـرء. ومضيت شـوطًا فامتهنت كتابة العناويـن في بعض الصحف، ولم أمتنع عن ارتقاء سـلَّمٍ لكتابة يافطة معلقة فوق دكان. ظننت الخط العربي فرض عين، فإذا هو فرض كفاية. وجاءت الحروف الجاهزة «اللتراست»، ثم هجم الحاسوب، فصار كل شخص خطَّاطًا.

كان الخطاط في الماضي يشقى طول عمره كي يُجوِّد صنعته. كان في تركيا خطاط اسـمه الحافظ عثمان (كتب بقلمه ٢٥ مصحفًا) وكان يقول: «عندما أفتح مصحفي لأقرأ القرآن أعرف الورقات التي كتبتها يوم السبت. فهـي أقـل جودة من غيرها». ذلك أنه يكون قد اسـتراح يوم الجمعة فيأتي

عليه السبت وقد صدئت مهارتُه بعض الصدأ. فتخيلوا هذا الفن المعقد الذي يحتاج إلى مران بلا انقطاع طول العمر.

بعد أن كان العالم العربي محتاجًا إلى نصف مليون خطاط أصبح محتاجًا إلى عشرة يصممون الحروف للحاسوب.

آلاف الساعات التي أنفقها كاتبُ هذه السطور في التدرب على أنماط الخط العربي كان يمكن ملؤها بما هو خير من ذلك النشاط الذي جعله الزمن عقيمًا. ها أنا قاعد أندم. وقد بدأت أندم قبل بضع عشرات من السنين. بدأت رحلتي مع الندم وأنا في الثانية والعشرين من العمر. وبدأت في لحظة معينة أذكرها جيدًا.

كنت أعمل خطاطًا في وزارة الدفاع الكويتية، وزُرت خطاطًا في مشغله. رأيته قد علق على الجدار آيات خطَّها بقلمه، فإذا الرجل ضعيف المهارة مرتجف القلم. ورأيته يصنع لافتة ضخمة: صندوق ألومنيوم بداخله أضواء النيون، وعلى واجهته لوح بلاستيك أبيض عليه اسم الدكان. وماذا عن الخط في اليافطة؟ الخط مكتوب بحرف «اللودلو» الجاهز. وما كان على صاحبنا إلا أن يكبر الحروف ويرصفها. انتهت مهنة الخطاط القديمة. صار غير الخطاط خطاطًا... صار مجرد راصف للحروف الجاهزة. ماتت المهنة.

وماتت مهنة أبي. كان خيَّاطًا. وقد رفض أن يعلمني مهنته قائلًا: «هجم الجاهز، والمهنة إلى انقراض». وانقرضت، وتحول من بقي من الخياطين إلى عمال «تقصير وتطويل».

العقل البشري يمكنه أن يضم معلومات ومهارات بلا حصر. لكن العمر قصير، ومن الخير للمرء أن يتعلم مهنة المستقبل لا مهنة الماضي.

والمعلومات في هذه الدنيا كثيرة، فبِمَ نحشو عقول أطفالنا؟ وكلمة «أطفالنا» في الجملة السابقة مهمة جدًّا. فالمعلومة التي تدخل عقل الطفل تصبح طريقًا. المعلومة والمهارة في عقل الطفل تصنع له عقلًا، فأما عقل البالغ فهو يراكم فوق ذلك الأساس. وأما عقل الشيخ (هذا إن بلغت بك الجرأة أن تسألني هذا السؤال لأنني قطعت الستين) فهو كالغربال: اسكب فيه ما شئت من ماء أو من عصير برتقال... ولن يبقى فيه شيء.

فلنعقِد، أنا وأنت أيها القارئ، اجتماعًا صغيرًا على هذه الأسطر التي تقرأها لنحدد أفضل المعلومات والمهارات التي نريد تزويد أطفالنا وشبابنا بها. هل نبدأ بحقنهم في سنٍّ باكرة بمهارات استخدام الحاسوب؟ هذا شيء يكتسبونه دون أن يشاوروا أحدًا. هل نحقن عقولهم بتاريخ السومريين والمغول والأمويين والعباسيين والمماليك؟ هذه بضاعة بائرة في سوق العمل التي سيدخلونها بعد بضع سنين. هل نعلمهم فلسفة أرسطو والفارابي وكانط كما يفعلون في أقسام الفلسفة في الجامعات؟ هذا شيء رديءٌ حقًّا، للطفل وللبالغ. ففلسفة كل فيلسوف نتاج لعصره، والتاريخ خير من الفلسفة. فماذا نعلمهم إذن؟

ألا يكفي أن نتركهم يلعبون؟ ألا يكفي أن نعلِّمهم -وهم يلعبون- القراءة والكتابة وبعض الحساب؟ يكفي وزيادة.

الطفل يتعلم بيديه لا بعقله. يتعلم وهو يصنع الأشياء، أو يفككها. ومهن المستقبل في علم الغيب. ضع في بيتك كتبًا وقصصًا مصورة.

الطفل الذي خرج من بيت فيه كتب يختلف عن الطفل الذي خرج من بيتٍ-قبرٍ خال من الكتب. وأعط ولدك نقودًا لكي يشتري وهو عائد من المدرسة كيلو عدسًا مجروشًا وكيلو بصلًا وربع كيلو كمونًا وربطة خبز، وحلوى له. وحاسبه عندما يعود. هذا أحسن من أحسن درس في المبادرة وفي الاقتصاد وفي التعامل مع الناس... وفي الحساب.

اطلبي من ابنتك الصغيرة أن تستفسر من اليوتيوب عن طريقة صنع حساء العدس، وطريقة سلق الأرز، ولتقف معك في المطبخ، لا لكي تساعد في غسل الأطباق بل لكي تشارك، ففي مرة قادمة ستطبخ بنفسها. يداها ستعلّمانها الطبخ.

ما يمكننا ترسيخه في عقول أطفالنا هو الأسس فقط: الجرأة، والمبادرة، والتعامل مع الناس، والاعتماد على الذات، والخلق الحسن.

فائدة المدارس أنها تحبس الأطفال نصف نهار حتى نتمكن من مزاولة أعمالنا، ولو تركتهم المدارس يرسمون ويلعبون ويغنون لأصبحت مفيدة، لكنها لا تتركهم، فتبًا للمدارس. وفائدة الجامعات... ها أنذا أتوقف عن الكتابة... فائدة الجامعات... فائدة الجامعات... مم... هل لها فائدة؟ بشكلها الحالي لا فائدة لها. فإن تركت للطلبة مساحة لممارسة السياسة الطلابية فهذا نافع، وقلما تترك؛ ولو تركت للطلبة مساحة لممارسة الغناء والرسم والرقص والقراءة الحرة فهذا نافع، وقلما تترك.

الجامعات مثل ألعاب أولادك القديمة. يغادر الأولاد البيت ويتزوجون. وتبقى حضرتك محتفظًا بألعابهم القديمة في مكان معتم من البيت. هذه أشياء لا قيمة لها... جرِّب أن تعطي حفيدك لعبة قديمة كانت لأمه، وسيقول لك: «يع». الجامعات في بلدان كثيرة «يع».

الترهل الوظيفي

أأنـا المجنون أم هـو؟ وقف يحاججني وأحاججه؛ ولشـدة تعجُّبه من موقفي كان يرمش ويسحب نفسًا وهو يحرِّك رأسه غيرَ مصدق ما تسمعه أذنـاه. هـو رجل صادق، وأنا لسـتُ بالكاذب. ولشـدة تعجبـي من موقفه كنـت أديـر رأس إصبعـي نصـف دائرة داخل صِـوان إذني ثـم، أُطرق، ثم أحاول أن أفنِّد كلامه. لكن لا فائدة.

الموضوع: هو يطالب بمرتبه، بالمال الذي يقوت أسرته، لكنني أقول له: أنت مطرود.

فـإن كان القـارئ قد حقد عليَّ لهذا الموقف، فأنا ألتمس منحي فرصةً للدفاع عن نفسي.

بالمناسبة لقد تطور الأمر إلى مراسلات غاضبة. ووصل بي الأمر إلى أن كتبت له: انظر يا هذا! أنت تستدرجني لكي أكتب أشياء تستطيع بها أن تقف في المحكمة. أنت ماضٍ في إنشاء ملفٍّ لترفع دعوى قضائية، فخذ إجابات صريحة على كل أسئلتك. وكنت صريحًا.

سأقص عليك ما حدث لاحقًا، لكن بعد أن أدافع عن نفسي.

نشـأتُ فـي قوم مـن الصنايعية، ولنا بالبلد مشـاغل خياطـة، وخراطة، ومطابـع. وعملـتُ في زمنـي خطَّاطًـا ومعلِّمًا. ثم انحرفـت بالتدريج عن

سيرة أهلي فعملت صحفيًا، ولعلك تعلم أن الصحافة والإعلام كله «بيع حكي». غير أن النشأة الأولى تترك في النفس أثرًا عميقًا. لا أفهم الوظيفة.

كان خال أمي أول من أدخل الكهرباء إلى مدينة نابلس. كان يولّد الكهرباء ويبيعها للناس. وكان يربح. ثم وضعت البلدية يدها وسحبت الامتياز.

أخذ رئيس البلدية يوظف جماعته. وتغير رئيس البلدية وجاء آخر له جماعة أخرى فأخذ يوظّفهم، وما مضت سنوات قلائل حتى كان مبنى البلدية خلية نحل... موظفون بالمئات، وليس هناك عمل حقيقي لمعظمهم. فمن أين يتقاضون مرتباتهم؟ من فواتير الكهرباء أيها السادة. وأصبح سعر الكهرباء في بلدنا أعلى منه في لندن ونيويورك.

أعود إلى صاحبي الموظف في دائرتي: لقد قرر أن يتوقف عن الإنتاج في تلك المؤسسة التي كنت فيها مديرًا صغيرًا... ولقد يعلم القارئ أن المدير الصغير يشبه رقاقة المطاط بين حدائد محرك السيارة، فهو يمتص الضغط من فوق ومن تحت. أرسلت إلى صاحبي الإنذار الأول والثاني والثالث. لكنه كان يقهقه مع كل إنذار، والرجل صادق وسليم النية، ولا يستند إلى «واسطة». هو فقط يقهقه. والتقينا مرارًا. ولم أفهمه، ولم يفهمني.

وكي أحاول فهمه أريد الدخول إلى المسألة من بابين: الباب الأول: «اليونيفيرسال بيسك إنكوم»، أي «الدخل الثابت العمومي»، والباب الثاني: الدولة العباسية. وأبدأ بالباب الثاني.

عندما فتح العرب البلاد ونشروا الإسلام، دخلوا في نمط اقتصادي لم تعهده جزيرة العرب. أصبح الشغل في الأرض من نصيب الفلاحين في سوريا وفارس والعراق، والشغل داخل بيوت الأثرياء من نصيب الإماء، وأما شغل الإدارة والقتال فكان من نصيب العرب. أصبح العرب موظفين لهم «أعطيات» محددة في نظام قانوني مبني على الأنساب وعلى المراتب، لكنهم كانوا يشتغلون شغلهم.

وأرسى الفاتحون العرب نظامًا ضريبيًا معقولًا بين خراج وجزية وعشور. وعاش المجتمع الإسلامي عصرَ نهضة قوية أطاحت بإمبراطوريتين. كان توزيع المهام في المجتمع ملائمًا، فقد وضع الإسلام قوانين متقدمة عما سبقه: فالأَمَةُ التي تلد ولدًا لا تباع ولا يباع ولدها، وترتقي إلى مرتبة «أم ولد». والعبد يمكن له أن يحرر نفسه بشروط أسهل من شروط الدول البائدة. والضرائب مدروسة، وللفلاحين نظام تضبطه الدولة فمنهم رؤساء القرى «الدهاقين» ومنهم العامل الأجير. ولأن الدولة الإسلامية كانت تتوسط بين أوروبا والشرق الأقصى وروسيا فقد أصبحت محورًا تجاريًا مهمًا.

ودخل في الوظائف الفرس والترك، وبدأ بالتدريج الترهل الوظيفي. وزاد الضغط على الفلاح والعامل، فقامت ثورات عمالية وفلاحية في جنوب العراق وفي جبال فارس.

في المجتمعات القديمة توجد فكرة محفورة في عقول الموظفين وعقول أبنائهم وأحفادهم إلى عاشر حفيد، وهي أن لأبناء هذه الطبقة الحق في «معاش يرتب ترتيبًا، فهو مرتَّب». ونشأت المؤسسات الحديثة

في القرن العشرين، وورث الموظفون فكرة المعاش المرتب. هي فكرة تاريخية نشأت في العقول. كان كهنة المعبد ثم الكنيسة، وفقهاء الدين في شتى الديانات يتقاضون المال من الدولة لقاء أشغال كتابية أو مهام قيادية، ثم انتفت الحاجة إلى أشغالهم لكنهم ظلوا يقبضون المرتبات.

والباب الآخر الذي سألج منه لفهم صاحبي هو باب «اليونيفيرسال بيسك إنكوم»، أي «الدخل الثابت العمومي». وهذا نظام حديث بدأوا يجربونه في شمال أوروبا: ملخصه أن الآلات والربوتات والحواسيب أخذت الشغل، فأصبحت البطالة كبيرة ودائمة. فليقعد بضعة ملايين في بيوتهم وليتقاضوا مرتبات الحد الأدنى. الغرب سائر في هذا الطريق بتسارع، والبادئة بمشروع حقيقي كانت فنلندة.

صاحبي محقٌّ في واحدة: من حق كل إنسان أن يعيش، حتى لو أُقعد أو جُنَّ أو كان كسولًا يرفض كل عمل. لا يجوز للدولة أن تسمح بأن يجوع فيها إنسان بصرف النظر عن كل ظرف وسبب.

وتكملة القصة مع صاحبي (وكان يحمل جوازًا أوروبيًا) أنه سجل اسمه في صندوق البطالة في البلد الأوروبي، وأراحني. لم يذهب إلى محكمة، ولا أنا ذهبت.

الشهرة

لا شـيء في الدنيا ألذ من الشـهرة. لا شهوتا البطن وأسفل البطن، ولا المؤذيات من تدخين وشراب، ولا شهوة العلم التي عرفها قليل من البشر وقالوا فيها كلامًا كثيرًا.

رأيـت علـى تلفزيـون أجنبـي فـي برنامـج «لقطـات ضاحكـة» شـابة جميلـة، وجههـا خلاب سـاحر. تقول للقمـر: انزل واقعـد بجانبي حتى يعـرف النـاس حقيقتـك يـا قبيح. رأيتها تبتسـم عـن ثغر هـو قصيدة، هو لحن، هو فتنة. وفجأة... هووب... سـقطت من مقدم فمها ضبَّة أسنان. وثبَّتـوا الصورة على الشاشـة. ذابت ابتسـامتها، وأطلت مـن عينيها نظرة ذعـر، ورفعـت كفيها بهلـع لتغطي وجهها، ولكن تجميـد الصورة جعلنا نرى الوجه واضحًا. امتص فمها الشـفتين الفاتنتين، وتحولت الشابة في ثانيـة إلـى امـرأة متهدمـة. ووضعـوا فـوق الصـورة المجمَّـدة الضحكـة الإلكترونيـة المعتمـدة فـي البرنامج: واك واك واك. وانتهـت اللقطة في ثوان.

بالطبع فالسيدة وقَّعت على ورقة تسمح ببث اللقطة (صاحب البرنامج «جيريمي بيدل» لم يكن يبث شيئًا إلا بموافقة خطية). مقابل ماذا؟ مقابل أن تظهـر علـى التلفزيـون بضـع ثـوان. لقد أنفقت عشـر سـنوات تحاول إصـلاح أسـنانها الأماميـة عبثًا، ثم قلعتهـا وركبت «ضبَّـةً». ومن أجل أن تكون مشهورة لثوان ضحَّت بكل ذلك.

والخليفة المستعين بالله... كان ينسخ الكتب في بغداد سعيدًا آمنًا. وشغر الكرسي، فجيء به ليكون خليفة في غفلة من الزمن. وبعد أقل من أربع سنين مليئة بالحروب والصراعات عزلوه وحبسوه تسعة أشهر، ثم أرسل الخليفة الجديد المعتز بالله -وهو ابن أخيه- رجلًا ليقتله. دخل الرجل على المستعين المعزول السجين ووضع رأسه في حجره، وذبحه كالخروف. احتزَّ القاتل الذابح رأس المستعين وذهب به إلى المعتز وكان يلعب بالشطرنج. فلم يلتفت إلى الرأس، وقال: ضعوه حتى أفرغ من الدَّست «الدقّ». وعندما أنهى «دقَّ» الشطرنج نظر باحتقار إلى رأس المستعين وأمر به فدفن.

والمعتز الشطرنجي هذا استمتع بالشهرة خليفة أربع سنوات، ثم حبسوه ولطموه على وجهه لطمًا ذريعًا حتى أقر بعزل نفسه، فأخذوه إلى الحمام فحمَّموه، وجاءُوا إليه بأطيب الطعام. فأكل هنيئًا، لكن ليس مريئًا، فهم قد منعوا عنه الماء؛ وقتلوه عطشًا. فانظر إلى هذه الميتة.

فيا أيها المستعين بالله: قد فرحت حين ولوك الخلافة. ويا أيها المعتز بالله... قد فرحت بالخلافة! ثم كانت أربع سنين... وأربع سنين... والعاقبة بشعة.

لو قال لك أحدهم: إنه يكره الشهرة، فهو إما لص متوارٍ من العدالة، أو رجل مخابرات، أو كذاب. ولو قالت لك مذيعة تلفزيون: إنها تكره الشهرة فالرأي أن تلطمها لطمة تجعلها هتماء (أي ساقطة الأسنان).

المسيحيون في أرض المسيح

جاءت حفيدتي من مدرستها، ووقفت بإزائي تعطّلني عن كتابة مقالي. وعلى زيها المدرسي اسم المدرسة «الإنجيلية الأسقفية العربية». أقول لها: «هيا اذهبي لتناول الغداء». لكنها مصرَّة على أن تعلِّمني شيئًا. تريد أن أقرأ لها سورة ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ التي حفظَتها في المدرسة مؤخرًا. قرأتها لها فرضيت عن سلامة حفظي، وذهبت لغدائها، وقعدت أتأمل، وانحرفت عن فكرة المقال الأساسية كل الانحراف. نعم، في تلك المدرسة المسيحية لا يعتبرون أنفسهم «كافرين»، ولا أنا أعتبرهم كذلك. ولكن الأمر ليس بهذه البساطة، وهو بحاجة إلى مقال.

تأملت في اسم المدرسة: «الإنجيلية». أنا مولود في المستشفى «الإنجيلي» بمدينتي نابلس بفلسطين. والقابلة التي سحبتني من رأسي هي سعدى نقولا، واسمها على شهادة ميلادي.

ومضيت أتأمل: قبل المدرسة أرسلني أهلي إلى روضة تابعة لجمعية مار يوسف التبشيرية. وكان طبيب الأطفال للعائلة طقطق المسيحي، وطبيب الأسنان نويصر المسيحي. هذا ونحن عائلة مسلمة فيها صلاة وصوم، ونقرأ: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾. ثم دخلت المدرسة. وكان في الصف الأول تلميذ اسمه جورج. وكان يخرج من الصف في درس الدين، وقيل لنا: إنه مسيحي. لكن الانتماء في ذلك الزمن الغابر كان انتماءً عربيًّا. كلنا عرب، والسلام.

كان جـورج يتكلم بلهجة قريته القريبة من المدينة، وأما التلميذ الآخر «حنَّـا»، فـي المدرسـة الإعداديـة، فـكان يتكلـم بلهجـة مدينتنـا العتيقـة. المسـيحيون في نابلس كانوا قلة، وكان في نابلس ولا يزال طائفة سـامرية تقـدِّس أسـفار موسـى الخمسـة. وكان مـن السـامريين معلِّـم الأحياء في مدرستي الثانوية الأستاذ فؤاد، وكان كاهنهم الأكبر «عبد المعين» يشتري الخضـر من السـوق ونـراه بين النـاس بجبته وعمامته الضخمـة الحمراء. فأما اللحم فالسامريون يذبحون بطريقتهم. وقد يدخل السبت على عائلة سـامرية والنور في البيت مُطفأً، فلا يسـمح لهم دينهم بلمس زر الكهرباء (أو بـأداء أي عمـل)، فينـادون ابـن الجيـران المسـلم أو المسـيحي لكي يضغط على زر الكهرباء.

كنا كلنا عربًا. هذا انتماؤنا. وعندي على الانتماء قصة.

كان انتماؤنـا فـي فلسـطين أيـام طفولتي وشـبابي الباكـر عربيًا. وجاء الاحتلال الإسرائيلي فصار انتماؤنا أضيق... صار فلسطينيًا في الأساس. ودخلـتُ جامعـة بيرزيـت التي أنشـأتها أسـرةٌ مسـيحيةٌ. وكان نحو ثلث الطلبـة من المسـيحيين. وكانـت بحق، وظلـت، جامعةً وطنيةً فلسـطينيةً عربيةً.

وجاء ما يسـمى بالصحوة الإسلامية (كأنَّ صلاة والدي وجدِّي كانت صلاة نائمين!)، ثم جاء الإسلام السياسي. وتغيرت أولويات الانتماء.

عامل قادة الإسـلام السياسي المسيحيين في العالم العربي بالحسنى، وظلـوا يقولون: «إخواننا المسـيحيون». لكنهم بدون شـك أبعدوهم عن دائرة الانتماء الضيقة.

وذهب جيل وجاء جيل. والذي يعيش إلى أن يرى جيلًا يمضي وجيلًا يأتي يحس بالفارق.

كثيرون من أبناء الجيل الجديد يرون الانتماء الإسلامي هو الأساس، وبعضهم يراه الانتماء الوحيد. وساعدتهم السياسات الغربية التي صنفتنا مسلمين أولًا وعربًا ثانيًا، ورضينا بالتصنيف. وجاء التشدد في الدين لكي يدق مسمارًا من تلك المسامير التي تشق الخشبة. وجاءت حكوماتنا «العلمانية» فأرادت المزايدة على الإسلام- السياسي فجعلت كتب الدين المدرسية أكثر تشددًا.

صادف يومًا أنني ذكرت رجلًا اسمه «ألفرد» وقلت في السياق: رحمه الله، ففاجأتني فتاة بالقول: «انتبه يا أستاذ، فقد يكون هذا الرجل مسيحيًّا، ولا تجوز عليه الرحمة!» هكذا يدرِّسونهم في المدارس.

مسألة الانتماء معقَّدةٌ. وفي أوروبا وأمريكا انتماءٌ مسيحيٌّ قوي. ولكن الغلبة هناك للانتماء القومي. والانتماء القومي في ألمانيا وبريطانيا ليس حميدًا دائمًا، فهو بوابة للعنصرية. ولن يصل بنا التفاؤل إلى أن نطلب من البشر أن ينتموا إنسانيًّا فقط. هذا الأمر قد يتحقق لدى قلة من الناس ممن طافوا وشافوا. فأما معظم البشر فهم حبيسون في انتماءات أضيق.

المسيحيون في فلسطين، ومنذ المسيح، أبناء الأرض: منهم الفلاح والطبيب، ومنهم الفقير والغني. ولم تؤثر في انتمائهم لأرضهم الجمعيات التبشيرية، لكنهم بالتأكيد شعروا مؤخرًا بأنهم أُخرجوا من دائرة الانتماء

الضيقة. ومع موجات الهجرة هاجر منهم كثيرون. كانوا في فلسطين نحو ١٥٪ من السكان، وصاروا أقل من ٢٪.

البلـد فيـه أطبـاء مسـلمون، وفيـه ريـاض أطفـال إسـلامية، وهجـرة المسـيحيين لا تعنـي أن البلـد سـتفقد خبراتهـا. لكن تجربتي الشـخصية علمتنـي أن المجتمـع «المتنـوع» أغنـى ثقافيًـا وفكريًا، وأغنى مـن ناحية أخرى أهم من الثقافة ومن الفكر... هو أغنى بالتسامح.

النزوح المسيحي عن أرض العرب تغريبة شبيهة بما حدث بعد انهيار سدّ مأرب. وهـي معمعة ضخمة، أساسـها اقتصادي أولًا وسياسـي ثانيًا وانتمائي ثالثًا. ولم أتناول هنا سوى البعد الثالث.

المسألة فرص

عندما يدرس الأولاد مع البنات يفهمون أكثر، ويشعرون أكثر، ويتأدبون أكثر. الطرفان... يفهمون ويفهمن ويتأدبون ويتأدبن. ضع نون النسوة من عندك حيثما شئت. كان العقاد مغرمًا بمثال يدل، في رأيه، على قصور المرأة عن بلوغ العبقرية؛ إذ يقول ما ملخصه: «انظر في أخص تخصصات المرأة: الطبخ؛ تجد أهم وأشهر طباخي العالم من الرجال». ولو عاش العقاد لرأى النساء أصبحن -في البلاد التي تعطيهن الفرصة- من أهم الطباخات في الفنادق المهمة، وعلى التلفزيون.

المسألة ليست مسألة ذكاء. وإثبات هذا في نتائج الثانوية العامة، فارجع إليها. والمسألة ليست مسألة قوة شخصية؛ وأنت قد رأيت «تاتشر» تعصف بالحكم في بريطانيا عقدًا من الزمن، وتصك مبدأ سياسيًّا عاش معنا بعدها وسمِّيَ باسمها، وها أنت ترى أنجيلا ميركل في ألمانيا تقود السفينة السياسية بهدوء وقوة. المسألة مسألة فرص.

سأضرب لك مثالًا بعيدًا. انظر إلى مصر الإقطاعية في زمن الخديوي ثم الملك. هل نبغ فيها أحد من أبناء الفقراء؟ الجواب: كلا. فالشخص الذي تربى في كنف الفقر، ولم يحصل على تعليم، لا يصل في المجتمع إلى أكثر من فلاح صاحب قراريط، أو عجلاتي مفكوك أزرار القميص. فهل أقول: إن الأغنياء أذكي من الفقراء؟ بالطبع لا. المسألة مسألة فرص.

ولكننا نغار على المرأة. نريد أن نحجب فتنتها. ووالله لو ألبسناها صندوق خشب كصناديق الشاي الكبيرة، ولو ألبسناها على رأسها خوذة رجل فضاء، وجعلنا في قدميها -بدل الحذاءين- صندوقين من صناديق الأحذية الكرتونية لرأينا فيها فتنة، ولراقبنا تثني جسمها بعين الخيال. الفتنة أمر واقع. والرجل يفتن المرأة مثلما تفتنه، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

إحدى النساء المتزمتات دخلت بيت عزاء، فأسرعت إلى المسجل، وأسكتته، واستخرجت شريط القرآن من بطنه، وهي تقول: صوت هذا الرجل يحرِّك فِيَّ شيئًا. نعم، صوتنا نحن الرجال عورة أيضًا.

الفتنة شيء حلو. حلو أن ترشقَ أيها الرجل امرأة بنظرة، لكنني بصراحة أكره النظرة الفاجرة، وأنت تعرف قصدي تمامًا. وحلو أن تقول: سبحان الله. وحلو الغزل، شرط أن يكون مسموحًا للمرأة أن تمارسه أيضًا. وحلو أن يتأدب المرء وأن يعرف حدوده، وأن يضع له المجتمع الضوابط المناسبة. فالمجتمع لن يكتم أنفاس الفتنة مهما حاول. والتعليم المختلط يعلم أكثر ويؤدب أكثر، ويجعل الإنسان دائم التوتر، دائم التطلع. لكنه توتر خفيف منتج، وتطلع مؤدب مبهج.

تقديس محمود درويش

لستُ كثير الدوران في صالونات رام الله الأدبية، إلا أنني لمستُ تقديسًا لمحمود درويش لم يعجبني. وما لفتني إلى هذا موقفٌ مع سيدة حدثتني أن ديوان محمود درويش الأخير قد صدر؛ وصارت تمصمص شفتيها وتقلب عينيها في محجريهما مع نصف إغماضة دلالة على الإعجاب، وكادت أن تسيح على بعضها، ثم سألتني إن كنت اشتريت الديوان. فقلت: لا، ولا أنوي شراءه. عندئذ انتفضت السيدة وانتقلت من حال إلى حال، وصارت تكيل لي الاتهامات وتلاحيني ملاحاة شديدة.

محمود درويش ربما كان، وربما لم يكن، أفضل شاعر في فلسطين، أو في العالم العربي. ومن يدري فقد يحصل على نوبل! (ولا أخفيك أن هذا سيملأني فخرًا لأسباب وطنية وسياسية، وكذلك لأنني أحب أن أرى الشعر العربي وقد نال شهرة عالمية يستحقها أكثر من شعر أية أمة أخرى، ولا أخفيك أنني أراقب ذلك مراقبة المشوق المستهام) لكن تقديس درويش لا يعجبني.

أرى أن الذين يقدسونه مجتمع مخملي لا يقرأ شعرًا ولا يفتح سفرًا، ناس يعتبرونه من «شلّتنا»؛ ولذلك لا بد من تقديسه.

بعض شعرائنا يختبئون تحت عباءة درويش ويُجلّونه لأنه كبير العائلة الشعرية، وهم منذ عام ١٩٢٧ يرون الشعر إمارة، ولا بد لها من أمير. بعضهم لا يجرؤ على نقده؛ لئلا يُتّهم بالغيرة منه، وبعضهم لا يملك أن

ينقده أصلا؛ لأنه ممعن في محاكاته منذ الصبا الباكر. وثمة شعراء يحبسون ألسنتهم عنه حتى لا يقال: إنهم يتخذون النيل منه وسيلة إلى الشهرة.

عندما أقرأ شعر درويش أراني أقف بين الحين والحين عند سطر وأقول في نفسي: قاتله الله ما أشعره، قد لخص الأمر في ثلاث كلمات، أما قدر أحد أن يأتي بها قبله؟ لكأن هذه الكلمات، على نسقها ذاك، ظلت ترحل في أحشاء الغيب سنة بعد سنة حتى أُوحي بها لمحمود درويش.

ربما وقع له الخاطر الدقيق فسواه فعدله. ثم قد يصدع رأسك بـ «ريتا» وبالنبيذ حتى تحس في رأسك خمارًا. وهو، بعد، مجوّد محكك تخرج من بين أنامله الحوليات، فبذلك جمع الصنعة إلى الإلهام.

لقد أخمل المتنبي في زمنه ألف شاعر. رمى بهم في النسيان. وهاجمه معاصروه، ودخلوا عليه من كل باب.

أرجو أن يُتاح لمحمود درويش من النقاد من يأخذه أخذًا شديدًا. وإذا حدث ذلك سأكون أول من يدفع عن محمود درويش الأصوات الظالمة. لكنني أعدُّ الهجوم عليه خيرًا من تقديسه.

تيك كير

أم العبد عجوز فانية، لكن ظلت ساقاها جميلتين. كانت، عندما تصحو في الصباح، ترفع ساقيها عاليًا وهي في سريرها، وتقول لهما: يصبحكم بالخير.

وجارتها أم مسعود كانت مغرمة بفصفصة البزر. ذات مرة سمعت أم مسعود حبَّة بزر تكلمها. قالت البزرة: «صرعة اللي تصرعك، إيش اللي فيي يشبعك؟» فردت عليها أم مسعود: «الكاوي يكويكي، بتسلى فيكي».

ونذهب بعيدًا عن العجائز، إلى عبد الملك بن مروان، فقد كتب إلى زعيم الخوارج: أنت معي كالزجاجة وأنا الحجر: إذا وقع عليها كسرها، وإذا وقعت عليه انكسرت.

واسمع هذا البيت في هجاء بني أسد:

لو كان يَخْفَى على الرحمن خافيةٌ   من خَلْقِهِ خَفِيَتْ عنه بنو أسدِ

أدبُ العرب عِمادُه الطُّرفة، لكن هذا لم يمنعه من إنجاب نجيب محفوظ.

والحرف العربي عِمادُه الصوامت، وهذا لم يمنعه من إنجاب أحمد زويل.

كانوا في مصر يدرسون الكيمياء بالحرف العربي؛ فحمض الكبريتيك رمزه: (يد ٢ كب أ ٤)، والنشادر (ن يد ٣)، والحمض الأميني «لايسين» رمزه: قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل.

بهـذه الطريقة درس أحمد زويل الكيمياء في مصر، ونال الماجستير، وقـام بتدريـس الكيمياء في الإسـكندرية. وفي أمريكا تحـول إلى الرموز الإنجليزيـة، وصـار وتصـور. وهو يقول في سـيرته (المنشـورة في موقع جائزة نوبل الرسمي): إنه ذهب إلى أمريكا وهو لا يتقن الإنجليزية جيدًا، ويقول: إنه ظل يعشق أم كلثوم.

أحيانًـا نتهـم الحـرف العربي بأنه سـبب تخلفنـا، وأحيانًـا نتهم الأدب العربي، وبعد هزيمة ٦٧ اتهمنا أم كلثوم.

لعـل مـن الأفضـل أن نتهـم التحجـر الفكري. خـذوا النـادرة الأخيرة (تحذير: مؤلمة):

سـألتُ طلابي وطالباتي فـي تخصص الإعلام بالجامعـة (وأعمارهم في العشرين) أن ينزلوا إلى الشارع بآلات تسجيل ويسألوا الناس: ماذا لو تعرضـت بنـتٌ للاغتصـاب من صديقهـا؟ وجـاءت الإجابـات صارخة، جـاءت من نسـاء ورجـال: «الحـقُّ علـى البنت، ويجـب أن تُقتـل!» هذه الإجابات جاءت من شارع في رام الله، وليس من كفر اللطع.

المصيبة ليست هنا. انتظروا قليلًا، لماذا بصلتكم محروقة!

سـألت طلابي عن هذه الإجابات، فـكان معظمهم، ومعظمهن، مؤيدًا لهـا. وأنـا واقف فـي الصف وأكـرر: «لا تنسـوا، تعرضـت للاغتصاب». والجواب واحد: «الحقُّ عليها يا أستاذذذ، كان لازم تدير بالها».

تيك كير حبايبي، ديروا بالكم.

حبّة الأرز المبتسمة

هذا مقال عن حبَّة الأرز، ولكنه يبدأ بشريحة لحم. يسألك النادل في المطعم: كيف تحب شريحة «الستيك»؟ فتقول له: حمراء سُدس مطهوة «رير»، فهناك ست درجات لطهو شرائح اللحم. قال أحدهم: السبب في أن بعضهم يحب اللحم شبه نيئ أن في أعماق الإنسان بقية من التوحش، فهو يحب اللحم النيئ مثلما يحبه الأسد... والكلب. ولست أومن بهذه النظرية. أنا أقول للنادل: طهو كامل، حتى لو احترقت.

وفي المطعم يقدمون لك التبولة، والبرغل فيها صلب تجرشه بأسنانك. يقولون: هكذا يجب أن يكون، هكذا كانت جدتنا تصنع التبولة. يا أخي! جدتك كان يفاجئها الزوَّار فلا تنقع البرغل إلا دقيقتين. انقع برغلك جيدًا، عافاك الله.

وذهبتُ إلى إيطاليا، وسيق بي بالسيارة نصف ساعة كي نبلغ مطعمًا مشهورًا. في النتيجة الأرز آل دنتي. أي أنه أرز تحس به يتكسر تحت أسنانك. اللعنة! قمتُ عن المائدة وأنا أتفتف!

أتينا لحبَّة الأرز في النهاية. لا أحب أن تتكسر تحت أسناني، ولا حتى أن تكون لدنة لينة مثل المطاط. أحبها باسمة. منضَجَة إلى درجة أن تنفلق وتبدو كالثغر الباسم. وهذا حين أحدثك عن الابتسامة.

كان ابن الرومي شاعرًا متجهمًا، يكره حتى نفسه. لكنه أوصى الشعراء بألا يمدحوا أميرًا عابسًا:

لا تَقْصِدَنَّ لِحَاجَةٍ إلّا امْرءًا فَرِحًا بِنفسِهْ
أَنّى يُسَرُّ بِمَدْحِهِ من لا يُسَرُّ بِضَوْءِ شمسِهْ؟

الذي يظل مكشرًا، ولا يفرح بضوء الشمس ولا بالحياة، لا يعطي. الذئب لا يعطي قطعة من فريسته لذئب آخر... فقط لجرائه الصغار. والإنسان يتميز عن الحيوان بالأريحية. وليس كل إنسان ذا أريحية، الأمر لا يتعلق بالطيبة ولا بالخلق الحسن. هو شيء في الطفولة، هو شيء في الجينات، في البيئة.

البدوي مضياف لأنه يعرف قسوة الصحراء على المسافر، وهو يتوقع المعاملة نفسها عندما يكون مسافرًا. وابن القرية مضياف؛ لأنه سيحتاج إلى قمح جاره عندما يقتل الصقيعُ خَضراواته. وابن المدينة الكبيرة قد يسير على قاعدة «معك قرش فأنت تساوي قرشًا» فهو مقتصد. لكن التاجر قد يساعد التاجر، لوجود مصلحة متبادلة.

الابتسامة عنوان الأريحية، وهي إشارة الانعطاف نحو العطاء. ولدي قصتان أنا فيهما الشرير. كنت في إحداهما شريرًا، وفي الأخرى شريرًا جدًّا.

كان يعمل معنا في المؤسسة موظف ضعيف الأداء، وكنا نداري عليه ونصلح أخطاءه، وذات يوم تبرمتُ منه قائلًا لزميل آخر: يا أخي، لا أعرف والله كيف قد وظَّفوا مثل هذا الشخص! فابتسم زميلي وقال لي: المؤسسة كبيرة، وفيها متسعٌ له. فكأنه ألقمني حجرًا. نعم، لا بد من وجود شخص ضعيف القدرة قليل المهارة. المؤسسة كبيرة وعليها أن

تتحملـه. وعلـيَّ أنا أيضًـا أن أتحمله. وهـاك القصة الأخـرى عندما كنت شريرًا جدًّا.

كنـت أعمـل في مؤسسـة صحفيـة، وعقدنـا مجلس توظيـف لاختيار شخص ذي كفاءة صحفية عالية. وبعد أن قابلنا المتقدِّمين للوظيفة واحدًا بعد الآخر، بدأنا في التشـاور. وبـدأت عملية التحايل والمداورة. لا يريد أي منا أن يقول: فلان أفضل المرشحين. كل واحد منا يذكر فقط إيجابية عند فلان وسلبية عند فلان. عملية مألوفة في مجالس التوظيف للحصول علـى توافق تدريجـي. وبدأت الأقـوال تتركز على «المرشـح الإيطالي». (هـو ليـس إيطاليًـا، بل إنجليـزي، هو فقـط كان يقضي عطلة فـي إيطاليا، ولشـدة اقتناعه بمهاراته عـرض أن يأتي خصيصًا للمثول أمام المجلس). كانت مهاراته مميزة، وسجله طيبًا. وتبرعت أنا بسؤال شرير: هل لاحظتم شيئًا؟ هل انتبهتم إلى أنه خلال المقابلة التي دامت أربعين دقيقة لـم يبتسم مـرة واحـدة؟ وضحـك الجميـع، وهـزوا رؤوسـهم. أتممـت مداخلتـي الشريرة: شخصٍ لا يبتسم لن يكون معطاء.

لقد تسببت في خسارة صاحبنا لتذكرة طائرة.

قد تجد في المؤسسة موظفًا عابسًا وتجده مع ذلك جادًّا عالي الإنتاجية، لكنه ليس معطاءً. ستراه يدخل مرارًا إلى غرفة المدير ليطلب العلاوات، أو ليوضـح لحضـرة المدير أنه يشـتغل أكثر مـن غيره. العابـس ليس صاحب أريحية. وفي النهاية سيظل شكَّاء متبرمًا. وسيكون عنصر نكد.

الابتسـامة أنـواع. هنـاك ابتسـامة المجنـون، وهـي ابتسـامة جميلـة، ومجنونـة مثلـه. وابتسـامة الأريحـي الـذي ينسـى كل مصائبـه ويقابلـك

بابتسامة، هكذا فقط يكون السيد الحق. وجهه يرحب بك قبل مائدته. وهناك ابتسامة المجاملة، وهي جميلة من صديق، ومقبولة من مضيفة الطائرة. فإن بادلتَ المضيفة الابتسام فأنت أبله. هذه الابتسامة مدفوعة الثمن، المضيفة تعلم ذلك وأنت تعلمه. وهناك ابتسامة المنافق، وقد تضطر إلى الرد عليها كما فعل المتنبي، فعندما صار ود الناس خداعًا، وصاروا يبتسمون ويحملون الخناجر خلف ظهورهم «جزيتُ على ابتسامٍ بابتسامِ». وهناك الابتسامة الصفراء الساخرة بمرارة، وهي مقبولة من امرأة فقدت وظيفتها، لكن هذه الابتسامة مرذولة من شخص لا تحدثه عن أحد إلا ابتسم ساخرًا قبل أن يبدأ بالتعريض. ولا أسوأ من ابتسامة الشماتة.

وأخيرًا هذا تعبير ألماني يصف حالةً معينةً. لقد فوجئت اللغة الإنجليزية بأنها لا تملك تعبيرًا يصف هذه الحالة، فما كان منها إلا أن أخذت التعبير الألماني كما هو... (شادِن فرويدِه). ومعناه حرفيًا: السعادة بالضرر. وتفسير الحالة أنك تسمع أن زميلك في المكتب تلقَّى إنذارًا من المدير. فتحس بسعادة في قلبك. فهل في اللغة العربية تعبير يصف هذه الحالة؟ أهي الشماتة الخفيَّة، أم الشماتة الخفيفة؟ أم هي الشماتة الصامتة؟ ما رأيكم؟

محاولة لتفكيك الانحطاط

استعملتُ في مقال لي ذات يوم كلمة «استخذاء»، فلامني قارئ في تعليقه وتأفف من استخدام مثل هذه الكلمات «الميتة». ولكن وضعنا الحالي، يا أخي، يستدعي هذه الكلمة؛ فإن كانت كما زعمت ميتة فلا بد من إحيائها، وليست بالميتة. ولتمت إذا مات فينا الاستخذاءُ. الاستخذاء هو اتخاذ موقف الجبن والذل.

الحمامة الغبية: كانت الحمامة تبني عشها في أعلى نخلة ذاهبة في السماء، فيأتيها الثعلب ويقول لها ارمي لي فراخك، وإلا صعدت وأكلتكم جميعًا، فتستخذي الحمامة وترمي له فراخها. ولم تفكر الحمارة -هي في الواقع حمامة- في أنه لا يستطيع صعود النخلة، ولو صعد بطائرة عمودية مثلًا ففي مقدورها أن تطير وتنجو. هي غبية وجبانة وذليلة.

هل عرفت أهمية كلمة «الاستخذاء» في حياتنا العربية اليوم؟ ألا نرمي فراخنا للثعلب؟ ألا نرمي له القدس وسوريا وليبيا، وأموالنا؟

شيء عن المستقبل: هناك مفردات أخرى نرجو أن تنطبق معانيها علينا في المستقبل: الأنفة والشموخ والإباء والكبرياء.

هذه قصة عن «تيودور نولدكِه» المستشرق الألماني.

ألَّف نولدكِه في سنة ١٨٦٤ كتابًا سمَّاه: **مساهمات في فهم شعر العرب القدماء**. وفي آخر فقرة من الفصل الأول أورد بيت سعد بن ناشب:

سأغسل عني العارَ بالسيف جالبًا   علـيَّ قضـاءُ الله مـا كان جالبا

وقال نولدكِه معلقًا: «بهذه الكلمات يمضي العربيُّ الحرُّ إلى ساحة القتال ولقاء الموت، هذه الروح الرجولية التي تتجلَّى في قصائد الأعراب القدماء ساكني الصحراء يمكن أيضًا أن تكون قدوة لنا. والآن يبرز أمام الشعب الألماني السؤال عما إذا كان قد عقد العزم على أن يغسل بدمه العار القديم؟» انتهى كلام نولدكِه بترجمة عبد الرحمن بدوي. وبعد ست سنوات من نشر تلك الأسطر انتصرت بروسيا الألمانية على فرنسا ووحدت الولايات الألمانية كلها.

حكوماتنا بحاجة إلى جرعة كبيرة من الكبرياء والإباء.

شيء عن الحاضر: كنت أجلس مع زميل إنجليزي في شرفة فندق ببلدة هلفرسوم الهولندية. قال لي: هذه البلدة تتبعَّق ثراء... ألا ترى سياراتها الفارهة الجديدة؟ قلتُ: بصراحة لم أنتبه إلى الأمر.

لم ألاحظ سياراتها الفارهة الجديدة؛ لأنني رأيت في عواصم العالم العربي سيارات أكثر منها رفاهية. المسؤولون العرب يسرقون من مال الخزينة.

الفساد يمنع العلم ويمنع النهوض. ولا يدري الباحث في أوضاع العرب من أين يمكن أن يبدأ الإصلاح. تشاهد أخبار العالم العربي، فإذا هي إحصاء قتلى وجرحى ونزاعات بين الحكومات يدفع لها الناس ثمنًا باهظًا. وتشاهد أخبار العالم المتقدم فتعرف أن الروبوت يُجري عمليات جراحية، والطبيب يقف مبتسمًا للكاميرا قائلًا للمراسل: «أنا أراقب فقط، الروبوت يجري العملية أفضل مني».

المطلوب إسقاط المجتمع: من أين يبدأ الإصلاح؟ ربما كانت أفضل بداية التخلي عن كلمة «إصلاح».

قال لي الميكانيكي الذي ذهبت إليه بسيارتي البالغة ٢٣ ربيعًا: فات زمن إصلاحها، بعها خردة. وبعتها خردة بسبعة وثلاثين جنيهًا إسترلينيًا، وكان فيها بنزين بنحو عشرين جنيهًا.

للأجانب طرائق عجيبة في توجيه النصح إلينا: بعض الديمقراطية، وبعض المكاشفة، وبعض الشفافية، ومؤسسات مجتمع مدني... إلخ. وجاء الربيع العربي لكي يقول لهم ولنا: نحن بحاجة إلى زلزال. وقد فشل الربيع العربي، ولكنه حمل دروسًا من أهمها أن الطبقة الحاكمة لا تتورع عن ارتكاب كل موبق في سبيل مصالحها الضيقة، وأن المظاهرات الحاشدة لا تُسقط الأنظمة في غياب البديل المنظم ذي البرنامج الواقعي والمهارة السياسية.

إن الربيع الناجح بحاجة في تقديري إلى ثلاثين سنة. وفي هذه السنوات الثلاثين قد نغوص في مستنقع الخمول والاستخذاء فلا يكون ربيع. وقد نتدرَّج -على نحو لا أستطيع تبيُّن ملامحه- بحيث يكون لنا ربيع ناجح.

يسار ويمين وخيبة عريضة: الشغل الحقيقي لأهل الفكر والرأي الآن يتلخص في تشييد برنامج واقعي، وفي اكتساب المهارات السياسية والتنظيمية. فماذا عندنا من ذلك؟

رأيت مؤخرًا مثقفًا من بقايا اليسار فكان من بعض آرائه أن التضحية ببعض مئات من الآلاف قتلًا وببضعة ملايين تهجيرًا ثمن مناسب

للتخلص من الرجعية. والتقيت يساريًا آخر قال: إن ما تفعله الأنظمة بأصحاب «الدقون» ليس كافيًا، وتجب إبادتهم.

أهل اليسار البائد من المسنين المسودة أسنانهم جعلوا الأنظمة المستبدة وكيلًا لهم فرحين بعلمانيتها قابلين جرائمها، والواقع أنهم لا يفكرون بعقولهم بل بجيوبهم، فهذه الأنظمة توظّفهم في وظائف تافهة في وزارات تافهة كوزارة الثقافة، والذي يأكل خبز السلطان يضرب بسيفه.

ورأيت مثقفًا من أهل «الدقون» في عاصمة العالم العربي «إسطنبول». كان في حديثه شتَّامةً ناقمًا. كلما ورد اسم زعيم أو كاتب كان صاحبنا يسبق النقاش فيشتم «المجرم الكلب ابن الكذا». المرأة بالنسبة إلى عقله الصغير متاع... ولا أدري كيف ورد اسم أم كلثوم المغنية في السياق فوصفها بكلمة لا يجري بها قلمي. مثل هذا الشخص لا يصنع برنامجًا واقعيًا؛ لأنه لا يتعامل مع الواقع أصلًا.

أقول بكل أسى: إن على المرء أن يحمل بيده مصباح ديوجين باحثًا عن مثقف عربي عاقل. في زمن الاستبداد يصبح الناس صغارًا.

أفكار شتى

«الحياة»

وقفتُ منذ أشـهر قليلة عند معضلة «طبيعة الحياة»، بما هي صفة تميز الكائـن الحـي عن الجماد، ومدى قدرة المفكـر المادي على الوقوف في وجـه فرضيـة أن ثمة عنصرًا مضافًا إلى المادة يجعلهـا تُوصَفُ بأنها حية. وسـواء أتخذنا من كلمة «الروح» اسمًا لهذه المادة المفترضة أم بحثنا في القاموس عن كلمة أخرى، فالأمر مجرد اختلاف على كلمة.

مـا يسـاعد الروحاني في فرضيته أن «الروح» التـي يُصِرُّ على وجودها في الأجسام الحية ليست مما يمكن التثبت من وجوده في مختبر اعتيادي أنها خاصية، نظام. المختبر الوحيد المتاح لمثل هذا الفحص هو العقل.

ننظر بما نستطيعه من تدبر إلى مسألة اللانهاية في الكبر. ونضعها بإزاء مسألة أقل شهرة وهي اللانهاية في الصغر.

قلتُ في مقال مخطوط سابق – لستُ على يقينٍ من أنه سينشر بجانب هذا المقال –: إن الإقرار بأن الكون لامتناهٍ في اتسـاعه وضخامته يوجب أن يحـدُث تكـرار. فلا بُدَّ من وجود كوكب آخر عليه حياة، ولا بُدَّ من أن يوجد في أحد الكواكب اللامتناهية العدد التي عليها حياة – لاحظ هنا أن اللانهائيـة فـي الكـون توجـب لانهائيـةً فـي أجزائـه – حيـاة تشـبه حياتنا الأرضيـة. ولا بـد أن يكون في العـدد اللانهائي من الكواكـب التي عليها حيـاةٌ كحياتنـا الأرضية عددٌ لا نهائي من الكواكب التي عليها شـخص أو أشـخاص يماثلونني في كل شـيء. اللانهاية شـيء غريب عنـا لأننا جزء

منه. نحن لا ندرك التكرار في الأشياء الكبيرة، فلا مبنى يشبه مبنى ولا إنسان يشبه إنسانًا. ندرك التكرار فقط في أصغر شيء. فذرَّة الحديد تشبه ذرَّة الحديد. وإنما قلتُ: تشبهها، ولم أقل: تماثلها. زلَّة لسان. لكن، لعلها هي الحق. لا ندري إن كانت كل ذرَّة حديد تماثل أختها. ولو دخلنا في الذرَّة بحسب ما افترضنا من تركيبتها فسوف نجد تعقيدات. هذه التعقيدات اضطرت العلماء إلى افتراض جسيمات أخرى في الذرَّة بخلاف البروتونات والإلكترونات والنيوترونات التي درسنا في الكتاب المدرسي عنها. سمعتُ لاحقًا -بعد أن كفَّ ذهني عن استقبال المعلومات الجديدة- أنهم يفترضون وجود جسيم يسمونه البوزترون داخل الذرَّة.

وما يدريني! لعل في الذرَّة تعقيدات أخرى تدرأ عنها التكرارية. لعل كل ذرَّة حديد تختلف عن أختها قليلًا أو كثيرًا. ولست مضطرًّا في هذا السياق الفلسفي للاعتراف بمسلَّمات علم الذرَّة، فهم يغيرون أنموذجها بحسب ما يقتضيه تفسيرُ بعض الظواهر.

حسبي الخروج بمبدأ فيه خطر: السعة لانهائية، والتجزئة لانهائية. وهكذا يصطرع في أشياء هذا الكون مفهومان: التكرارية والتعقيد.

فاللانهائية في التجزئة تتيح لانهائيةً في الأشكال الجديدة، فينعدم التكرار.

وهنا أتفهم بصدق إصرار فلاسفة اليونان، وتلميذهم الإنجليزي دالتون على تثبيت حدٍّ للنزول على سلم التجزئة، وتثبيت الذرَّة. فهم أوصلوا التجزئة إلى مرتبة معينة تساعدهم في فهم تنوع «العناصر». وجاء مندلييف وكشف لنا عن «صدق» هذا التقسيم الذري. قد وفَّى ذلك

بالمطلوب لعصر طويل من العلم والإنجاز التقني. وما ينتجه عِلم «فيزياء الجسيمات» الآن من نماذج تفصل البروتون نفسه إلى كواركات (المفرد كـوارك)، وكـواركات ضدية، وتصنـع مـن هـذه الكـواركات وضدياتها أشـكالًا يسـمونها الهادرونـات، والميزونات والباريونـات، يميل بنا أكثر فأكثر إلى أن التجزئة لامتناهية. وما نفترضه من جسيمات أصغر من الذرَّة وأصغر حتى من بروتونها إنما نفترضه كي نفسر ظواهر تطرأ ولا تسـعفنا النظريـة الذريـة الكلاسـيكية ببسـاطتها (بروتونـات ونيوترونـات حولهـا سحابة إلكترونات) في فهمها.

لا أفهـم جيـدًا ما قالوه مـن أن المادة تتحول إلى طاقـة. ليس لديَّ من العلـم بالفيزياء ما يمكّنني من اسـتيعاب ذلك. على أن الافتراض جميل، وهو يفتح ثغرة في السد المنيع الذي يفصل بين المادي والروحاني.

مرة أخرى أريد أن أقف وقفة جهل: فلستُ أفهم من القنبلة الذرية إلا أنها جنونُ الإلكترونات. ولا أفترض أن من صنعها يفهم الذرة كل الفهم، هـو فقـط وضع نموذجًا مناسبًا للذرة أوصلـه إلى قدر من الفهـم فجَّر به القنبلة.

كان همِّـي من هذا المقال تثبيت مفهـوم «التعقيد» بوصفه أداةً لتجنب التكرار، وتركيز مفهوم لانهائية التجزئة. وكما أن لانهائية الاتسـاع مخيفةٌ لعقولنا فكذلك لانهائية التجزئة.

إنني أشبّه الأمر، على نحو ما، بالصورة الشـديدة الوضوح تراها على شاشـة الحاسـوب، فـإذا ركَّزت علـى قطعة صغيـرة منها، وبـدأت بالزوم الداخـل أكثـر فأكثر، فسـتحصل على مربعات مختلفة الألـوان. وحتى لو

نظرت إلى اللوحة المعلَّقة في المتحف بعدسة قوية فسترى الجزء الصغير الـذي تركـز عليـه نظراتـك يتحـول إلى بقـع صغيرة مـن ألـوان متدرجة، وسـتظفر بالوحدات اللونية والشـكلية التي منها تتركب اللوحة. فماذا لو نظرت إلى رجل ذبابة تحت المجهر؟ مهما كان مجهرك قويًّا سيعجز عن الوصول إلى «النمط». ولماذا أنت مُصِرٌّ على أن هناك نمطًا. هناك أجزاء أصغر من أن يستوعبها تفكيرك، بله مجهرك. هناك منظومات متداخلة من الأنماط.

وهـذا هـو الفـارق بين الحـي والجمـاد. مجهـرك سـيدخل إلى رجل الذبابة، سيدخل إلى الخلية، سيدخل إلى غشاء الخلية و... ستمضي إلى الأحمـاض الأمينيـة، وهنـا يتعـب المجهر ويبـدأ العقل يركِّـب فرضيات «ذرية».

لو اسـتطعنا الاطمئنان إلى أن الفارق الجذري بين الحي والجماد هو كمية التعقيد لدخلنا على الروح بين طعامها وشرابها.

ولكن، ما أوتينا من العلم إلا قليلًا.

لعل الميزة اللافتة حقًّا لـ «الحياة» هي التكاثر. تكاثر الأنماط الأبسط تركيبًا أسـهل على الفهم من تكاثر الأنماط المعقدة من الحياة كالإنسـان، ومـع ذلك فانشـطار الأميبـا وتكاثرها بهـذه الطريقة البالغة البسـاطة يبقى مختلفًا في أذهاننا اختلافًا نوعيًّا عن تكاثر الجمادات عن طريق التكتل أو الانفصال الذري أو الجزيئي؛ لكنه قد يمكننا أن نرى بعين العقل أن الأمر مختلـف كميًّـا لا نوعيًّـا؛ فتكاثـر ملـح الطعام ينشـأ عن اتحـاد مقادير من الصوديـوم بمقاديـر مـن الكلور في ظـروف معينة، وتكاثـر الصوديوم قد

يكون بانفصال الصوديوم عن الكلور. وتكاثر الفيروس يكون بالانشطار. ولعل العلم يكشف لنا عن أشياء أدنى مرتبة من الفيروس تُقَرِّبُ للأذهان فكرةَ أن الفارق بين ما هو حي وما هو جامد فارق كمي. فارق في مقدار التعقُّد في بنية هذا وذاك. الفيروس يأخذ مادةً من الخلية الحية فيكبر حجمه فينشطر. وذرة الصوديوم تلتهم ذرة الكلور... فينشأ جزيءُ الملح. وذرة الأوكسجين تلتهم ذرتي هيدروجين فينشأ جزيءُ الماء.

أريد فقط أن أشكِّك في أن «التكاثر» الذي هو الصفة المذهلة التي تُمَيِّزُ الحيَّ عن الجماد ليست البرهانَ المطلقَ على أن الحي يملك روحًا لا يملكه الجامد.

حتى الآن لا أجد في العلم ما يساعدني في الوصول إلى يقين في هذا الصدد. على أن الفكرة عضوة في «نادي الممكن» بجدارة.

(أقدم اعتذاري عن إثقال المقال بأسماء جسيمات الذرة، وهي منقولة من الويكيبيديا بشكل فج)

العروبة

إعادة تعريف

لم يعد ممكنًا إدخالُ أكراد العراق في العروبة، فهُم جزء من شعب كبير يعيش في العراق وتركيا وإيران وسوريا. ولئن تكلَّم مثقفو الأكراد في كل بلد لغته، حتى إن الرئيس العراقي جلال الطالباني الكردي أفصحُ سياسيٍّ عرفه العراق في السنوات الخمسين المنصرمة، فإن الشعب الكردي حافظ على لغته.

ولم يعد ممكنًا إدخال السودانيين الجنوبيين في العروبة لأنهم ببساطة رفضوها، وقد تكلَّم مثقفوهم وسياسيوهم العربية بشكل لافت.

والبربر في البلدان المغاربية هم محور عملية تفاعل حضارية وقومية مهمة جدًّا. وهي حساسة أيضًا. لحساسيتها أكاد أتوقف عن الكتابة خوفًا من إزعاج العروبيين والبربر معًا، ولكن أهميتها تفرض تناولها.

قوام العروبة في نظري اللسان؛ فمن الصعْوبة بمكان أن ينتسب إلى العرب من لا يتكلم لغتهم.

فأما الانحدار من دم عربي فمسألة فيها ابتعاد عن القيم الإنسانية المقبولة؛ لما تُبطنه من عنصرية. العرب يعيشون في وسط العالم القديم واختلطت دماؤهم إلى غير رجعة بدماء كل الشعوب.

وأما الدِّين فهو عنصر مهم في العروبة، لكنه ليس شرطًا. وقد عرفَت العروبة مسيحيين ويهودًا كثرًا في تاريخها. واستعرب كثيرون من الأرمن والسريان وحَسُنَ استعرابُهم. ولا ننسى أن العرب فيهم العاربة (اليمن)، والمستعربة (الحجاز) منذ قديم الزمان. ولعل الحكمة الإلهية اختارت الرسول ﷺ من العرب المستعربة؛ تأكيدًا على أن العروبة ليست نادي الدم النقي.

ولماذا نشغل أنفسنا بتعريف العروبة؟ مجرد تمرين ذهني. لكن الناظر إلى أوضاع الأقوام المختلفين الذين يعيشون في الوطن العربي يدرك أن مثل هذا التعريف سيساعد في فهم مشكلات عويصة، وفي إزالة توترات قد لا يكون لها مبرِّر.

لا بد من توسيع مفهوم العروبة. وهو واسع أصلًا: واسع منذ أن سكن العرب قبل الإسلام مصر والشام والعراق واختلطوا بغيرهم.

في العصر العباسي اتسع مفهوم العروبة اتساعًا يليق بإمبراطورية. وقام على اللغة والدين والأصل القَبَلي. ومثلما دخل الفرس والخراسانيون في دين الله أفواجًا دخل مثقفوهم في العروبة أفواجًا. لكن، لم يكن كافيًا أن يكتب ابن سينا وابن المقفع بالعربية لكي تتعرب فارس وخراسان. ظل الفلاح الفارسي والخراساني يحافظان على اللغة الأم. وهكذا خرجت إيران وأفغانستان من العروبة في الوقت الملائم تاريخيًّا.

وفي مغرب بلاد الإسلام دخل المثقف البربري في العروبة، ولم يخرج منها. ربما تحب أن تضيف: لم يخرج منها حتى الآن. كان الاختلاط بين عرب وبربر في المغرب والجزائر كبيرًا إلى درجة صعوبة

تقسيم المناطق جغرافيًّا واستحالة تفسيخ العائلات. فهو اختلاط في الأنساب وفي المناطق.

وأريد أن أتوقف عند مثالين من بلاد البريطان ليس استطرادًا، ولكن كي يرى المرء نفسه في مرآة الآخر.

حاول الوطنيون الأيرلنديون قبل مئة سنة العودة إلى اللغة الأيرلندية الأصلية، وطلبوا من جورج برنارد شو الأيرلندي أن يساهم في حملتهم. فقال لهم: «مجانين أنتم؟ من يترك الإنجليزية التي يتكلمها العالم ليعود إلى لغة عتيقة؟» واليوم يتحدث الأيرلندية الأصلية ١٠ بالمئة فقط وكلغة ثانية.

المثال الثاني: سيدة اسكتلندية أعرفها كانت تجلس مع صديقة لها، ورنَّ الهاتف وتكلمت الصديقة مع أمها العجوز. اكتشفت السيدة أنها لم تفهم كلمة واحدة من حديث صديقتها مع أمها. لم تكن تتخيل أن صديقتها مزدوجة الثقافة بهذا القدر، فرغم أنها تتكلم الإنجليزية باللهجة الاسكتلندية تمامًا كأي اسكتلندي، فهي تتحدث في بيتها باللغة الأصلية. ليست حالة انفصام ثقافي، بل وضع عادي. هناك لغات تظل محصورة في مناطق محدودة، وتظل حاملة للثقافة المحلية.

من عاش في بريطانيا سيشعر أن اللغة الإنجليزية هي لغة الجميع وكفى. هي اللغة التي تحمل المعارف والحضارة المعاصرة. والجميع يتَكلمها... وهناك قلة في ويلز واسكتلندا يجمعون إليها لغة قديمة.

من المفيد أن يبحث العرب والأمازيغ في البلدان المغاربية مسألة الازدواجية بحثًا هادئًا. فالتلاحم في تلك المناطق كبير بين عرب وبربر.

ولعل من دواعي الفخر أن يكون المرء قادرًا على التحدث بلغات عدة. لماذا يفخر المغاربيون في العواصم بأنهم يتقنون العربية والفرنسية، ولا يفخر مغاربيو المناطق الجبلية والريفية بإتقان العربية والأمازيغية، وربما الفرنسية أيضًا؟ هذا كله ثراء حضاري وثقافي.

لكن ثمة حاجات مجتمعية: كثير من أهل الريف والجبال ممن لا يتقنون العربية بحاجة إلى إعلام وإلى خدمات تُقَدَّم بلغاتهم ولهجاتهم. تمامًا مثلما تتمتع بعض مناطق بريطانيا بعشرات المحطات الإذاعية والتلفزيونية الناطقة باللغات المحلية. وستجد في ويلز ببريطانيا شواخص الشوارع مكتوبة بلغتين. وهذه حقوق مجتمعية لا يجوز التغافل عنها.

نصيحة برنارد شو بعدم ترك اللغة الكبيرة يمكن بسهولة توجيهها للنوبيين والأمازيغ والأرمن والسريان. فاللغة العربية لغة كبيرة، وهي مدعومة بتراث وجداني عظيم يتمثل في القرآن والحديث وفي الأدب، وهي نهر كبير يحسن بكل جيرانه أن يشربوا من مائه العذب، ولا ضير على من مرت بجانب بيته ترعةٌ صغيرةٌ أن يشرب منها أيضًا.

بدءًا بالكرة الأرضية وانتهاءً بفلسطين

هـذه الكـرة الأرضيـة حقيـرة في جنـب الكـون، ولها عمـر ككل نجم وكوكب. قد تحتَرُّ كثيرًا وتموت الحياة فيها بعد مليون عام ثم تنفجر بعد مليـون آخر. نترك للعلماء أن يتجادلوا فـي الأرقام المليونية، ونخرج إلى أمـر آخر: الإنسـان أحقر من كرته الأرضية. وهو يحمـل خاصية التفكير، ومعناهـا تقدير الظـروف الكائنة، ورصد الظروف السـابقة للتنبؤ بظروف مقبلة. ولديه زائدة دودية في هذا الشيء الذي سمَّيناه التفكير هي الحُلم. فهو بالتفكير يعرف أن الظرف المقبل سيؤدي إلى جفاف فمجاعة، ويحلم بأن يوفر لنفسه وقاية من المجاعة. وقد يؤدي به الحلم إلى السعي لخزن الحبـوب أو المـال تحسبًا للظـرف المقبـل. وهـو برصده لمـا مضى من ظـروف يعـرف أن آخرتـه المـوت، فيحلـم. ويؤدي بـه الحلـم إلى حقن جسمه بهرمونات تطيل الشباب أو تطيل العمر. ثم يقف عاجزًا عن تحقيق الخلـود، فيحلـم به. قد يحلـم بالخلود في الجنة، وقـد يحلم بالخلود في الدنيا بالحلول في جسـم آخر بعد الموت، وقد يرى في انسياح جزيئات جسمه في التراب والهواء وتشكُّلها من جديد في هيئة حية جديدة خلودًا. بالتأكيد فإن الأعشاب الحية النامية حول قبر جدي فيها من جسمه الميت شيء.

الكـرة الأرضيـة آيلة إلى الفنـاء المحقق. وقد رصَدنـا كواكب تبيد مع شموسـها. وفي سـياق البحث عن «حل» لحلم الخلود لم يتيسـر للبشـر حتـى الآن أفضـل مـن الحل الدينـي. وهربًا مـن عبثية هـذا الوجود يرمي

البشر بالمسألة على أكتاف الفلاسفة ورجال الدين وينغمسون في التفاصيل. وبعض هذه التفاصيل كبير حقًّا، فذوبان الجليد في القطبين قد يؤدي فعلًا إلى ارتفاع منسوب المياه في البحار بحيث يخسر العالم الإسكندرية ونيويورك وبيروت، ويخسر سهولًا خصبة كثيرة. وحلول العصر الجليدي المقبل في الدورة المرصودة علميًا قد يجعل صحارى بلادنا تخضر، وخضرة شمال أوروبا تذوي. هذه تفاصيل كبيرة وبعيدة. ثمة تفاصيل أقرب: نهاية النفط، وازدياد التصحر، والضغط السكاني.

ثمة معادلات كثيرة المجاهيل إلى درجة تخرجها عن نطاق التنبؤ العلمي: التنمية والتقنية الزراعية وازدياد عدد السكان، والبيئة. وقد نبحث بعضها بحثًا هينًا هنا. ولا نَعِدُ بالوصول إلى نتائج ذات قيمة، على أننا حريصون على نيل أجر الاجتهاد.

انظر إلى غوغل إيرث على شاشة الحاسوب، ترى بسهولة في الوسط صفرة صفراء هي العالم العربي، وتصعد بعينك إلى أعلى فترى خضرة تكاد تميل إلى السواد هي أوروبا. ويتساءلون لم يركب شباب العرب قوارب الموت للوصول إلى أوروبا.

خذ أمينة الصومالية التي حملت ولديها وهاجرت بهما مئات الكيلومترات هربًا من المجاعة. دسَّت ولدها في التراب بعد أسبوع، ولم يُبقِ لها الجوع دمعة تذرفها عليه، ثم دسَّت بنتها، وراح زوجها يجاهد للحصول على طعام، وظل يرجع خائبًا.

أستراليا وكندا غير مستعدتين لاستضافة شعب الصومال. تقولان: نسبة التوالد عندهم عالية، وحكاية الاستضافة حكاية لا نهاية لها. الضمير

العالمي لا يجرؤ على مطالبة أي شعب بالحدّ من النسل. كأن الحرية في الإنجاب من حقوق الإنسان الأساسية. والواقع العالمي يسمح للحدود بأن تكون مقفلة إلى حد كبير. والأمم المتحدة لا تعالج المبادئ الإنسانية العامة، بل تصدر كتيبات بستّ لغات عن أحوال الفقر وسوء التغذية.

واضح أن قادة العالم لا يريدون الانغماس في المشكلات الأساسية للآخرين: مستعدون لقليل من الإغاثة فقط. الحدُّ من النسل ليس الحل السحري؛ فالصومالي عند هطول المطر بحاجة إلى أولاد كثر يعينونه وهو يفلح أرضه ويرعى غنمه. والتعليم ليس الحل السحري؛ فالراعي لا يحتاج إلى علم كثير. وأساليب العيش في مصر والسودان وسوريا لن تنتفع بتكنولوجيا متطورة إلا بعد المرور بحقب من التدرج في الإنتاج. وسيبقى علم أحمد زويل بضاعةً غير مطلوبة في مصر لسنوات طويلة مقبلة. ببساطة عندما يكون في مزرعتي عشرون عاملًا فإنني لن أنتفع بتعليمهم جميعًا الكتابة. يكفي أن يتقن اثنان منهم قليلًا من الكتابة وقليلًا من الحساب. هذا هو ما يلزم مزرعتي. وكل زيادة عليه ضِارة، أولًا لأن المثل يقول: الزائد أخو الناقص، وثانيًا لأن من يكتسب معلومات غير مفيدة لعمله إنما يأخذ بتشغيل خلايا دماغه في أمور لا تعود بالخير على الإنتاج. فهل يلمس القارئ أنني أطالب بالتجهيل؟ ربما الأفضل أن ينتظر هنيهة.

هل نريد تصدير الناس إلى الخليج وكندا لكي يكسبوا المال لهم ولنا؟ ربما. هذا هدف مشروع. ولا أقول: إنه نبيل ولا خسيس. هل نحتاج فعلًا إلى عدد كبير من الأطباء؟ في معظم الأحوال تكفي نصيحة الصيدلي.

في جو سياسي مضطرب من الصعب وضع خطة تعليمية. نحن لا نعرف حدودنا ولا مستقبل كياننا السياسي. قد يستمر الوضع الغائم بشأن الكيان السياسي الفلسطيني سنوات طويلة. والفارق بين طموحاتنا الوطنية وبين الممكن سياسيًّا قد يكون كبيرًا أو صغيرًا بحسب جهدنا وبحسب الظروف. لهذا سنعيش بضعة عقود عائمين على زئبق. ولهذا ليس سهلًا أن نخطط تخطيطًا مُحكمًا لشيء، ليس للتعليم ولا للاقتصاد ولا لأي شيء. فلنضع إذن خطوطًا عريضة جدًّا.

لقد أُنشئت دولة إسرائيل ليس فقط لوجود حاجة استعمارية أوروبية ثم أمريكية، وليس فقط لوقوع حدث تاريخي محدد المعالم هو المحرقة، الهولوكوست، التي جاءت تتويجًا فظيعًا لخمسمئة سنة من اضطهاد اليهود في أوروبا، بل أُنشئت إسرائيل أيضًا تلبية لحلم اشترك فيه اليهود والغرب المسيحي: حلم عودة المملكة القديمة التي أنتجت الكتاب المقدس، والتي رآها كثيرون من اليهود بضعةَ قرون الوطن الموعود. وثمة حلم آخر خفي في القلب الأوروبي تلخصه عبارة غورو الفرنسي: «ها نحن عدنا يا صلاح الدين». الوجدان الغربي لم ينس الحروب الصليبية. ولا نحن نسيناها.

بدأ بعض المفكرين الفلسطينيين في تأسيس حلم كنعاني، ولا أظنهم عاجزين عن الحصول من جوف التاريخ على مواعيد سابقة على التوراة لكي يؤرِّخوا بها وجودًا كنعانيًّا في فلسطين. وثمة من ينادي بدولة موحدة على كل تراب فلسطين، وثمة من ينادي بحقِّ العودة دون أن يفصِّل لنا القول في بضع مسائل منها التحمل الديموغرافي لرقعة الأرض، ومنها ما يقوله اليهود عن حق العودة لكل يهودي إلى هذه الأرض. المجموع الآن

خمسة وعشرون مليونًا لكل اليهود ولكل الفلسطينيين في العالم. على أنني هنا أذكر شيئًا قرأته لأحد علماء الديموغرافيا مؤخرًا، يقول: «كل سكان الأرض يمكن استيعابهم في رقعة ولاية تكساس الأمريكية». نعم، وفيزيائيًا يمكن استيعابهم داخل كستبان إذا أُزيلت الفراغات ما بين الذرات. كلام نظري.

لا بد لفلسطين من أن تغمض عينيها وأن تؤلف لنفسها حلمًا. عاش اليهود ألفي سنة في حلمهم عيشة غير راضية، وعندما حققوه خابت آمال عقلائهم. فهل دفعونا بتحقيقه إلى أن نكرر مأساتهم التاريخية؟ ربما. وهل نملك أن نستسلم ونقول: ضاعت بلادنا، لا حول ولا قوة إلا بالله؟

من الجدير بالإنسان أن يتخلى عن مثل هذه الأحقاد التاريخية. من الجدير بالإسلاميين ألا يحقنوا الشباب بأحلام تحرير الأندلس، وبأحلام تحرير العالم من كل الأديان الأخرى. ومن الجدير بالغرب أن يتعقل وأن يترك «التفكير التاريخي». وقد لمستُ عند رجل بدا أنه ليبرالي وعاقل ومتحرِّر من عقد التاريخ، هو بيل كلنتون الرئيس الأمريكي، لمست في مذكراته أكثر من إشارة تدل على أن الارتباط بين بلده وبين دولة إسرائيل ذو جذور دينية وتاريخية، وأما خليفته بوش الابن فمعروف تفكيره وتفكير جماعته العقائدية السياسي-الديني. ويَغلب على ظني أن تقوى طوني بلير رئيس وزراء بريطانيا بَلَهٌ نفعي لا أكثر، فهو لسان ذرب وعقل من الدرجة الثانية، كما تأكد لنا من كتابين كتبهما بعد خروجه من الحكم.

قلت: يجدر بالإنسان أن يفكر دون أن يورط التاريخ في خططه. ولكن الإنسان لا يفعل. ورغم أنف الليبراليين -وكنتُ أحسبني منهم حتى تبيَّن لي أن الفلسطيني لا يملك ترف أن يكون ليبراليًّا- فالإنسان كائن تاريخي.

فهل نشكِّل حُلمنا -عندما نغمض أعيننا- بحيث نستصرخ قوة الإسلام؟ هذا شيءٌ لا تحبه إسرائيل، ولا يخشاه الغرب. ولكن الإسلام لن يكون أداة لنا، بل سنكون نحن أداة للإسلاميين. وعلينا أن ندرك أيضًا أن تشكيل حلمنا على أساس ديني فيه تجاهل للمسيحيين الفلسطينيين، وفيه تجاهل لحقيقة كبيرة هي أن إسرائيل اجترأت على العالم المسيحي عندما اضطهدت المسيحيين في فلسطين مثلما اضطهدت المسلمين. أقول هذا ولست ضامنًا أن يبقى في فلسطين مسيحيون بعد بضعة عقود، فهم أخفُّ قدمًا في الهجرة من المسلمين.

نعم، هناك «تطهير ديني» يحدث الآن في كل الشرق الأوسط تساعده الروح الصليبية الغربية، والروح الإسلاموية الشرقية. وخط الجبهة يرسم الآن فيما بين الدينين الكبيرين في وسط الدنيا: المسيحية والإسلام. شيء مقلق أن يكتب المرء بمثل هذا التعميم. هذا واقع الآن. نراه في العراق ومصر وسوريا ولبنان.

لست بصدد رسم الحلم الفلسطيني، فخيالي أقصر من ذلك. لكنني أعرف في أعماقي أن من الخير لنا ألا نتورط في التوقيع على التنازل عن أي شبر، أو على التنازل عن حق العودة الكامل والشامل، ومن الخير لنا رفض التعويض ورفض قرار الأمم المتحدة المتعلق بهذا الأمر. كلما وقَّع الضعيف على التخلي عن شبر خسر مترًا.

عندي شعور بأن الانقسام في الانتماء بناء على الدين انقسام زائف، وأن التهام الإسلاميين في الوقت الحاضر -حتى وإن كانوا الأغلبية- للكتب التي تتحدث عن عذاب القبر وما أشبه ذلك هي حالة مرضية جديرة بتشخيص سريري نفساني رسمي. إقبال الأغلبية على شيء لا يعني أنه صحيح أو أنه حالة عادية دائمة. انظر في اليوتيوب تر مقاطع التفاهة والإثارة ذات زبائن بالملايين بينما المقاطع الرصينة لا زوار لها.

الله أصل وليس معه أصل

خلق الله الكون..

ندرك الله بقدر ما نعرف عن الكون. وحتى الساعة تشير كل ثمرات عقولنا وبحوثنا وصواريخنا إلى أن الكون لانهائي. لا نعرف شيئًا عن بدء المجرات، ولن نعرف شيئًا عن نهايتها إن كانت ستكون لها نهاية. ويجدر بالقارئ أنِ ينظر إلى نظرية الانبعاق الأكبر (البيج بانج) نظرة شك. فإن كذبت فالله موجود، وإن صدقت فالله وراءها. ولمَّا كانت معرفتنا بالكون محدودةً -ونزداد إحساسًا بمحدوديتها- فإن إدراكنا لله محدود. فإذا بقينا على اعتقادنا بأن الكون لانهائي -وعلى الأقل سيظل هذا هو المعتقد الغالب للألف سنة القادمة فيما أحسب- فنحن نسلِّم بأن إدراكنا لله لن يكتمل. فأما إذا قال بعض المتصوفة: إن معرفة الله ممكنة بالتخلي عن عدد من الملذات، أو بانتهاج طرق معينة في العيش والعبادة، فهذا طريق في المعرفة غير طريق الفكر المحض. على أنني ألتقي مع المتصوفة في أن أجمل غايات الفكر؛ إدراك الله.

تكون بذرة التفاح مقعية داخل ثمرتها لا تدرك شيئًا عن الكل الكبير، فإذا هي تسقط مع التفاحة أرضًا، وإذا هي تتغذى على لب التفاحة وتنمو، ثم تضرب جذورها في الأرض، ثم إذا هي تتحول إلى شجرة تفاح باسقة. نحن كبذرة التفاح. فبعد الموت ننغمس انغماسًا جديدًا في الكون ونلتحم به، وقد يكون في هذا الالتحام إدراك لما تعذَّر علينا في حياتنا. على أنني

أفكر وأنا حي، وأكتب للأحياء. وليس في خطتي أن أخرج من باب صوفي لكي أزعم إدراك ما لا أدرك.

ما أحرانا ونحن في خضم سعينا لمعرفة الذات الإلهية أن نسمي التفكُّر فيه عبادة؛ فالله أصل وليس معه أصل.

وثاني منطلقاتي الإسلام. إليه أنتمي روحًا وفكرًا ومعيشةً. فإذا انتميتُ إلى الجنس البشري فهذا انتماء آخر، وإذا انتميت إلى العرب فهذا انتماء ثالث، وإذا انتميت إلى قوم آخرين أعرف شيئًا من لغتهم فهذا انتماء رابع. ولكن الانتماء إلى الإسلام متميز بأنه انتماء إلى الأمة الروحية. قد يكون انتمائي إلى قومي العرب أو أبناء منطقتي أو إقليمي الضيق قويًا جدًّا ومشحونًا بمعاناة مشتركة وعذابات، هذا قد يجعلني أحب وأرتاح للمسيحي العربي أكثر مما أحب وأرتاح للمسلم الإندونيسي. غير أن انتمائي الديني هو انتماء الروح والفكر. والمسيحي العربي له انتماؤه الروحي والفكري، وله طريقته في إدراك الله. ومن يدري فقد نتقارب وقد نتباعد. النقطة الحالية التي وصل إليها تطور البشر ودياناتهم تجعلني مسلمًا.

كنت دائمًا أسأل نفسي: «ماذا عندك من الإسلام؟» ومنذ بضع سنوات أخذت أجيب: أنا من الناس الذين عندما يُنادى في يوم الحشر: «فليلحق كلٌّ بصاحبه»، أذهب إلى حوض محمد ﷺ، وأقول: «أنا معك».

لعل من المناسب أن أُنزل قضية انتمائي الإسلامي إلى الأرض وأبعدها عن يوم الحشر: نحن نعيش عالمًا يصنِّف البشر في مجموعات بحسب رؤيتهم للمطلق الإلهي. كانت هذه هي الحال منذ بدء التاريخ،

وما زالت. وبانحسـار النزعة القومية التي استبدلت هذا الانتماء بالانتماء القومي عاد الانتماء الديني بقوة. والعيش في هذا العالم يقتضي الانضواء في سـرب. في السـرب حماية وفيه إحساس بالجماعة وفيه تسلية. فنحن نقضي وقتًا طيبًا في ساعات حياتنا بالحديث إلى ناس يشبهوننا أو يملكون مفردات تشـاكل مفرداتنا. وقد عشـت زمنًا وسـط قوم من المسلمين غير العـرب بعضهـم مـن الهنـد، وبعضهم مـن جنـوب إفريقيـا، وبعضهم من الأوروبييـن والكندييـن الذيـن دخلـوا في الإسـلام. كنت أجـد راحة في الحديث وترداد بعض المفاهيم المشـتركة. فنحن في الحديث نحمد الله على الطيب والسـيئ، ونتكلم عن يـوم الجمعة كلامًا واحدًا بوصفه يومنا المقدس، ولنا طريقة في التسليم بالقدر، وتقبل أحداث الدهر، ونعبر عن كل ذلـك بألفـاظ معلومـة. كل هـذا فيـه تسـلية اجتماعية. هـذا النوع من الانتماء فيه جانب روحي مهم. وأشـعر أنه موجود مع العربي حتى لو لم يكن مسلمًا؛ فالثقافة الإسلامية موجودة عند كل عربي، وهي تمثل انتماءً.

وثالـث منطلقاتـي القرآن. فهذا كتـاب الانتماء وكتـاب الروح والفكر للمسـلم. و«الإنسـان مدنـي بالطبـع»، كما قال ابـن خلدون. الإنسـان لا يعيـش وحـده. لا بد من أن ينتمي. وقد تفرض بعض العصور -ومن بينها عصرنا الحاضر- وتفرض بعض الأماكن -ومن بينها بلادنا العربية- على الإنسـان أن يلصـق على جبينه بطاقةً بانتمائـه الديني. هذا جزء من التطور الاجتماعي والاعتقادي للبشر. أنا قاعد هنا في هذا الزمان وهذا المكان. ولسـت ناويًا أن أرحل. يعجبني الجوُّ هنا. هذا وطني الزماني والمكاني. ولي فيه حق. وعليَّ فيه حقوق، ومنها أن أسجل انتمائي بحسب ما تفرضه طبيعة المكان والزمان.

فأنا رجل مسلم. وكتابي هو القرآن.

وقد جُعل لهذا الكتاب وصفٌ فرضه الفقهاء والمتكلمون، والتزم به حتى الفلاسفة على مر العصور، هو أنه صالح لكل زمان ومكان. بعضهم كان يفسر هذا الوصف ويشترط فيه، وبعضهم كان يطلقه ولا يرضى أن يناقش فيه. فأما الذين يطلقونه فقد انطلقوا في هذا الإطلاق من انحصارهم الزماني والمكاني. فالفقيه الذي يعرف من المكان بيته وجامعه والدرب الواصل بينهما، ويعرف من الزمان وقته هو دون بقية أوقات هذا التاريخ الطويل الذي يمتد من آلاف السنين قبلنا إلى آلاف السنين بعدنا، لن يبرع في مناقشة مسألة الصلاحية لكل زمان ومكان. إنه يطلقها بلا اشتراط ولا نقاش لأنه لا يملك الأفق المكاني ولا الزماني.

وأما من سعى في ضبط مسألة الصلاحية لكل زمان ومكان فقد سار طرقًا عديدة بين التأويل والتأوُّل والتفسير، وإنطاق اللغة بما ليس في وسعها النطق به، وتوسيع الرخص، والقياس على ما يسمح به النص وما لا يسمح، بما هو نص لغوي. ولم أر في هؤلاء من أباح أن يكون لقوم آخرين نص صالح لكل زمان ومكان.

وقد سلك آخرون في اعتبارهم لكتبهم طريقنا في الصلاحية لكل زمان ومكان. ومن هنا كانت لهم دعوة إلى دياناتهم وتبشير بها. ونحن يَهمنا أنفسنا. يهمنا أن نقيم اعتبارنا للصلاحية لكل مكان وزمان إقامة تساعدنا في العيش وتساعدنا في التفكير الحر المنتج والمبدع، وتساعدنا في تجنب التعارض الذي يبلبل الأفكار.

نحن بين دراسة تاريخية القرآن وبين طريق التأويل الذريع. فأما تاريخية القرآن فقد درسها مسلمون وغير مسلمين في العصر الحديث مستعينين بقدامى الدارسين من المسلمين الذين كانت لهم عقول منفتحة ومطمئنة بسبب ما تمتعوا به من إيمان راسخ. فهم بسبب ذلك الإيمان أفاضوا في درس الناسخ والمنسوخ وما ورد مطابقًا لقول الصحابة، دون أن يخافوا طعنًا في دينهم ويقينهم. وقد ترك لنا الأوائل معلومات متفرقة عن تدوين القرآن فتحت للمُحدَثين باب دراسات شائقة عن تاريخية القرآن.

ولكن القدر الموجود حاليًا من انفتاح الفكر وسعة الأفق، ونسبة وطبيعة التدين الذي يتحلى به العالم الإسلامي، كل هذا يتيح لنا فقط أن ننحصر في الأبحاث التي تخدم التأويل الذريع.

فالتأويل الذريع منهج يُنتهج لدرء التبديل والتغيير عن القرآن. نعم، فإذا فسحنا لأنفسنا أن ندرس ونؤول ونستنبط، أغنانا ذلك عن نبش معارف ومعلومات لا يحتملها كثيرون في هذا العصر.

فهل نؤول أم نتأول؟ نفعل كليهما. وهل نفسر أم نخمّن؟ نفعل كليهما. وكل ذلك فعله أسلاف كانوا في أعلى مراتب التدين والتقوى. وهل نعتد بأسباب النزول؟ أجل، فما كتب فيها الأقدمون الكتب، وما ألحق بعضهم هذه الكتب بالتفاسير إلا وهم يرونها معينًا على فهم القرآن.

ولا بد أن نقول بتحلّي القرآن بالعقل والعدل. فما خرج عن أي منهما في وهمنا فله مدخل يعيده إلى العقل والعدل، فليلتمسه من يطيق. فمن رأى في القرآن إقرارًا بوجود عبيد، فعليه أن يرى أن القرآن وضع إشارات

عديدة تنبه إلى عدم انسجام العبودية مع مبدأ المساواة الإنسانية، فالقرآن يسوّي بين البشر، ومن منطلق عدله علينا أن نتأول منع العبودية. ومن رأى في القرآن جواز ضرب الرجل المرأة في أحوال معينة، وجب عليه أن يرى أن ذلك واكب فترة المجتمع الذكوري، فإذا تغير المجتمع فالقرآن يحمل، في آياته الكثيرة التي أشركت المرأة في القرارات وأخذتها في الاعتبار بجانب الرجل، مؤشرات تجعلنا نستمد حكمًا بحصر آيات ضرب المرأة في ظروف المجتمع. فماذا لو تغير المجتمع وانقلب وأصبح مجتمعًا أمَّويًا وكانت المرأة هي محور القرار وهي صاحبة السيادة، وصار خروج الرجل عن طاعتها مفسدة؟ عندئذ يكون تأويل الضرب أنه موجه إلى الرجل. هذا بمقتضى أن القرآن عادل. فهو يعطي الحكم العام ولنا أن نطبقه بحسب التطور الاجتماعي. وبوصفي رجلًا، أرجو أن يقف تطور المجتمع عند المساواة والتآخي بين الرجل والمرأة فلا ضارب ولا مضروب.

وعن العقل: فالقرآن يأتي بالأمثلة والقصص. فمن شاء أن يلتزم بحرفيتها فقد يضل؛ فالقرآن متفق مع العقل ولا يناقضه. ومن وجد في آية القطع ما يجعل الحياة مستحيلة في زمننا هذا حيث كلنا سارق: بعضنا يسرق بالرشوة والفساد، وبعضنا بالواسطة، وبعضنا بالصفقات التجارية، وبعضنا يسرق وقت مؤسسته؛ فلا بد أن يفكر بعقله في الآية.

هذا عن معاني القرآن. فأما اتخاذ تلاوته للتعبد والاستماع إليه بأصوات حسنة وبترتيل متقن، فهذا غذاء روحي للمؤمنين. قد قصرت كلامي على القرآن دون السُّنة، لأن الحديث عنها يطول.

ومقصدي من هذا المقال ليس إعادة صياغة مفهوم الإسلام بعناصره، فهذا ما لا أستطيعه. مقصدي حثُّ المفكرين الإسلاميين في عصرنا على التوسع في الفهم والاجتهاد والخروج من أسر فكرة سيطرت على المسلمين طويلًا: وهيَ فكرة العصمة. يصل الأمر بالمتشددين إلى نوع من الاستخذاء والرعب دون نقد فقيه قديم. أرى الكُتَّاب مشلولي التفكير إزاء مسائل هينة لمجرد أن فقيهًا قديمًا قال فيها قولًا. العصمة رداء أسود سميك لف به المعاصرون كل القدامى.

ومن وجد الله بطريق صوفي أو فلسفي فهذا هذا، ومن بحث وخامرته الشكوك، فلا سبيل، في عصر الإنترنت، إلى منعه عن التعبير عن شكوكه.

الباحث عن الله يكون متدينًا ويكون غير ذلك. فالمتدين يستمسك بما تيسر له من حبال الله ويواصل البحث أو لا يواصل. وغير المتدين المنشغل بالسر الأعظم يعيش في فقاعة اللغز راضيًا أو حائرًا. وأما الشخص الذي لا يعنيه أبدًا ماذا يكون بعد الموت، ويعيش حياته محافظًا على جسمه ملبيًا غرائزه محاولًا إدامة عمره إلى أقصى ما يمكن، فهذا الغالبية الساحقة من البشر، وفيهم الفيلسوف والعامي وكل ما بينهما من درجات. إنهم غير معنيين بما بعد الموت. أراحوا أنفسهم.

عالجنا القرآن والإسلام علاجًا يفضي فيما نرى إلى شيء ويكبح شيئًا. يفضي إلى تحرير طاقات الناس وتحرير سلوكهم الاجتماعي، وتحرير نفوسهم بحيث يسعون في تحصيل أرزاقهم في الدرب المهيع متجنبين بنيات الطريق، ويفضي إلى تناغم أكبر بين الشريعة والحياة. ومعالجتنا تكبح التعصب، وتكبح جماح الانتشاء بالعنف. فالتعصب

الديني -ولنا فيه شركاء في الغرب والشرق- يؤدي إلى نشوة كاذبة، أصلًا لأن الاعتقاد بامتلاك الحقيقة المطلقة اعتقاد كاذب، ومن ثم يتم التنفيس عن المشكلات بتصديرها في اتجاهات لا تحقق للشعب شيئًا، وإن كانت تريح بعض الأفراد. فالمسلم المتعصب لا يخيف فقط أبناء الأمم الأخرى، بل أبناء أمته هو. والأمم الأخرى تسعد بأن يكون لها عدو متعصب أحمق فهو يساعدها على نفسه وعلى أبناء أمته. وآية المتعصب أنه يأخذ النص بحرفيته. وآية المفكر العاقل أنه يرى ما في النص من حكمة ظاهرة وحكمة خفية ويفسر النص بالنص ويؤوله.

المفكر الصادق

اختطف السلفيون القرآن وسجنوه في تفسيرهم. وتفسيرهم لا يفي بحاجات العصر، فإذا أصروا عليه -وهم مصرُّون- فلن يستطيعوا المحاججة إلا باستخدام العصا.

واختار العلمانيون أن يعيشوا حياتهم دون أن يتعرضوا للقرآن بشيء، فكأنه غير موجود. لكنه موجود. موجود في قلوب الناس وفي عقولهم. وتجاهله لا يلغيه. ومن تعرض له بالإنكار منهم سُمِّي ملحدًا، ومن عالجه بالنقد سُمِّي فاسقًا أو مارقًا.

رأى الشيوعيون الاتحاد السوڤييتي العظيم يدعمهم فاستبدلوا بالدين العقيدة الشيوعية وتديَّنوا بها. وأذكر أنني عندما قرأتُ بضعة مجلدات لماركس وإنجلز ولينين في السبعينيات كنت أقف عند مقولات كثيرة وأراها مجرد آراء تقبل النقاش والصواب والخطأ، وكنت أفاجأ بأن الشيوعيين من زملائي الطلبة لا يستطيعون قبول وجود أي خطأ في كل تراث الماركسية، فكأن الثلاثي ماركس وإنجلز ولينين لم يكونوا بشرًا. ونجح الشيوعيون في أن يصرفوا جمهرةً من الناس عن الدين. وبانهيار الاتحاد السوڤييتي عاد كثيرون من أفراد هذه الجمهرة إلى الدين، وعاذ (بالذال) عدد منهم بالعلمانية ممزوجة بقليل من الاشتراكية. وراح بعضهم يوفق بين الاشتراكية والدين. وحاول بعضهم إعادة صوغ الماركسية. أفليس ثمة بدٌّ من أيديولوجيا، أنموت جوعًا بدونها!

شبيه جدًّا بهؤلاء الأخيرين -الذين لا يعيشون بدون أيديولوجيا- أصحاب الإسلام السياسي. فهم ورثة الفكر السلفي والناقدون له في آن. يريدون إسلامًا خاليًا من التفسيرات المتشددة، ونقيًّا من الفتاوى الشاذة. لكنهم يريدون الدين أيديولوجيا سياسية وحزبية أيضًا.

في الفقرات السابقة استعرضنا بسرعة واختصار بضعة نماذج. ولعل القارئ يظن أننا نريد أن نطرح نموذجًا آخر نراه نحن. قد صدق ظنُّه.

العالم متدين. ليس أكثر من ذي قبل ولا أقل. كل ما نعرفه أن العالم متدين. الملحدون في كوريا الشمالية متدينون يصلُّون لرئيسهم كل يوم. والرأسماليون في أمريكا لهم مشاعر دينية حارة بعضها ذو صلة بالكتاب المقدس، وبعضها ذو علاقة بالوطنية الأمريكية: فهم يقدسون الآباء المؤسسين، ويحرمون في المنصات الرسمية انتقاد إلقاء قنبلتين ذريتين على المدنيين اليابانيين. الشعور القومي الأمريكي يرقى إلى مرتبة التدين.

البشر كائنات متدينة. ونخمن أن ضرورة الدين والتدين آتية من السؤال الكوني الأعظم: ما مغزى هذا الكون كله، وما مصير الفرد بعد الموت. بالطبع سيتحول جسمك بعد الموت إلى جزيئات من الكربون والنيتروجين... إلخ، وسيتفرق هذا الجسم ما بين الهواء والتراب. لكن الكون كله قائم على الصيرورة. كل شيء يتغير. فجسمك – وروحك أيضًا – خاضعان لهذه الصيرورة. لكن القلق الذي تسببه هذه الصيرورة للناس يجعلهم يبحثون عن إجابات؛ اشتياقًا للمستقبل، وتخوفًا منه.

قبل ستة أسابيع استقلتُ من وظيفة إدارية استقالة طوعية، لكنني بقيتُ في العمل إلى حين تعيين بديل لي. وقد تم تعيينه قبل أربعة أيام. فها قد

قضيت شهرًا ونصف الشهر مع زملائي الذين كنت لهم مديرًا. وقد قضينا هـذه المـدة نتحـدث عـن المسـتقبل لا عـن الماضـي. وكانت مشـاعري مختلفـة عنهـم، فأنا منصـرف، ولا قرص لي في هذا العُـرس كله. لكنهم كانـوا يعانـون قلقًـا مشـوبًا بالرغبـات والمخـاوف. مـن الـذي سيتولى المنصـب؟ وكيـف سـيكون موقفـه مـن سـاعات الـدوام؟ وهل سـيوزع المواقع بطريقة مختلفة؟ وهل سـيتم تعيين فلان الذي يكرهني مديرًا، أو فـلان الـذي يقدرني، أو فلان الذي لا نعرفه؟ وهل سـيتم تعيين شـخص معين بغرض تقليص عدد الوظائف؟

كل هـذا القلـق من «الغيب» جعل الناس يضعون السـيناريوهات لكي يطمئنـوا أنفسـهم. ونشـأت في هذا الجـو في الإدارة التي كنـت لها مديرًا أديـانٌ عـدةٌ: ديـن اعتنقه فريق مـن الموظفين يقول بأن الدائـرة مهمة جدًّا وسيشـهد المستقبل توسيعًا لها، وسيكون لهم امتياز أسبقية الوجود فيها؛ ودين يقول: إنه سـيتم إلحاق أجزاء من الدائرة بدائرة أخرى أكبر منها في المؤسسـة؛ ولـذا فإن ثمـة فرصًا للترقي ضمـن دائرة أخـرى، ودين ينص على أن المؤسسـة راسـخة -وإنها لكذلك- ولذا فالتغيير سـيكون مجرد استبدال مدير بمدير. الرغائب والمخاوف كانت تحدد الكثير.

هو مجرد تشبيه.

أظن أن مهمة الأديان الرئيسـية هي التهيئة النفسـية لمسـتقبل مجهول. ولا بأس بالتعرض لمهمة فرعية.

جارتنا المطلَّقة حديثًا كانت تأتي إلينا وتنصب مناحة في كل يوم. فإذا زرناها في بيتها وجدناها ضاحكة مستبشرة. ذات يوم اعتذرت إلينا قائلةً:

«لا مجال للبكاء في بيتي، أولادي يريدونني كتفًا قوية يستندون إليها ويبكون عليها، ولا يمكنني أن أُظهر لهم أي ضعف. أحببناها لاعتذارها، وغفرنا لها كل المناحات».

البشر يريدون كتفًا يبكون عليها. والدين يوفر هذه الكتف في العادة.

لسنا في معرض دراسة أديان ومعتقدات وأيديولوجيات هذا العالم. ولا نشك في أنها مختلفة في وظائفها الفرعية. لكننا قدمنا فهمًا تعميميًّا لها كي يخدم غرض هذا المقال.

نحن مُطَالَبون بأخذ الدين في الحسبان، باحترام الدين؛ لأن الناس متدينون. والمفكر الصادق مطالب بألا ينافق المتدينين. الفكر الذي ينافق قليلًا من شأنه أن ينحرف كثيرًا: كالمسافر من القاهرة إلى الإسكندرية وينحرف بمقدار خمس درجات تبدو في بداية رحلته شيئًا طفيفًا، لكنه في نهاية رحلته يجد نفسه في بنغازي.

المفكر الصادق ليس من اختراعنا. هو موجود في بلدان كثيرة، وضمن حضارات كثيرة، من بينها الحضارة العربية الإسلامية.

في أزمان الهيمنة السلفية على العقول وعلى السياسة وعلى المجتمع يخفي «المفكر الصادق» كثيرًا من آرائه؛ خوفًا على نفسه ومراعاة للمجتمع. وهنا مكمن خطر: قد ينجرُ إلى المجاملة. قد يضطر إلى التخلي عن كثير من متع الحياة -وأولها الحرية- كي يمنع التشهير به والقيام بحملات اغتيال لسُمعته. وهنا مكمن خطر: قد يؤدي به ذلك إلى الجبن والتخشب.

هذا كله عن الشكل الخارجي للمفكر الصادق، لكن بأي شيء يفكر هذا الكائن؟ وما هو فكره؟

هو يفكر في الكون طبعًا. وهو متحيِّر في مغزى الكون ككل زملائه البشر. لا اختلاف. وهو قد يعتنق من المعتقدات والأديان والأيديولوجيات ما يريحه. لكنه كثير التذبذب فيما بين المسلمات. لا يعتقد بصحة شيء إلا ريثما يتحول إلى غيره. هو صادق مع نفسه، ولا يجبر عقله على اتخاذ خط مرسوم بدقة. هو يفكر بصدق. ولا يخاف من فكره، مع أنه يخاف على نفسه من الدهماء.

كانوا متأكدين جدًّا من كلامهم وهم يقولون لنا في كتب المدرسة: إن الذرة مكونة من ثلاثة عناصر: بروتونات ونيوترونات وإلكترونات، ومنها يتكون كل شيء في الوجود. واليوم، وبسبب الشك المستمر الذي لا بد منه للعلم الصادق، بدأوا يغيرون كلامهم. ودخلت الفوتونات وبضع عشرات من الدقائق الأخرى إلى الحلبة. والمسألة ما زالت مفتوحة.

وظلت قوانين نيوتن الدين العلمي للبشرية سنين طوالًا، ثم جاء آينشتين ونقض الصورة النيوتونية. والمسألة الآن مفتوحة، وقد بدأت المعاول تنوشُ نسبية آينشتين حتى في حياته. ولأن آينشتين لم يكن مثل نيوتن الذكي العظيم المتكبر الأحمق في سلوكه الاجتماعي، بل كان أديبًا رقيق الشعور وفيلسوفًا ومتواضعًا، فإنه بارك هذه المعاول، وكان قد ضحك من نفسه ذات يوم عندما تبين أن مقولة له في طبيعة الضوء فاسدة، وقال ما معناه: إن تلك من حماقاتي البالغة (تفصيل الأمر موجود في كتاب بول بارسونز **العلم** الصادر في العام ٢٠١١، وليس بيدي الآن لأنني شحنت كل كتبي بسبب انتهاء وظيفتي وقرب سفري).

فالتذبذب الذي جعلناه من لوازم المفكر الصادق لا يعني الالتحاق بحزب مختلف كل أسبوع، واعتناق دين جديد كل شهر. بل هو حرية المرء في أن يغير رأيه. والمسألة ليست تغييرًا بقدر ما هي تطوير.

يوجد في العالم الناطق بالعربية أفراد كثيرون يبشّرون بالتحول إلى صيغة «المفكر الصادق». ويعرقل عملية تحولهم هذه التشنجات الأيديولوجية، أو المداهنة التي ينزلقون فيها بسبب التيارات السياسية والفكرية المسيطرة. المفكر الصادق في العالم العربي يشبه الزورق الذي يسير بجانب باخرة عملاقة هي الاتجاه الإسلامي. فإذا اصطدم بها فهو الذي سيغرق، وإذا ماشاها فعليه أن يتزود بالطعام والشراب منها، وأن يؤدي الثمن مداهنة.

سيكون عندنا من جديد معتزلة وإخوان صفاء، وحلّاج وجُنَيد وسهروردي، وكثير من الكنايات والتعريضات، والغمز. فإذا قويت الديمقراطية وقويت معها حرية الفكر فسوف يظهر مفكرون صادقون كثر، وهم الذين سيكونون روح التنمية.

هذان نموذجان: أبو العلاء المعري، وجميل صدقي الزهاوي، وكلاهما فيلسوف وشاعر. قال المعري في **اللزوميات** بضع مئات من الأبيات التي تنضح بالتقوى، وقال بضع عشرات من الأبيات التي تنضح بالشك. وقد خدمه هذا المسلك وعماه وزهدُه (ثلاثتها) في بلوغ السادسة والثمانين والموت على فراشه. نظر المتشددون دينيًا إلى أبياته الشاكّة (التي بلغ بعضُها درجة الاستخفاف بالمقولات الدينية)، وفهموا أن من يقول هذا لن يكون صادقًا في أبياته التقوية (من تقوى)، ونظر أهل

السـماحة إلى مجموع الأبيات ورأوا أبيات التقوى تزيد عن أبيات الشك فسامحوه، وجاء المعاصرون فتصدوا بصدورهم للدفاع عن عقيدته، فهم يبجِّلون القديم، فكيف يصِمُون أبا العلاء في دينه وهو القديم الفصيح... إلخ. ولديهم سـوء نية فكرية أيضًا: فأن يكسـبوا أبا العلاء إلى صفهم خير من أن يتركوه أيقونة للشاكِّين.

والزهاوي قسـم ديوانه الموسوم بـ **النزغات** أو «نزغات الشيطان» إلى قسـمين: قسـم اليقين وقسم الشك. وزاد في الحَيطة فلم ينشر الديوان في حياتـه، بل تركـه مخطوطًا في عهدة بعض الأصدقاء. وزاد أخرى فسـماه «النزغـات» أي «وسوسـات الشـيطان»، فكأنمـا هـو يقـول للأتقيـاء: لا تحاسـبوني علـى هـذا فهو وسوسـة مـن الشـيطان. على أن الزهـاوي في ديوانـه الكبيـر المنشـور في حياته يشـبه أبـا العلاء في الخلـط بين التقوى والشك والاستخفاف. وقد كاد الدهماء في بغداد يلحقون به الأذى.

قد استعملت كلمة «الشك» هنا لكثرة ما جرت بها الألسنة. والتشكيك أكثر من الشـك. فذانك الفيلسـوفان كانا يضعان عدم تصديقهما لما تقول به التفسيرات الدينية في قالب التشكيك.

المفكـر الصـادق يسـكت عـن كثير، لكنـه لا ينافق ولا يكـذب. يقول الطبيـب لمريضـه: عندك كذا وكذا وسـنحاول جهدنا وهناك نسـبة نجاح طيبة. وقد لا يقول له: إن كلمة طيبة معناها عشـرة بالمئة. هذا السـكوت حميـد. فأما ذلـك الطبيب الذي قـال لصديقي الاسـكتلندي إن معه على الأكثر سـتة أشـهر للعيش فلم يكـن منصفًا. أراد أن يكـون صادقًا ودقيقًا. فمـا كان صادقًـا: فصديقي حي يرزق منذ سـنتين، ويعزف الموسـيقى مع

فرقة الهواة مرتين كل أسبوع، ويقيمون الحفلات في بيوت العجزة وفي المناسبات المختلفة. وقد زرتُه قبل ثلاثة أشهر، فأخذني في رحلات في طول اسكتلندا وعرضها. ولم يكن الطبيب دقيقًا في تشخيصه أيضًا. ولماذا تزعج الرجل؟ ولماذا هذا التحديد لفترة معينة؟

المفكر الصادق لا يرسل بالضرورة نفحات التشاؤم. ولا يدَّعي معرفة ما لا يعرف.

وحتى لا يقَرَّ في ذهنك أنني أعني بالمفكر الطبيب والمحامي والقاضي، فإنني أعود وأؤكد أن ما أعنيه هو الفيلسوف المفكر في شؤون المجتمع وشؤون الكون كله.

ثمة ميل شديد عند بعض العلمانيين إلى المضي شوطًا بعيدًا في امتداح المتدينين على سبيل المجاملة، وتكفيرًا عن إهمالهم الدين ودوره في فترات سابقة من حياتهم الفكرية. ترى المفكر العلماني الواقعي قد جار على دور الدين في المجتمع وفي بناء وجدان الفرد مدة طويلة، ثم اكتشف بالتدريج أن الدولة ذات الطابع المدني التي يعيش فيها إنما هي قائمة على فئة من الناس يسرقون البلد. يأتي اكتشافه متأخرًا بعض الشيء؛ ليس لأنه غبي، بل لأنه يفكر بجَيبه. فهو يتغاضى عن الفساد ما دام النظام يوفر له مكانة اجتماعية جيدة ومرتبًا طيبًا، (وما أكثر المثقفين العاملين في وزارات الثقافة وفي جرائد الحكومة، وفي جامعات الحكومة، وفي مراكز الأبحاث التي تمولها الحكومة أو تسمح لها بنيل تمويل خارجي سخي). هذا المثقف الراتع في النظام يصحو متأخرًا في العادة. مرة أخرى: ليس لأنه غبي، بل لأن كل إنسان منا يفكر بجَيبه أكثر مما يفكر بعقله.

يصحو المثقف أحيانًا قبل انهيار النظام. يصحو عندما يشح مرتبه ويصل الفساد إلى درجة عدم توزيع الفتات بما يكفي على مثقفي السلطة. هنا يبدأ المثقف ينتبه إلى أن العلمانية على هذه الطريقة قبيحة. وقد يجرد حملة تطهير داخل مخه. يبدأ يقول لنفسه: «الدين أمر واقعي جدًّا، والناس متدينون ولا يمكن أن يكونوا جميعًا على خطأ، ونحن لنا وجدان ثقافي عريض وعميق الجذور يمثل الإسلام عموده الفقري». ويبدأ هذا المثقف يقترب من الفكر الديني. وقد ينغمس فيه، وقد يتدين. وقد يظل راسخًا في فهمه العلماني للعالم، ولكنه يفتح هامشًا عريضًا لقضايا الوجدان.

وأنبهك إلى أنني لست معنيًّا في هذا المقال بالمثقفين، بل بالمفكرين. والفارق ليس سهل التحديد. والواقع أن إنسان مفكر، وكل مثقف مفكر. ولكن المثقف الذي يجمع المعلومات الكثيرة في الأدب والعلم والسياسة ويلملم تحليلات المحللين، وآرء النقاد، ويخرج بين الفينة والفينة بتحليلات من عنده، لا يرقى إلى مرتبة «المفكر» بالمعنى الاصطلاحي الفلسفي للكلمة.

المفكر مستقل بفكره جدًّا. ويهضم المعلومات والتحليلات وآراء الآخرين هضمًا جيدًا ولا يعيد إنتاجها، بل يخلق من مجموعها ومن معايشته رؤيةً أصيلةً.

قف لحظة واضحك على تعبير لألبرت آينشتين؛ يقول: «الأصالة هي أن تخفي مصادرك ببراعة».

المفكر مثل الموسيقار الحق، يستوعب موسيقى القرية وهدهدات أمه، وموسيقى كل معاصريه، ولكنه يستطيع أن يُدهشك بموسيقاه هو،

فتشـعر أنها شـيء جديد. وهي في الواقع توليفة مما سـمع، لكنها توليفة معقـدة وخاصـة به. والموسـيقار غير المبدع يجتر أنغـام غيره، ويغير فيها تغييرًا سطحيًّا.

أستقيل القارئ من هذه الثرثرة التي أرى أنها لـم تأخذني إلى أي مكان مهـم. وختامًا هـاك تعريفًا للمفكر الصادق: هو صادق مع نفسـه وصادق مع غيره، حتى وإن لم يفصح عن كل ما في عقله.

رأس المال: كيلو ونصف

لو معك فلوس كثيرة ونزلت السوق فلا تخَف من شيء. مفيش خبرة؟ تشتريها بفلوسك. وتشتري الناس بفلوسك، وتشتري الوكالات، وتفتح عشرين مكتب استيراد، وعشرين شركة. وكله سيربح. المهم أن تكون فلوسك كثيرة فعلًا. هذا قانون رأس المال.

الصاروخ بحاجة إلى صهريج ضخم من الوقود ليخرج من الغلاف الجوي، وبعد ذلك يكمل وحده. رأس المال مثل صهريج الوقود الذي يوفر الاندفاعة الأولى.

لقد وفر النفط لدول الخليج هذه الاندفاعة، فاشترت الخبرات اللازمة لتصنع لنفسها كيانات. ولا ألومها أبدًا، لا بل إنني موظف في الخليج وسعري مكتوب على جبيني.

وقد عرفت مصر فترة من توافر رأس المال الهابط من السماء: القطن كان يسمى الذهب الأبيض قبل أن يكون هناك ذهب أسود. وفي سنوات الحرب الأهلية الأمريكية (١٨٦٠ - ١٨٦٥) انقطع القطن الأمريكي، فارتفعت أسعار القطن المصري أضعافًا، واستمر الاعتماد على طويل التيلة حتى انهارت أسواق الدنيا عام ١٩٣٠. وفي هذا الجو قال أحمد شوقي:

اطلب القطنَ وزاول غيرَهُ — واتخذ سوقًا إذا سوقٌ كسدْ
نحن قبل القطن كنا أمةً — تهبط الوادي وترعى وترِدْ

كانت آخر قصيدة قالها شوقي قبل وفاته عام ١٩٣٢.

ونصيحة شوقي ذهبية. فلا بد للأمة من الاعتماد على أكثر من مصدر لرأسمالها. وأعظم رأسمال لأية أمة هو (المادة الرمادية)، ووزنها كيلوجرام ونصف، ولا علاقة لها باليورانيوم.

هذه المادة هي التي صنعت المعجزة الاقتصادية الألمانية. فمع نهاية الحرب العالمية الثانية كان ثلثا الصناعة الألمانية قد أبيد، وانخفض الإنتاج الزراعي إلى النصف. وحتى المنازل؛ فقد تهدم عشرون بالمئة منها. ومات ملايين الرجال. وقال بعضهم: إن ألمانيا ستتحول إلى مزرعة بطاطس.

صحيح أن الأمريكان سرقوا نصف علماء الألمان، وتركوا النصف الثاني كي يسرقه السوفييت. وصحيح أن عددًا كبيرًا من كبار مثقفي ألمانيا كانوا قد هاجروا أثناء حكم هتلر. ولكن الشعب متعلم. في أدمغة الألمان -في تلك المادة الهلامية في الدماغ التي يسمونها المادة الرمادية- كان هناك علم وثقافة. بعد عشر سنوات من هزيمة ألمانيا في الحرب عرف العالم مصطلحًا جديدًا هو: المعجزة الاقتصادية الألمانية. فقط عشر سنوات وعادت مرسيدس بموديلات جديدة.

النفط قد يكون لدول الخليج أحسن مما كان القطن لمصر. ليس فقط لأن القطن مبتلى بالكتان والنايلون والدودة، بل لأن سكان الخليج قليلو العدد، وسيعيشون على استثماراتهم بعد نضوب النفط ألف سنة. فلا خوف عليهم.

طريق مصر هو طريق كوريا الجنوبية: التعليم الحقيقي فالتصنيع.

لا لوم على دول الخليج أن يكون التعليم فيها سطحيًا. فهي تعلِّم أبناءها بعض العلوم الإدارية ليديروا الأجانب الذين يشكلون نحو ثلثي السكان. فأما الطب فيمكن استيراده، ويمكن تصدير المرضى الخليجيين إلى لندن. وقِس على ذلك.

غير أن مصر بحاجة إلى استثمار هائل في التعليم الحقِّ. ليس كالتعليم الذي كان قبل ثورة يوليو، فذلك كان مقصورًا على فئة صغيرة. وليس كالفورة التعليمية في عهد عبد الناصر فتلك كانت محو أمية للجماهير. المطلوب تعليم حقيقي وعميق، وباللغة العربية.

ولماذا باللغة العربية؟ لأننا بها نفكر، ولا حاجة بنا إلى إنفاق نصف الوقت في تهجئة الكلمات الإنجليزية قبل أن نخوض في العلم نفسه. الكوريون يتعلمون كل شيء بالكورية، والألمان بالألمانية. والمدارس والجامعات المستوردة عندنا لا تخرِّج متعلمين بل سماسرة نحشو بهم مكاتب الاستيراد والتصدير.

لا لوم على العربي إن فقد ثقته بنفسه، فقد جرَّب أن ينهض عدة مرات، وفشل. ولكن مصر هي الأمل. والمصري ذكي ولمَّاح وسريع الفهم، ووثَّاب إلى تفكيك الأفكار وتركيبها. ليس لشيء في الجينات، فلا فضل لشعب على شعب، ولكن لأن المجتمع المصري حيوي وكبير ومتنوع، ومشحون بالثقافة والفن والفكر.

المصري مسنود بتاريخ طويل، وتقلبت عليه الدول والظروف، وهذا يعطيه حذقًا وثقةً. وعندي ثقة أن مصر ستنهض، وأن البداية قريبة، ولا أقول: وشيكة. مجرد إحساس.

ذاكرة الحمار

مشكلة الحمار أنه ينسى. يقول العلماء: ليس عنده «ذاكرة القصة»، أي أنه لا يتذكر الوقائع بشكل تاريخ، بل يخزن تجاربه على هيئة نبضات غريزية. ومن هنا سوَّغ البشر أخذ الجدي من أمه العنز لذبحه بأنها ستنسى ذلك.

وأما نحن فعندنا ذاكرة تاريخية، وهي وبال علينا، فنحن نتذكر موتانا، ونتذكر موتنا المقبل. ولكننا في هذا الأمر درجات.

هذا إنسان يأكل ويشرب ويفكر تفكيرًا محدودًا، ويذهب للمقبرة مع الذاهبين لدفن أخ أو أب، ثم يعود إلى البيت مع العائدين كي يلتهم من الوضيمة،أي الطعام الذي يُقدَّم إلى أهل المتوفى، المبشِم المتخِم، وإن كان صاحبنا نابلسيًّا فسيلتهم بعدها الكنافة. فمن حسن نظر النابلسيين أنهم يأكلون على روح أمواتهم مقادير هائلة من فاكهتهم المشهورة.

وثمة من البشر إنسان شديد الحساسية، يقضي حياته وهو يفكر في الموت، فيعيش مكروبًا. ومن أمثلة هذا النوع كبار شعرائنا كأبي العلاء وأبي العتاهية وأحمد شوقي.

وللشعب ذاكرته التاريخية. والشعب الراقي ذاكرته التاريخية أقوى من ذاكرة الهمج... ربما لأنه يستعين بالتدوين. ذاكرة الشعب العربي قوية. وهي ذات انفساح زمني طويل. والأمة الإسلامية ذات ذاكرة تاريخية قوية وطويلة الأمد.

لكـن قـوة الذاكـرة ليسـت كل شـيء. ما نفـعُ الذاكـرة إذا كانـت مليئة بالخرافـات؟ ومـا نفـع الذاكـرة إن كانـت تحتـوي على أشـياء لـم تحدث أصلًا؟

هذه شبيهة بذاكرة فاطمة.

وفاطمة امرأة قالت لصويحباتها: إنها تتذكر جدتها رحمها الله، وتتذكر عنهـا كذا وكـذا، وراحت تتكلم عـن جدتها كلامًا مفصلًا. ثم اكتشـفت، واكتشـفن، أن الجدة توفيت قبل مولـد فاطمة. ولـم تكن فاطمة كاذبة، بل كانت واهمة. فقد كانت تسـمع من أمها حكايات عن جدتها، وظنت أنها شهدت الأحداث.

ذاكرة الشـعب دليـل حضارة. وشـعبنا العربي محظـوظ بتاريخ طويل ومليء بالأحداث. ومحظوظ بذاكرة قوية. لكن ذاكرته مثل ذاكرة فاطمة.

المصيبة أننا لسنا في براءة فاطمة. نحن نزيف ذاكرتنا بوعي وبحرفية. وخير من ذاكرتنا أيضًا ذاكرة الحمار. فالحمار سعيد بنسيانه، ونحن نشقى بذاكرة ملوثة بالكذب.

فـإذا رأيتنـي – عزيزي القارئ – شـديد العزوف عـن ذلك المصطلح الشـائع فـي لغة المثقفيـن: «الذاكرة الفلسـطينية»، فأنت الآن تعلم سـبب عزوفي.

زهدي والأمة العربية

يبـدو أنني لـن أفلح في كتابة مقـال فكري دون أن ألوّثه بالتشـبيهات، وبالقصـص. وفـي النتيجة ينبـذ المثقفون مقالـي باعتباره شـبيهًا بدروس المدارس أو بالمواعظ. وأما الفلاسفة فقد يحتجُّون على قلة قدرتي على التجريـد، وعدم سـعيي إلى وضع أفكاري بشـكل مباشـر. ولعـل القارئ العادي يشعر بعد تورطه في المقال بأن حديثي ليس ذا أهمية لأنني أقص قصصًا وأخلطها بالأفكار خلطًا على طريقة لم يجدها مُتَّبعة عند المفكرين الجادين.

حتـى أُرضـي أكبـر عدد من الناس سـوف ألخص مقالي في سـطرين، وسأجعل هذين السطرين في بدايته: أي هنا.

التلخيص: الأمة العربية لا تستحق أرضها ولا مواردها الطبيعية؛ ولذا فقد بدأنا نشهد عملية سحب للأرض والموارد منها. وستعيش أجيال من العـرب سلسـلةً من المآسـي إلى أن يتحقـق الوضع الذي يتسـاوى فيه ما تملكه الأمة العربية من أرض وموارد مع استحقاقها لهذه الأرض ولتلك الموارد. انتهى التلخيص.

أما القصة فقصة رجل اسمه زهدي.

زهـدي مديـر تحرير جريدة مسـاء **الخيـر**. لقد عيَّنه في هـذا المنصب رئيسُ مجلس الإدارة السابق، ولـم يعترض أحد على التعيين. كان العمل فـي الجريـدة في تلك الفترة بسـيطًا، فالمقالات تأتي مـن كُتَّابها والتقارير

تأتي من المراسلين، والأخبار من الوكالات. ويتم بسهولة تجميع الجريدة من هذه العناصر. ولم يكن أحد يرى أن زهدي مقصِّر في واجباته. وقصة تعيين زهدي هي أن عمه اشترى نصف الجريدة، وفرضه على مجلس الإدارة. لكن مجلس الإدارة كان مسرورًا بالصفقة التي أنقذت الجريدة آنذاك من الإفلاس. ثم اكتشف مجلس الإدارة أن زهدي يملك مهارات طيبة في التعامل مع الموظفين.

والآن، وبعد مرور خمس وعشرين سنة، يتعامل زهدي مع الموظفين كأنهم أبناؤه. ويحل المشكلات بحيل نافعة، وهو لا يطرد أحدًا. يداري المهملين، ويراعي أقدمية الكهول الذين أنفقوا عمرهم في الجريدة.

لزهدي مكتب واسع، فيه أثاث فاخر من كنبات جلدية ولوحات أصلية. ومنضدته منجَّدة على الداير بجلد، ومرتبه كبير. والكل يعرف أنه لا يعرف من التحرير شيئًا سوى عبارة: هل نزل عندنا الخبر الفلاني؟ فإذا اطمأن إلى أن الخبر نزل فهو لا يعود يبالي بشيء. إنه ضعيف في الكتابة وفي الحسّ الصحافي، ولم يَرَ في حياته نماذج صحافية راقية. إنه يتعامل مع هذه الجريدة المسائية كأنها كيس بطاطا لا بد أن يمتلئ في ساعة معينة من النهار.

رغم حلاوة لسانه وسلاسته في التعامل، فإن زهدي كان صاحب نفخة. لم يكن ينسى أبدًا أنه من عائلة أبو البراغي. وهي عائلة قديمة في البلد، وقد زال ثراؤها وانمحق جاهها إلا قليلًا. كان يتيه على أبناء العائلات الأخرى حتى لو كانوا متعلمين تعليمًا جيدًا، وحتى لو كان عندهم من القدرات والخبرات أضعاف ما عنده. فالأهم عنده هو الأصل.

تغيَّرت الدنيا بالتدريج: صار في البلد جرائد كثيرة. اشتدت المنافسة. وصارت الجريدة التي لا تقدم للقارئ التحقيق الجريء والخبر الممتع الجديد الذي انفردت به تسقط. وفعلا بدأت **مساء الخير** تسقط مع دخول أول المنافسين الميدان. لم يفهم زهدي أن البلد ساحة مفتوحة للناس لكي يتنافسوا في تقديم الأجود، وأن البقاء للأصلح. ظل متمسكًا بتقاليد المهنة العتيقة، وبمفاهيمه عن النسب والحسب. وصار بالتدريج يشعر بالمرارة من الزمن الجديد، ومن «ناس آخر زمن».

ودارت الدنيا دورة كاملة؛ فجاء للجريدة مساهمون جدد وأنقذوها ماليًّا، وجاء مجلس إدارة جديد. ودخلت الحواسيب، وصار على المحرِّر أن يكتب قطعته على الحاسوب، وصار عليه أن يتعب أكثر كي يحقق الأسباق الصحفية. وتغيَّر شكل الدنيا داخل الجريدة. زحف جيل جديد. زحف أبناء الفقراء، الذين لا أمجاد عائلية تدعمهم، هجموا. وصار رئيس مجلس الإدارة الجديد يتخذ قرارات عجيبة، حسبما رآها زهدي. تم تعيين نائب لزهدي. وصار النائب هو صاحب القرار؛ لأنه مدعوم من رئيس مجلس الإدارة. وبدأت عملية سحب الصلاحيات الإدارية من زهدي. وفي مرحلة معينة شعر زهدي بوضوح بأن مجلس الإدارة يريد كفَّ يده عن العمل. وقاوم زهدي. حاول أن يجاري العصر قليلًا: أخذ ينزل إلى الشغل في يوم عطلته الأسبوعية لابسًا قميصًا، بلا ربطة عنق. وراح يعترض على كل قرار. بيد أن التحجيم استمر.

أكد له رئيس مجلس الإدارة أن مرتبه لن يُمَسَّ؛ لكن العلاوات أُلغيت، والزيادات جُمِّدت. وذات يوم جاء زهدي إلى مكتبه متأخرًا فوجد أشخاصًا في المكتب يقيسون الجدران. وعرف أن غرفته سيتم اقتطاع

جزء منها. جُن جنونه، وفتح النار، وقال كلامًا كثيرًا عن الوشاة والدسَّاسين. لكنه بصراحة لم يجرؤ على التعرض لمجلس الإدارة. المجلس ولي نعمته.

عندما صار مكتب زهدي صغيرًا غدا من الضروري التخلص من بعض الأثاث الفاخر. وتم سحب السيارة من زهدي. ولم يلتفت أحد إلى كلامه عن أمجاد عمه وثرواته التي أنقذت الجريدة ذات يوم. صار حديثه عن أمجاد عائلته موضع سخرية.

استطاع مجلس الإدارة الجديد أن يرفع المبيعات، وأن يوجد موارد إعلانية جديدة. ونهضت الجريدة، لكن زهدي ظل ينحدر. وظل ساخطًا. وفي النهاية قال له مجلس الإدارة: إن مرتبه كبير جدًّا، حتى بعد إيقاف العلاوات وتجميد الزيادات. وقالوا له أيضا: إن هناك عملية إعادة هيكلة، وإنهم يعرضون عليه منصب نائب رئيس شؤون الموظفين بمرتب يبلغ نصف مرتبه الحالي. طبعًا رضي زهدي. وتخلى عن مكتبه وعن منصبه، ولكنه ظل محافظًا على اعتزازه بعائلة أبو البراغي.

زهدي يعيش الآن هذه العيشة. (مسكين.. صح؟!) والأمة العربية تعيش عيشة مشابهة. هي تسير بخطى سريعة على طريق زهدي.

ملحوظتان:

الملحوظة الأولى: التشبيه له حدود، ولا ينطبق كل الانطباق؛ فزهدي ما كان ليتمكن من إصلاح نفسه، فهو فرد، وقد تجاوز الستين. ولكن الأمة العربية تستطيع أن تصنع لنفسها شيئًا. وقد يصبر القارئ بضعة أسطر حتى يسمع أفكارًا بشأن الحلول الممكنة.

الملحوظة الثانية: نحن هنا لا نتحدث عن الأمة العربية بلهجة من يراها كائنًا واحدًا لا يقبل التجزئة. ولا ننظر إليها بعين رومانسية. بل نراها كما هي: مجموعة شعوب وأقليات. نرى الشيعة والسُّنة والمسيحيين، ونرى الأكراد والأمازيغ، ونقدّر مشكلات العرب التي تتعلق بالهوية، وندرك التباغض فيما بين الشعوب العربية، وأكاذيب الزعماء في مؤتمرات القمة عن التضامن العربي مكشوفة. لهجتنا ليست لهجة من ينعى على الأمة العربية تقاعسها، ولا من يشتمها جلدًا للذات. نحن هنا نخوض عملية تشخيص. ومن حق المريض ألا نلومه على مرضه.

رغم ما ندركه من فساد فكرة «أن الأمة العربية جسم واحد ذو مصير واحد»، فإننا نشعر بأن ما يشد الدول العربية، بعضها إلى بعض، قوي. وندرك أن المصير قد لا يكون واحدًا، ولكن مصائر شعوب هذه الأمة متشابهة، ومشكلاتها متشابهة. وندرك أهمية الروابط التي حدَّثنا عنها معلِّم الجغرافيا: الدين والامتداد الجغرافي والتاريخ المشترك... إلخ.

مشكلة داخلية: قبل التعرض إلى الزحف الآتي من الغرب، والذي سيأتي من الشرق أيضًا، هناك مطامع فيما بين الدول العربية نفسها. وهي طبيعية؛ فكل جار يطمع في الاستيلاء ولو على شبر من أرض جاره. هذا شيءٌ في طبيعة الأشياء كلها: الحية والجامدة. ألا ترى البحر يأكل من اليابسة، واليابسة تطغى على البحر؟ والغابة تهجم على الصحراء، والِصحراء تهجم على الغابة؟ بغزو صدام الكويت أصابت العرب هزة، وأفاقوا على حقيقة وجود مطامع بينيَّة، إضافة إلى المطامع الخارجية. منذ سنوات كثيرة جعل العرب هدف الجامعة العربية المحافظة على خطوط الحدود فيما بينهم، ومع غزو صدام للكويت تلقى الدور المركزي

للجامعة ضربة. لكن غزو الكويت كان ضربة سكران. والواقع أن الدول العربية هي أشبه بجماعة من السكارى الذين يعربدون على بعضهم بعضًا، دون أن يتمكن أي منهم من إلحاق أذى كبير بأي من الآخرين لشدة الوهن. وفي حالة ذلك الغزو كانت ضربة السكران موجعة، ولكن السكارى الآخرين تدخلوا، وأماطوا الأذى بمعونة الشرطي. كان غزو الكويت مفصلًا مهمًّا: لقد زرع في نفوس العرب شكًّا جديدًا في العلاقة الخاصة التي تربطهم. وصار الكويتي يرى أن الدول العربية الأخرى ليست الحليف الطبيعي. بل إن الحليف هو من يستطيع حماية استقلالنا كائنًا هذا الحليف من كان. ورأت دول عربية أخرى هذا الرأي.

ومع ذلك لا يُنتظر أن يكون احتلال الكويت نذيرًا بأشياء مشابهة. بل إن حصوله وانتقاضه يبشر بألا تصل الخلافات مجددًا إلى هذه الدرجة من التعدي. ولكن جماعة السكارى يجب أن تصحو قبل أن يخسر كلُّ واحد منهم الكثير. سيخسر السكارى معاطفهم ومحفظاتهم على أيدي اللصوص، ثم سيخسرون أموالهم على أيدي الشرطة التي تفرض الغرامات.

وسواء أتضامن السكارى أم دبَّت الفُرقة في صفوفهم، فهم يظلون سكارى وضعافًا، ولا يفتأون يتمايلون في مِشيتهم ولا يثبتون للمعتدي الخارجي. ومن هنا فإن حكاية التضامن العربي ليست مهمة جدًّا مع استمرار حالة التخلف وعدم الواقعية.

نحن والعالم: الأرض لله، وليست لأحد. والشعوب تتعاقب على الأرض الواحدة. والشعب الذي يحتل أرضًا يجب أن يقدم باستمرار

البراهين على أنه يستحقها. وإلا فسوف يأتي الغزو الخارجي في شكل عساكر أو في شكل مندوبي شركات كبرى، أو في شكل استعباد للشعب بتوريطه في نمط استهلاكي ما.

لم ينجح القانون الدولي في استعادة شبر من أرض فلسطين، ولن ينجح؛ فالقانون الطبيعي أقوى. وحتى يحقق الفلسطيني ما يريد تحقيقه على ما تبقى من أرضه عليه أن ينسجم مع قانون الغاب، وأن يصبح قويًّا بما يكفي لإثبات استحقاقه. ولا نعني بالضرورة أن يصبح الفلسطينيون أقوى من إسرائيل. لم نقل ذلك. ولا نريد من أحد أن يصل بفكره إلى هذه الدرجة من تبسيط الأمور تبسيطًا يضيع معالم الحقيقة. فالغاب نفسه يعيش فيه الأسد والغزال. ولكل كائن مهاراته التي بها يحافظ على وجوده كنوع وكأفراد. فرنسا تستطيع احتلال سويسرا في يوم واحد، ولكنها تتعايش معها. وقد نصل إلى صيغة مشابهة مع إسرائيل.

وقبل أن ننصرف عن المثال الفلسطيني، نحب أن ننوه إلى أن إسرائيل، رغم تفوقها في القوة، تستعين بثوب أيديولوجي تستمد منه حقًّا إلهيًّا في الأرض. والرد على هذا الثوب الأيديولوجي يأتي من جانب الفلسطينيين في صورة ارتداء ثوب مماثل. فهم يقولون: إن الأرض لهم، وقد سكنها أجدادُهم قبل قدامى العبرانيين. لا بأس بهذه التمرينات التافهة من كلا الجانبين. لكن الصراع ليس أيديولوجيًّا. إنه حقيقي: حدث غزو ناجح، وسُلِبَت أرضٌ، وجاء شعب غريب. كان الغزو مؤلمًا لأنه لم يكن تدريجيًّا، ليس غزوًا اقتصاديًّا أو ثقافيًّا. غزو اليهود لفلسطين له خصوصية؛ فهو طعنة من طعنات العصور الوسطى في خاصرة العالم المعاصر، غزو مدبر. ونستبعد أن تتعرض الشعوب العربية لغزو مشابه.

الأمة العربية كلها مُعرَّضةٌ لأشكال أخرى من الغزو. وقد آن أن يتم تحليل الغزو الخارجي بتجرد أكبر وباعتباره ظاهرة طبيعية في العلاقات البشرية.

كل شعب ضعيف مُعَرَّضٌ للعبودية من جانب الشعوب الأقوى. وعبودية العرب للغرب ليست شيئًا جديدًا، وسوف تستمر. لكنها ليست كارثة. إنها مشكلة نسبية. فإنجلترا تحس الآن بإحساس عبودي تجاه أمريكا. إنها تركض وراء أمريكا وهي تعوي. وتنال نصيبًا صغيرًا في سوق العطاءات والتجارة في العالم مقابل الولاء. كل دولة في العالم تتمتع، إن صحَّ استعمال هذه الكلمة، بعلاقات (عبودية واستعباد) مع الدول الأخرى.

فأين موقع الدول العربية في خريطة العبودية هذه؟ الدول العربية تملك مساحة واسعة من الأرض. وهي مطموع فيها وفي خيراتها. والأرض لله، ومن لا يقدم باستمرار شهادات تثبت جدارته بأرضه فَقَدَ بعضها، أو فَقَدَ السيطرة عليها.

الأمة العربية قد تفقد الكثير، مثلما فقد زهدي، بسبب تحجرها ورجعيتها. إنها لا تتعلم المهارات الملائمة للعصر، ولا تصحو على الواقع، ولا تعترف بقانون الطبيعة. إنها مثل زهدي تفتخر بعظام الأجداد وترفض الإقرار بأن المقاييس اختلفت. ولكن فرصتها أحسن من فرصة زهدي لأنه كان فردًا عجز عن التأقلم مع الواقع بحكم التقدم في السن. أما الأمة، أي أمة، فهي لا تشيخ بنفس الطريقة. على أن الأمة تشبه الفرد في مسألة التحجر الفكري. والأمة العربية بلغت الذروة وصارت تصلح أنموذجًا تاريخيًا للتحجر الفكري.

الحل: الحلول كامنة في التحليل السابق، ولكن وضع عنوان كهذا يطمئن القارئ إلى أننا نسعى سعيًا حقيقيًّا لرؤية المَخرج.

الجامعة العربية ليست شيئًا سيئًا. لا تشتموها. ما كانت لتعيش ستين سنة لولا وجود فائدة منها. وهي، حتى بشكلها الحالي، مخلوق نافع. ونفوس العرب وعواطفهم ولغتهم وتاريخهم... إلخ، كلها أمور مهمة حقًّا، وتعني أن زيادة التعاون بينهم ستقويهم.

فإذا كان تطور العلاقات الاقتصادية فيما بين العرب من شأنه أن يقويهم، فلماذا لا تقوم هذه العلاقات غدًا؟ أليس من البديهي أن المرء يطلب النفع لنفسه؟ أليس من الطبيعي في قانون الغاب وفي كل قانون أن يتكاتف الأشباه والنظراء إذا كان في تكاتفهم دفع للأذى عن كل فرد منهم؟

المقولة التي تقتضي بحثًا هنا هي مقولة السمسرة. أو مقولة الاتصال مع الأجنبي كما حدث في الأندلس أيام ضعف الدويلات العربية.

عندما يبدأ الانهيار البطيء يصبح ثمن الخيانة أعلى من مردود الوفاء.

انظر فقط إلى من يحرصون الحرص كله على تثقيف أولادهم باللغات الأوروبية. قد بلغ بكثيرين منهم الأمر إلى أن يرسلوا زوجاتهم إلى كندا والولايات المتحدة ليضعن المواليد هناك من أجل جواز السفر. وما إن يبلغ الولد أشدَّه حتى يذهب إلى كندا ليتعلم. ويعود ليصبح سمسارًا للغرب في بلاد العرب. يشتغل في التجارة أو في المؤسسات الثقافية أو في أي شيء. وشغله ليس تنمية حقيقية للبلد، بل مساعدة للأجنبي في التغلغل واستدرار المنافع الاقتصادية. إذن فالفرد العربي قادر على

التخطيط، وقادر على رؤية المستقبل، وإعداد أولاده إعدادًا يدر عليهم المرتبات، أو العمولات العالية. لكنه يستخدم قدرته هذه في مجال السمسرة لصالح الغرب.

كان الاستعمار البريطاني يعلم عددًا من أهل البلاد المستعمرة لغته، وطريقة حياته، ويدربهم على اعتبار كل ما هو إنجليزي فائقًا، واعتبار كل ما هو عربي أو إسلامي شيئًا لطيفًا ولكنه غير ذي نفع... مجرد تراث.

تغلغل في النفوس شغفٌ بإتقان الإنجليزية في النطق، وتقليد أهلها، والسعي إلى التجويد في النطق وتصوير الأصوات تصويرًا ببغائيًا.

النافذون في مجتمعاتنا يسيرون في طريق الخيانة، بوصف الخيانة توظيف المرء نفسه مقابل ثمن في خدمة الأجنبي لكي يحقق الأجنبي مكاسب في أرض البلاد، لا ينتفع بها عموم أهل البلاد.

صراعنا مع الغرب
إلى متى؟

الغـزو طريقـة ممتـازة لدفـع الجـوع في الأوقـات الصعبة. وقد أسـبغ الشـعرُ الجاهليُّ أمجادًا على أناس كانـوا في الحقيقة لصوص إبل. وكان هـذا خيـر مـا يصنعونـه لعشـائرهم الجائعـة. كان الغـزو يجـر مناوشـات ضحاياها قليلة، وكان لهذا الداء دواء يتمثل في الدِّيَة أو الثأر أو الخضوع، أو عقد التحالفات. كانت بداوة الجاهلية منظومةً كاملةً من العلاقات.

نحـن العـرب نعيـش في مـكان يتوسـط العالم. وقـد كانت لنـا دولتُنا العظيمـة التـي أنتجت حضارة أصيلة جمعت بيـن علوم الفرس واليونان، وبفضـل هـذه الحضـارة نمـت اللغـة العربيـة وأصبحت من أغنـى لغات العالم، ولا تزال. وحرفُنا العربي ابن منطقتنا ابن الفينيقيين، وبهذا فهو أخ شـقيق للحرف اللاتينـي الذي أُخذ عن الفينيقيين أيضًـا، بل إن نظامنا في الكتابة هو عين النظام اللاتيني. هو كتابة الصوت لا المعنى.

دخلنا في التحام ثقافي حضاري مع الفرس والأتراك والبربر. ودخلنا فـي صـراع مع الغرب منذ معركة اليرموك. وكسـبنا كثيرًا، ثم كان الصراع مـع الغزاة الفرنجة فـي الحروب الصليبية صعبًا، كنـا أكثر منهم تحضرًا، وأقـل تلاحمًا، وفي النهاية تـم صدهم على أيدي العرب، وأعني بالعرب سـكان الأرض العربيـة مـن عـرب ومماليـك وأكـراد. وبعـد هـذا الصـد

البطولي الذي دام مئة وتسعين سنة تحوّلت القيادة بالتدريج إلى المسلمين في الأناضول، واستمر الصراع ففتحوا القسطنطينية عام ١٤٥٣م، في وقت كانت فيه الأندلس تتهاوى. وبعد أربعين سنة، أي في سنة ١٤٩٢م، سقطت غرناطة، آخر معاقل العرب في الأندلس. وفي هذه السنة نفسها عاد كولومبوس مظفرًا وقد اكتشف أمريكا، والتوافق في التاريخين يمكن إلباسه بعض المغزى لاحقًا.

استمر الصراع، وضمَّ الأتراك العالم العربي تحت لوائهم بسرعة، في مرج دابق ١٥١٦م، ثم بعد ثلاثة عشر عامًا كانوا يحاصرون ڤيينا في قلب أوروبا، ١٥٢٩م.

وصارع الأتراك ومعهم العرب أوروبا في البحر سنين طويلة، فقد اندفع الإسبان والإيطاليون والفرنسيون نحو شواطئ الجزائر وتونس بعد سقوط الأندلس، وأنشأوا مستعمرات شاطئية، دفعها العرب بقوة وبنجاح بمعونة عثمانية مهمة، وما زالت سبتة ومليلة دليلًا على هذه المستعمرات الشاطئية.

نعود إلى مغزى عثور الأوروبيين على أمريكا. في وقت كان فيه الصراع بين الشرق والغرب على أشده، وجدت الطاقةُ المحاربةُ عند الأوروبيين تنفيسًا لها في أقصى الغرب، في قارتين جديدتين، وقد استمدت أوروبا من الأرض الجديدة ثروةً وعزةً وانطلاقًا، وسنَّت أسنانها بوحشية على أناس عدَّتهم أنصاف بشر. وبسرعة بدأ الميزان يميل ضد العثمانيين.

لكن أوروبا صنعت أشياء أخرى. في هذه السنوات، أوائل القرن السادس عشر الميلادي، بدأت حركة الإصلاح الديني في أوروبا. كان

لوثر المصلح الشهير متدينًا بقوة، وأكثر تشددًا من البابا، لكنه شقَّ الكنيسة، وكسر التفسير الأحادي للدين. وكان أتباعه في ألمانيا ثم في إنجلترا متشددين دينيًّا. لكن المجال الأوروبي قد غدا مستعدًّا لتقبُّل العلم. ليس بسهولة، ففي عصر لوثر قال كوبرنيكوس: «إن الأرض تدور حول الشمس» ولقيت نظريتُه رفضًا شديدًا من البابا، ونجّاه من العقاب أنه مات بعد نشر كتابه الشهير بأيام. لكن غاليليو، بعده بسنوات قليلة، تعرَّض للمحاكمة ثم للإقامة الجبرية مدى الحياة.

واستمر صراع الشرق والغرب. والذي حمى الدولة العثمانية الذابلة الصراعُ فيما بين دول أوروبا على تَرِكتها، فارتضى الأوروبيون أن يبقوا «الرجل المريض» في غرفة الإنعاش مائتي سنة، وراحوا ينهشون أطرافه. فلما اشتد الصراع فيما بينهم قامت الحرب العالمية الأولى، تحالف الألمان فيها مع الأتراك وخسروا جميعًا، وقسَّم الحلفاءُ الشرقَ كلَّه فيما بينهم، وتركوا لتركيا ما استطاع أتاتورك أن يحافظ عليه، وهو تركيا التي نعرفها اليوم.

وبقي الصراع. فقبيل انتهاء الحرب العالمية الأولى طالب الحسين بن علي بمملكة تضم كل العرب في آسيا العربية. وفشل، واستعمر الأوروبيون المظفرون كل العالم العربي، وقسَّموه فيما بينهم، فهذه سايكس بيكو المشهورة، والمغارب استُعمرت قبلئذ. وزرعوا بذرة لدولة إسرائيل ستنبت بعد ثلاثين سنة. وقاوم العرب، وخضعوا، ثم قاوموا مرة أخرى، قاوموا باسم العروبة حينًا، وباسم الإسلام حينًا آخر. ثم بدأ الاستعمار ينحسر بعد الحرب العالمية الثانية. واستقل العرب، ونجح الاتجاه القومي في أن ينسب لنفسه «التحرر» من الاستعمار. ربما من

المهم التأكيد على أن الاستعمار انحسر وحده، وقرر المستعمرون أن يمتصوا خيرات العالم العربي بطرق مختلفة.

حَكَمَ الاتجاهُ القوميُّ، وحققت أنظمته قدرًا من التنمية، ومن التعليم، وتميزت بقدر من الفساد كبير، وبقدر من الضحالة. ولئن كان عدد كبير من رواد الاتجاه القومي مخلصين في مشاريعهم، وفي أحلامهم، فقد خَلفهم خَلفٌ طالح خضع للغرب أكثر، وباشر في بيع خيرات بلاده ومشاريع بلاده ومواقف بلاده السياسية بيعًا رخيصًا للغرب مقابل أموال ينهبها الحكامُ ومن حولهم من كبار التجار والمقاولين، وكان قدر كبير من هذه الأموال، التافهة أصلًا، يُحَوَّل إلى خزائن سويسرا أولًا بأول.

في فترة انكشاف فشل الأنظمة القومية، في السبعينيات، برز الإسلام السياسي؛ حيث طرح نفسه بديلًا، وكان على رأس أجندته استكمال الصراع مع الغرب. وكانت كلمة «الصليبية» من أحب الكلمات إلى قلوب الإسلاميين.

فهل عند الإسلام السياسي خُطَّةٌ حقيقيةٌ للصراع؟ أم هل عنده توجه نحو إنهاء هذا الصراع الممل؟ صراع يستمر ألف سنة هو بالتأكيد صراع بليد وممل.

العقيدة ليست أداة من أدوات الصراع. وإنما تحقِّق إيران النجاحات الاقتصادية والتقنية الآن؛ لأن تحت عمائم حكَّامها تدبيرًا سياسيًّا، ولأنهم ينظرون إلى الأمام. وحققت ماليزيا التقدم لأن مهاتير محمد وضع عقيدته في قلبه وفتح المجال واسعًا لكل الماليزيين، وفيهم كثرة فاعلة من البوذيين (المسلمون ٦١٪)، ولأنه نظر إلى الأمام.

مشكلة الإسلام السياسي «العربي» أنه رجوعي. لن نخلط بين اتجاه الإخوان المسلمين الأقرب إلى السياسة، واتجاه الحركات المتشددة العُنفيَّة. غير أنهما يشتركان في السَّير بلا خطة جديدة، مكتفين بالخطة التي وضعها الخلفاء الراشدون.

من العبث أن تتقدَّم أي أمة اليوم، وهي ترفض كل جديد. ومن هذا الجديد طريقة الحياة الأمريكية. هذه الطريقة تتخذ لها من المظاهر الموبايل والسيارة والإنترنت. فمن لم ير فيها سوى ماكدونالد والجينز فقد رأى القشرة. طريقة الحياة الأمريكية هي في الواقع طريقة الإنتاج بالجملة والاستهلاك بالجملة. وقد فرضها الأمريكيون على كل العالم.

عندما زرت موسكو في عهد غورباتشوف لفت نظري بشدة في دكان للأطعمة ثلاث موظفات واقفات بلباسهن الأبيض النظيف، ووراءهن أرفف كثيرة عليها علبة نقانق لا تشبع قطة. وزرت محلات غوم الضخمة قرب الساحة الحمراء، ورأيت البضائع الرخيصة الرديئة. انتهى هذا كله، وحلَّ بالروس ما حل بغيرهم من حمى الاستهلاك. ودخلت روسيا العصر الأمريكي. والصين دخلت، والعالم كله يدخل. ولا بد لمن يريد أن يعيش في العالم من أن يعيش مثل العالم.

حَسَنٌ في زمن العولمة أن يحافظ المرء على موروثاته الثقافية. وأحسن من ذلك أن يتمسك من هذه الموروثات بما هو مفيد حقًّا. لغتنا العربية المتطورة الغنية هي أداتنا لإيصال العلم لأبنائنا. ونحن نصرُّ على تَعليمهم بالإنجليزية. وهذا أسخف شيء نصنعه.

ومن موروثاتنا عقلية الغزو. للأسف، هذا النمط الجاهلي الناجح لا ينفعنا اليوم. التاجر العربي غازٍ نهَّاب، والمقاول غازٍ غشَّاش، والحُكَّام

غزاة، والسبَّاك غازٍ، وسائق التاكسي غازٍ. هل رأيت سائقي التاكسي في طول هذا العالم العربي وعرضه كيف يَشغلون فكرهم وفكرك في احتلاب مالك بأي طريقة؟! نفكر في اقتناص المال من أهون الطرق، لا نحب العدَّاد في التاكسي، ونحب أن ننفق الوقت والأعصاب في المساومة الرخيصة التافهة. عقلية الغزو لن تدفعنا إلى الأمام.

النماذج النهوضية في العالم الحديث عديدة. لندرس كوريا الجنوبية، وماليزيا، واليابان، وتركيا، وإيران. لقد نجح أتاتورك؛ لأنه أعاد الدين إلى المسجد، وينجح أردوغان لأنه يوافق على ذلك رغم تدينه. ونجح آيات الله في إيران؛ لأن أمريكا حاربتهم ثماني سنوات بيد صدام حسين. لقد دخلوا الحكم باندفاعة دينية كبيرة كانت تنذر بسوء العاقبة، ولكن هذه الحرب الطويلة التي فُرِضَت عليهم أعادتهم إلى الواقع بقوة، وأجبرتهم على الدخول في نفق السياسة والحرب، واستمروا على ذلك رغم العمائم التي لم تفارق الرؤوس.

نهاية الحروب الصليبية

لم تصل الحروب الصليبية إلى نهايتها بعد. الاحتكاك الإسلامي المسيحي مستمر وبأشكال عدة. وفي عالمنا اليوم ما زال يوجد في الشرق مسيحيون، ويتزايد في الغرب عدد المسلمين. والاحتكاك مستمر.

لا ينسى المسيحيون أن الإسلام حوَّل كنائس كثيرة إلى مساجد. في كل مدينة كبيرة يوجد شيء من ذلك. في القدس وفي غزة وفي دمشق والقاهرة وفي إسطنبول. هذا مفهوم لأن الإسلام جاء بعد المسيحية ودخل معها في عراك، وامتد على رقعة كبيرة كان جزءٌ منها مسيحيًّا. ولا يعجبني الإسرافُ من جانب المسلمين في الشحن العاطفي بشأن تحويل المساجد إلى كنائس في إسبانيا. لا يعجبني لأنه يغفل الجانب الآخر من المعادلة. ولا يعجبني الموقفُ المهادنُ من قبل مسيحيي المشرق، فهذا – وإن كان يدل على حسن الخلق في مجاملة الجيران المسلمين – لا يغطي على المشاعر الحقيقية. وبالطبع لا يعجبني التوجه الصليبي لدى بعض متعصبي الغرب سواء أكان مغلفًا بغلاف علماني كتوجه السيدين بوش وبلير، أم كان عنصريًّا فجًّا كموقف من يدنسون المساجد ويحرقون القرآن.

لعلك تسأل: فما الذي يعجبك رعاك الله؟ يعجبني أن نعيش بسلام، وأن نصل بالحرب الصليبية إلى نهايتها حقًّا. هناك في أوروبا نزعة طيبة وقوية تقول: إن دين المرء شأنٌ خاصٌّ به. ونرى المسلمين في النمسا

وألمانيا وكل أوروبا الغربية يعيشـون ويتعايشـون ويتكاثرون. هذه النزعة تقابلهـا نزعـة عنصريـة واضحـة لـدى جماعات متشـددة عندهـم. ولكن التوجـه العـام هـو الرغبة فـي التعايش، والدليـل على ذلـك أن الأحزاب العنصرية لا تحقق سوى القليل في الانتخابات عندهم.

بالنسبة لنا الأمر مختلف؛ فالمسيحيون عندنا في لبنان وسوريا ومصر هـم أهـل البـلاد، ولم يأتـوا فـي العقود الأخيـرة، مثـل المسـلمين الذين هاجـروا إلـى أوروبا حديثًا. وعلينـا أن ندرك أن التاريخ الإسـلامي مليءٌ بالقرارات التي أكدت على عزل المسيحيين؛ فمن ذلك مثلًا فرض لباس مختلف عليهم، وقرار أن ينزل المسيحي عن دابته لدى مروره بالمسلمين، وقرارات تحديد بناء الكنائس.

نعم، هناك شعور قوي لدى المتعصبين من المسلمين بأن من الأفضل أن يتآكل الوجود المسيحي لكي تكون البلاد خالصة للإسلام. هذا شعور فيه من السذاجة شيءٌ كثيرٌ.

نهضة تأبى النهوض

ما أنا بحالم؛ لذلك جفوتُ جبران خليل جبران. كان موقفي منه موقف جدي من الجوافا؛ فقد سألتُه يومًا: «هل تحب الجوافا؟» فقال: «نغابت ونحضرت»، يعني بالفصحى: «سواء عليَّ أغابت أم حضرت».

ثم فاجأني جبران بمقال له قرأته قبل يومين.

في عام ١٩٢٣ طلبت **مجلة الهلال** من كبار أدباء العرب في مصر وخارجها أن يقولوا رأيهم في النهضة المباركة (وكانت مصر سنتئذ تدشن دستورًا وبرلمانًا قال فيه شوقي: دارُ النيابة قد صُفَّت أرائكُها/ لا تُجلسوا فوقها الأحجارَ والخُشُبَا)، وجاء مقال جبران جارفًا: عن أي نهضة تتحدَّثون؟ نحن نقلد فقط، ونحسب الإسفنجة التي امتصت بعض الماء نبعًا. لدينا مقدرة على الاقتباس السطحي لا غير، ونحن ننظر بمكبرات الجهالة فنرى النملة فيلًا. الاستعمار قادم وبشع. ويجب التمسك بحضارتنا بدلًا من استيراد البضائع والأفكار دون أن نصنع شيئًا بأنفسنا. وتافهون أولئك الذين يرسلون أبناءهم للمعاهد الأجنبية، ويتجملون بالاستماع إلى الموسيقى الأوروبية التي لا تعبر عن مكنون نفوسهم. اهـ التلخيص المخل عن جبران.

ذلك الكتاب متاح على الإنترنت، واسمه **فتاوى كبار الأدباء**. وقد ذكَّرني بكتاب آخر كنتُ محرِّرَه.

هذا الكتاب الثاني اسـمه شـاهد على المستقبل. وحكايته أنني فكرتُ قبل ست سنوات في استنطاق خمسين شخصية فلسطينية من وزراء وأدباء ونشطاء ونسـاء، وكل ما ينتهي بهمزة مزيدة، عن مستقبل فلسطين وسُلطتها. وبالفعل تم إجراء خمسين مقابلة مسجلة. (أجرى المقابلات وليد العمري ونبيل الخطيب).

وقد ذيَّلتُ الكتاب بمؤخرة جاء فيها: «أردناهم أن يرسموا صورةً للمستقبل، وأعطيناهم علبة ألوان زاهية. فغمسوا فراشيهم في برميل زفت، ورسموا لوحة بعرض (الجدار) للماضي الأسود والحاضر الأشد سوادًا. كأنما قالت الشخصيات الخمسون: ليس عندنا تصور للمستقل».

أهل الرأي في بلادنا يخافون من تصور المستقبل خوفَ الصبيّ من دخول غرفة معتمة. وفي اعتقادي أن المستقبل مظلم حقًّا. لا مستقبل لنا، خذوها من قصيرها. المستقبل في بناء الذات لا في هدم الآخر.

منظمة التجارة الدولية ومعاهدة الجات، وصندوق النقد الدولي والبنك الدولي، هذه هياكل دولية هشة نقف إزاءها وقفة المتهيِّب. لقد أسسوها لمنفعتهم، ونحن دخلنا الحظيرة كالقطيع. مقابل ماذا؟ مقابل مساعدات تافهة. ممنوع أن ندعم سعر الرغيف، وممنوع أن نفرض الجمارك إلا بقدر. هل سننتظر حتى تتأفف الدول الغنية من شروط الجات حتى نتأفف نحن؟ حسنًا! فقد تأففت الدول الغربية، فتفضلوا تأففوا.

إن السماح بدخول كل أحذية الصين وفوانيسها إلى أسواقنا بلا حماية جمركية يلغي مصانعنا، ويُفقدنا المهارات الصناعية، ويخرب اقتصادنا. وإلغاء الجمارك على الحلوى الأجنبية يجعل المسعدين يدمنون على

الشوكولاطة السويسرية، ويناضلون في سبيل الاستمرار في استراطها.. مطرح ما يسري! ولكي يخدموا حلمات التذوق في أفواههم يبيع الأغنياء البلد بالمفرَّق.

قدَّم ديغول أمثولة في الاستقلال الاقتصادي. كان رائدًا للحمائية، وانصاع له العالمُ الرأسماليُّ غصبًا. حارب ديغول طفيلية البورصة، وتهريب الأموال إلى موناكو، وجعل الأمير رينيه يركع على ركبتيه ويغلق الباب أمام المليونيرين الفرنسيين الفارين. وأخذت الضرائب والجمارك تتدفق على خزينة الدولة، واستُعملت في توجيه الاقتصاد القومي وبناء الصناعة والتعليم. وأضاف ديغول إلى ذلك نبرة الاعتزاز القومي. لا، بل إن هذه النبرة كانت عنصرًا تكوينيًّا في سياسته الاقتصادية. فهو لم يكن مستخذيًا أمام واشنطن المتفضلة بمشروع مارشال. كان ابن الأمة ورئيسها فعمل خادمًا لشعبه وليس وكيلًا لأغنيائه.

مشايخ التكفير والحسبة عندنا أخذوا بمبدأ «اعمل لآخرتك»، ونسوا «اعمل لدنياك»، وتركوا الأغنياء ووكلاءهم (أي الحكومات) يسرحون. وبما أن العمل للآخرة مسألة فردية فهو ليس المشكلة. وأما العمل للدنيا فشأن آخر.

النهضة المقبلة -إن كانت ستُقبل- سيكون فيها حماية جمركية لمصانعنا وبضائعنا، وسيكون فيها اعتزاز وطني وعدم استخذاء أمام واشنطن، وسيكون فيها صناعة وزراعة متطورة، ولا بد أن يركع المستثمرون من أصحاب المنتجعات السياحية على رُكبهم، وأن يعطسوا ضرائب باهظة تذهب لتطوير البلاد.

شيء عن المستقبل

العائدون

العائدون، كبارًا وصغارًا، يبلغ عددهم في الضفة وغزة نحو مئة ألف. أي ثلاثة بالمئة: كعدد المسيحيين. وحرام على الصحفيين أن يكتبوا عن كلا الفريقين. وكثير من الصحفيين هم من العائدين. والكل يفضّل الصمت.

أريد الكلام في هذه المرة عن العائدين، وفي المرة القادمة عن المسيحيين. هذا إن كانت ستكون مرة قادمة، وإذا لم يفترسني المجتمعُ.

يشجعني على الكتابة في هذا الموضوع المحرم شيئان وشيء. أما الشيئان فهما أن مجتمع الضفة وغزة انتخب العائد أبو مازن بنسبة ٦٢٪، وأثبت بذلك أنه ينظر إلى مسألة «العائد والمقيم» نظرته إلى المهاجر والأنصاري. فالمهاجر يضطلع بدور سياسي والأنصاري يرفده اقتصاديًا ويحتضن دوره. والشيء الثاني من الشيئين: أنني عرفتُ العائدين، ولمستُ بقلب مُحِبٍّ عمق انتمائهم إلى فلسطين. أما الشيء المنفصل عن الشيئين فهو أن هدفي من الكتابة تطوير دور العائدين، وإخراج هذا الدور من ظلمة الصمت.

الواسطة عند العائدين أسلوب حياة، وقد ورثوا هذا الأسلوب من الشتات؛ لأنهم عايشوا مجتمعات غريبة عنهم، وكانوا يعملون على تسليك مصالحهم بالتعاضد.

وعندما عادوا للوطن وجدوا أنفسهم أقلية ذات دور معين: أقلية ليس لها أملاك. فلم يكن لهذه الأقلية بدٌّ من تأمين دخل عن طريق الوظيفة. وقد نجحت وظائف السلطة في تأمين عيش كريم لكثير من العائدين، ورسخت أقدامهم في الوطن. وبدأوا يوجِّهون أبناءهم نحو المهن الحرة. لكن بعضهم يتوهم أن وظائف السلطة شيءٌ حقيقي ودائم، ويريد توريثها للأبناء.

الإصلاح الوظيفي قريب، وقد قطعت عملية اندماج العائدين في المجتمع معظم المسافة. لكنني أظن أن كوادر المنظمة ستحتفظ بالقرار السياسي مدةً من الزمن. وهم يملكون الخبرة والأطر الملائمة.

تطوير دور العائدين كمجموعة موظفين وكقيادة سياسية يتم باضمحلاله. فالدمقرطة (التي قد تستمر في مجتمعنا)، ودخول حماس المجلس التشريعي (وهذا أمر محتمل) يقللان فرصة وجود طبقة موظفين متكلِّسة في البلد. لكن كثيرين من العائدين يقفون في وجه الدمقرطة؛ تشبثًا بدور تجاوزته الأحداثُ[١].

(١) نُشر هذا المقال عام ٢٠٠٥، وجاءتني بسببه بعضُ التهديدات.

الإسلام السياسي لن يفتح القفل

ما العلاقة بين كتاب **قل ولا تقل**، وبين ستالين، وبين «الإسلام السياسي»؟

في كتابه المشهور يمنع مصطفى جواد النساء من الزغاريد؛ فالزغردة للبعران: الجمال الذكور لا غير. الكتاب بجزأيه يسعى بجهد كبير (مستندًا إلى معرفة عميقة بماضي لغة العرب) إلى قهقرة الزمن. يريد أن يصبَّ فوق رأس اللغة العربية الأسمنت حتى لا يغيِّر فيها أحدٌ شيئًا. وقد صدرت عشراتُ الكتب المشابهة التي تسعى إلى تخليد القديم. ولا سبيل. اللغة ماضية في سبيلها تتطور وتتغير. اللغة لا تسمع الكلام، هي طفل شقي.

وستالين!

قد ورث ستالين عن آبائه في الفكر الماركسي نظريات، (وهي نظريات لها من الجمود نصيب). ولأن ستالين دكتاتور فقد صبَّ عليها الأسمنت. وبعد موته بقليل حاولوا إضفاء بعض المرونة على الفكر السياسي الماركسي في الاتحاد السوفييتي، لكن... ما تصنع الماشطة بالوجه الدميم!

فلماذا نجحت الرأسمالية؟ لا لم تنجح في صورتها الجامدة. فالرأسمالية المنفلتة من عقالها تم حقنها في ألمانيا، على يد بسمارك، بحقنة من الضمانات الاجتماعية التي ما زالت سارية حتى اليوم؛ والرأسمالية في بريطانيا لقيت تحديًا من الاشتراكيين الفابيين الذين

تمكنت ذراعهم السياسية «حزب العمال» من تسنُّم الحكم مرارًا. ونظام التأمين الصحي الشامل في بريطانيا اليوم من أنجح نظم الضمان الصحي في العالم. المرونة ضمنت للرأسمالية البقاء. ولو ظلت الرأسمالية سائرةً مغمضة العينين على هدي النظريات المركنتيلية العتيقة لما صمدت. وكانت الغنائم الاستعمارية عنصرًا آخر أدخل مرونة (قبيحة في الواقع) على الرأسمالية.

الرأسمالية ناجحة لأنها ليست عقيدة. سمعناها تقول بالصوت العالي «لا للحمائية»، ثم يأتي ديغول ويقول: «ما هذا الهراء! بل نريد الحمائية»، وظل رأسماليًا. ويأتي نظام «الجات» ضد الحمائية، وتكون الولايات المتحدة أول من يكسره عندما تشعر بتهديد السلع الصينية. الرأسمالية ليست شيئًا مطلقًا لذا ستعيش طويلًا، وستتلون بألوان شتى.

كذا هي السياسة، كذا هي الدنيا. العقيدة الثابتة مكانها القلب لا ميدان السياسة.

ونأتي إلى الإسلام السياسي. إنه نظام متعدد الدرجات، هناك الإسلام الوسطي، وهناك الإسلام السياسي، وهناك حزب التحرير، وهناك القاعدة، وهناك داعش.

ويجمع هذه الدرجات جامعٌ لا يغيب عن المراقب المحايد: جميعها تريد العودة إلى الوراء. فحتى التيار الوسطي فهو يسعى إلى العودة إلى حكم الخلفاء الراشدين ويهتدي بهديهم. وفي الواقع فإن عصر الخلفاء الراشدين الذي دام ٢٩ سنة كان مشحونًا بالسياسة، من حروب الردَّة إلى الفتوح إلى يوم الدار وصولًا إلى صفين. ويجمع درجات الإسلامَ

السياسي أنها تستند إلى مرجعية غير سياسية. وخير سؤال يوجهه الناقد إلى الإسلام السياسي: احترنا معك، أأنت إسلام أم سياسة؟

الإسلام السياسي يؤدي بعضُه إلى بعض. وهذه مقولة قد يغضب لها أهل الإسلام الوسطي؛ فهم بعيدون كل البعد عن فكر وممارسات القاعدة وداعش. الأمر يشبه الحبل الذي نزلت به الأميرة من سجنها في البرج العالي. فقد دلَّت من أعلى البرج شعرة من رأسها، وعقد حبيبها بالشعرة خيط حرير، ثم عقد بخيط الحرير خيط قنب، ثم بخيط القنب حبلًا غليظًا... ونزلت الأميرة.

الدين حق. هو مسعانا، نحن البشر، إلى الإجابة عن سؤالين: من أين جئنا؟ وإلى أين نذهب؟ ولا يحق للعلماني أو الملحد أن يمنعني من التفكير في هذين السؤالين، ولا أن يحظر عليَّ الانتساب إلى دين يساعدني في الحصول على إجابة.

كان لي موقف مع كتاب **وهم الإله** لريتشارد دوكينز. فقد شدد في النصف الأول من كتابه على أن لا إله. وباسم العلم سعى إلى حشر المؤمنين في زمرة «المرعوبين» و«النفعيين» و«المهزوزين». ولا أعلم ماذا صنع في النصف الثاني من الكتاب فقد طرحته من يدي إلى غير عودة. هذا على الرغم من العقدة التي تلازمني منذ الصغر، وهي أنني لا أبيح لنفسي التقاعس عن إكمال أي كتاب، كأنني أعد ذلك هروبًا من التحدي.

الدين حق. ومكانه القلب. وأما السياسة فهي معالجة الأرض والبشر حربًا وسلمًا وزراعة وصناعة وتحالفات وغدرًا ووفاءً. السياسة سعينا

الدائب للبقاء في هذه الغابة التي هي الدنيا؛ ويحسن بالدين أن ينأى بنفسه عن هذا كله. عندما يخرج الدين من القلب إلى ميدان السياسة تعتريه عِلَلُ التمذهب والطائفية والتأويل والتساهل والتشدد، ويتدخل في الزراعة والصناعة والتحالفات.

فهل فهم عني أحدٌ أنني أدعو إلى النظام الرأسمالي؟ وهل الرأسمالية نظام؟ هل رأسمالية إيطاليا تشبه رأسمالية روسيا؟ أم أن رأسمالية الولايات المتحدة تشبه رأسمالية اليابان؟ بل هذه كلها أنماط في الحكم وإدارة الاقتصاد مبنية على المصلحة ضمن دول مستقرة. فأما الدول العربية والإسلامية، فهي ما زالت تحاول فتح القفل، والمفتاح لن يكون الإسلام السياسي، بل مصالح المواطنين وهمومهم في هذه الحياة الدنيا، فأما مصيرهم في الآخرة فهذا شأن يعالجه كل فرد وحده.

في يوم القيامة، يوم لا تملك نفس لنفس شيئًا، سيُعَلَّق كل فرد من عراقيبه.

التثاؤب

يا قارئ -وخصوصًا إن كنتَ تحت الخمسين- إن كنتَ منبطحًا على بطنك وتحرِّك ساقيك كالمقص وأنت تقرأ الجريدة، فاجلس واقرأ باحترام. وإن كنت واقفًا تأكل شطيرة فلافل وتسلِّك زورك بالمقالي وبمقالي، فاقعد واقرأ مثل الناس. ولا يَفُتكَ حرفٌ من هذا المقال، فهو مهم.

ولمن هم فوق الخمسين: اقرأوا أو لا تقرأوا، ستنسون كل شيء.

قال لي شاب: «قرأتُ لك كثيرًا، ولم أرَكَ مرة واحدة امتدحت الزعيم الراحل ياسر عرفات، فمن تظن نفسك حتى تضع رأسك برأس شخصية تاريخية بحجم ياسر عرفات. ألا تتواضعون قليلًا يا معشر الكُتَّاب؟ والرجل الآن في ذمة الله، أفلا كتبتَ كلمة خير! اكتبها حتى لا يقال عنك: إنك مغرور، اكتبها حتى تكون شخصًا يعرف الحق ويعرف كيف يقول كلمة الحق».

انتهى كلام الشاب.

الآن على هذا الشاب -أسوة بكل الشباب القارئين مقالي- أن يجلس من انبطاحه، أو يقعد من وقفته.

نحن، الذين رأينا عبد الناصر وعهده، أدَّينا طقوس عبادة الفرد، ثم كفرنا بعبادة الفرد. أحببنا عبد الناصر لأسباب؛ لأن الإعلام المصري،

الجبـار آنـذاك، كان يضخ صوته وصورته كل يـوم؛ وأحببناه لأنه مخلص وعروبـي؛ ولأنـه كان نصير الفقـراء؛ ولأنه وقف لأمريكا وإسـرائيل وقفة قوية. وانهزم عبد الناصر ولم تنهزم محبتُنا له. ولكننا حاسبناه بعد الهزيمة وانقطعنا عن أداء طقوس عبادة الفرد. وبدأنا نفتش عن عيوبه.

أنا لا ألوم شبابنا على الانجراف في حب ياسر عرفات. ذلك طبيعي. ولكن، لا تطالبونا أعزائي الشباب بأن نحب مثلكم. نحن أكثر نكدًا وأكثر نقدًا. نحن نهزُّ رؤوسنا هزَّة العارف ونقول: «هذا الفيلم حضرناه».

أرى بعضهـم كان يصرخ من جوف معدتـه بتأييد القذافي على موقف جريء. ثم أراه في اليوم التالي يلعن مواقف العقيد كلها.

وأرى ناسًـا يتحمسون لصدام، ثم أراهم بعدئذ، مذهولين كالمغبونين المضحـوك عليهـم. الحـقُّ أقـول لكـم: عندمـا ضـرب صـدام إسـرائيل بالصواريـخ، قلـتُ فـي نفسـي: «إذا كان تحرير فلسطين علـى يديك فلا أريدها». رحم الله الرجل، فقد وقف وقفة أخيرة مشرفة.

وأقـول: «رحمـك الله يا ياسـر عرفات». لا والله، لا أذكرك بالشـر، مع أنني لا أمدحك. أنا فقط حضرت هذا الفيلم عدة مرات.

لهذا فقط تراني أتثاءب.

الكضية والقضية.. والواقعية

قبل نصف ساعة شتمني أحدُهم في وسائل التواصل بأنني حمار ابن حمار، وضحكت طويلًا. ورد عليه أحدُهم بشتم القضية الفلسطينية، وقال في سياق شتمه كلمة جوهرية؛ قال حرفيًا: «الكضية خاسرة. ليس لدينا وقت. نحن أمام مرحلة مفصلية. العالم يتحرك نحو المجد وأنتم ما زلتم في نفس المكان، تبًا لكم وتبًا لقضيتكم».

الأول صاحب الحمير عبَّر عن غيظ محض. أما الثاني فلديه فكرة حاول التعبير عنها وسنناقشها. وفي بداية كلامه كتب كلمة القضية هكذا «الكضية»، سخرية من اللهجة الفلسطينية. ونحن نفوِّت ذلك. ثم قال: «القضية خاسرة»، وهذا صحيحٌ في المدى المنظور. فأهل القضية ليسوا متفقين على شيء. وقال: «ليس لدينا وقت»، وهو يشير بذلك إلى التغييرات المتسارعة في البلد الخليجي الذي ينتمي إليه، والتوق إلى اللحاق بالأمم الناجحة. «المرحلة المفصلية» لا نوافقه عليها، فكل المراحل مفصلية. والمجد الذي يتحرَّك نحوه العالمُ أمرٌ مشكوكٌ فيه، وأما أن الفلسطينيين قابعون في نفس المكان وتبًا لهم ولقضيتهم، فنحن نخالفه... نحن لسنا في نفس المكان... نحن نتقهقر. ونترك «التباب» لأبي لهب ويديه.

صاحبنا ممتلئ بالواقعية السياسية. يرى أن على العرب أن يحلوا قضية فلسطين مرة وإلى الأبد، ويعقدوا صفقة مع الأمم المتطورة صناعيًا

وفي مقدمتها أمريكا وإسرائيل. وليرضَ الفلسطينيون بما تيسَّر من أرض. كان هذا منطق السادات في كامب ديفيد، ومنطق ياسر عرفات في أوسلو.

المشكلة أننا نحن العرب لا نتحرك نحو المجد. نحن نشكل معسكر واقعية متهافتًا يبيع بثمن رخيص، ويتشكَّل بجانبه معسكر رفض يجعجع.

في السبعينيات تشكَّلت جبهة الرفض وقادَتها سوريا. كان حافظ الأسد رافضًا التفاهم مع إسرائيل، وجمع حوله عدة فصائل فلسطينية، وخاض معمعة سياسية في لبنان، وطَرد عرفات من دمشق. وظل السادات يسير على خط الواقعية السياسية، ونال بعد جهد سيناء. وناصرته جهات عربية قليلة.

وفي التسعينيات سار عرفات في الطريق نفسه ووقَّع أوسلو. وجاء من بعده أبو مازن، وظل يسير في نهج الواقعية السياسية، وسار معه الأردن بعد حين، وكادت سوريا تسير ولكن الأسد الأب وجد أن الاستمرار في النهج القومي القائم أساسًا على العبارات الطنانة أربح له، فلم يسر. وظل هناك معسكر رفض. وهو اليوم يسمى معسكر الممانعة.

صاحبي الذي قال: «تبًا لكم ولقضيتكم» يشعر فيما أظن بهذه المعضلة؛ نحن العرب نستخدم القضية الفلسطينية استخدامًا رديئًا. وهي والله «كضية» فعلًا، هي ملك لأصحابها فقط. وأصحابها على خلاف. لإخوتي العرب أقول: «أرجوكم قاطِعُوا فلسطين».

بين الواقعية السياسية وبين جبهة الرفض والممانعة ليس عندنا من طريق ثالث سوى أن نجلس في مساجدنا ندعو الله دعاءً خاليًا من السياسة: «ربنا أصلح أحوالنا».

في الختام، وردًّا على صاحبي الثاني – ليس صاحب الحمير بل الآخر صاحب «تبًّا للكضية» –: يا رجل، والله إنني لأعلم علم اليقين أن المجتمع الخليجي في أمسّ الحاجة إلى التحرر من قيود كثيرة، وإلى الانطلاق نحو المجد. وليتك تصدِّق أنني أتمنى لكل بلد عربي المجد والتقدم. لكن المسألة معقدة. ولو كنت أملك حلًّا لكنتُ فصَّلتُ القول فيه، ولكنني محبط من كل المعسكرات العربية.

وكنت كتبتُ تغريدة قلت فيها: يمكنك أن تمدح إسرائيل دون أن تسب الفلسطينيين... جرب!

الملك حسين بن طلال

- تغلَّب على الموجة الوطنية المناهضة للعرش ١٩٥٦ بطرد غلوب باشا، رغم معارضة أمه الملكة زين ذات النفوذ.
- بعد مقتلة سبتمبر/ أيلول ١٩٧٠، رضي بتعزيز الشرخ الأردني الفلسطيني؛ فالفلسطيني للتجارة والأردني للوظائف والجيش.
- حمى العرش باللقاء مع الإسرائيليين ٦٩ مرة قبل معاهدة الصلح.
- ساير مشاعر الناس وأيَّد عبد الناصر عام ٦٧ فخسر الضفَّة، وسايرها عام ٩٠ فأيد صدام حسين فكسب عداوة الغرب مؤقتًا، وحمى العرش.
- لعب مع الإخوان ومع اليساريين لعبة القط والفأر، وتعفَّف عن الإجرام.
- كإنسان: متواضع، وداهية، وعنده «أدب الملوك».
- حمَّله الفلسطينيون مسؤولية نكباتهم الكثيرة، ثم اكتشفوا أن المسؤولين عن نكِباتهم كثيرون، وفي مقدمتهم هم أنفسهم.

بناء الجدارة

سعِدتُ عندما هاجمني أحدُهم. كتب عني: «ليذهب هو وفكرةُ الجَدارة إلى الجحيم».

سعدتُ لأن الرجل وضع كلمة «الجدارة» بين قوسين، فكأنه اعترف بها فكرةً مستقلةً.

سأشرح فكرتي عن الجَدارة بالأمثلة.

رضيع عمره ستة أشهر. وأبوه الأحمق يحاول تعليمه المشي غصبًا عن الطبيعة. ينجح في إيقافه، لكن الرضيع المسكين يظل يسقط أرضًا. والسبب أنه ليس جديرًا بالمشي بعد.

معلِّم مدرسة تخرَّج لتوه من الجامعة بأدنى تقدير بعد حصتين سقط من عيون طلابه، وكشفوه. غير جدير بالوقوف أمام صفٍّ بعدُ.

مدير مشروع هندسي، ضعيف في الهندسة، وعصبي جدًّا ولا خبرة له في إدارة الأفراد، ولا يعرفُ يقرأُ ورقة ميزانية. غير جدير بموقعه بعدُ.

بلد كبير، فيه نهر كبير، استقل حديثًا. ليس عنده مهندسو مياه، وأساليب الزراعة عنده عتيقة. بلد غير جدير بالاستقلال بعدُ.

فهل يظل البلد عبدًا، وهل يظل مدير المشروع مهزوزًا، وهل يظل المعلِّم ضعيفًا، وهل يظل الطفل يحبو؟ بالطبع لا، من حق هؤلاء أن يتطوروا لاكتساب الجدارة.

سأتكلم عن فلسطين.

الاستقلال حقُّنا، والسيادة حقُّنا، ونَيلهما فورًا حقُّنا. ولكن، بما أننا لم نعم بعدُ لا باستقلال ولا بسيادة، فلنشتغل ببناء الجدارة؛ فهي علينا علينا، وتأجيلها يجعلها أصعب. والحصول على الاستقلال قبل توافر الجدارة يسبب نزيفًا داخليًّا.

في سياق هذا التفكير التنموي أحب أن أنخس برأس الدبوس بالونين.

البالون الأول: «الجدارة السياسية تعني الوفاق التام في رؤيتنا للتحرير وللمجتمع والدين». ولماذا الاتفاق والوفاق؟ السياسة تجاذب مصالح وصراع. هل سمعتم حزب المعارضة في أي بلد محترم يمدح الحكومة؟ ليكن عندنا صراع. المطلوب احترام صندوق الاقتراع دائمًا وللأبد.

البالون الثاني: «نريد نظامًا تعليميًّا ممتازًا، يخرِّج للمجتمع أعظم المهندسين والأطباء». كلام فارغ. هذا شئ لا نستطيعه أصلًا. ولو استطعناه يجب ألا نتبعه. فعندما ينبغ عندنا طبيب عظيم فسوف يصدِّر نفسه إلى أمريكا فورًا. وعندما يخرِّج نظامُنَا التعليمي عالمَ رياضياتٍ فذًّا فسوف يهرب إلى المرتب الضخم في الخارج.

بناء الجدارة يقتضي منا الأخذ بنظام تعليمي جيد في المدارس والجامعات. يوجد الآن شغل كثير لكي نعمله في فلسطين. شغل بناء الجَدارة السياسية والتعليمية والقضائية.

لكن النضال في سبيل التحرر هو الدينامو الذي يحركنا لبناء الجدارة. ولو انطفأ أملنا في الحرية لما عاد يعنينا تعليم ولا سياسة ولا قضاء.

فلسطين: صورة المستقبل[1]

تملك إسرائيل الزخم العقائدي، والحيوية الاقتصادية، والقدرة على الصمود، والمرونة السياسية، والخبرات الدبلوماسية؛ لكي تحقق الحلم التوراتي بالاستيلاء على كل أرض فلسطين على الأقل.

الحديث باستمرار عن (إفشال) المخطط الصهيوني ينبئ عن عقم فكري. أجدى علينا البحث عن مخططنا نحن.

مشكلات إسرائيل: الديموغرافيا، العنصرية، فقدان الأمن، القنبلة النووية.

فالفلسطينيون عدديًا أربعة ملايين، مقابل خمسة ملايين يهودي، فيما بين النهر والبحر، وهذا يهدد الطبيعة اليهودية للدولة العبرية. إسرائيل تزداد عنصرية وبسرعة، مما يسلبها جانبًا من مقومات الانضمام إلى العالم الغربي. وإسرائيل تفتقد الأمن. وهي لو طردت الثلاثة ملايين فلسطيني من الضفة وغزة، ولو ألحقت بهم المليون فلسطيني المقيمين في داخل إسرائيل فهذا لن يشعرها بمزيدٍ من الأمن؛ لأنها جرَّبت كيف يتصرف المطرودون من وطنهم، وكيف ينشئون منظمات مسلحة.

وطرد الفلسطينيين سيعني إطالة عمر الصراع عقودًا طويلة... وفي هذه العقود قد تمتلك دول مجاورة السلاحَ النوويَّ، وقد تستعمله ضد إسرائيل التي لن تحتمل شيئًا كهذا.

---

(١) محاضرة ألقيت في منتدى بيت المقدس في عمَّان-الأردن في ١٤/ ١٠/ ٢٠٠٢.

مشكلات الفلسطينيين: الخوف من الترحيل ومن التحول إلى وضع الشتات الكامل بدون وجود أي موطئ قدم، واختلاف المصالح بين فلسطينيي الضفة وغزة والأردن ولبنان وأوروبا، فكل فئة تريد شيئًا مختلفًا. ولعل من المفيد لهم جميعًا، بدل الالتقاء على مفاهيم فضفاضة تملؤها العواطف، أن يبحثوا عن قاسم مشترك، بمعنى إيجاد خطة فلسطينية تجد فيها كل فئة تحقيقًا لبعض مصالحها.

ثمة مشكلة مشتركة يعاني منها الفلسطينيون والإسرائيليون، وتتمثل في عدم وجود قيادة فلسطينية تملك إرادة سياسية ورؤية ومخططًا. ونظرة إلى منظمة التحرير الفلسطينية التي تحكم السلطة الفلسطينية تجعلنا نرى حجم هذه المشكلة التي يعاني منها جانبا الصراع.

منظمة التحرير والسلطة الفلسطينية: بدأت المنظمة حكمها للضفة وغزة بدعم عربي ودولي، وبأموال تدفقت من المانحين والمستثمرين. ولكن طبيعة المنظمة غلبتها وغلبت كل النوايا الطيبة. استمرت المنظمة في التصرف كعصبة من الناس يتلقفون الفرص ويلهطون المال، ونشأ على الهامش نظامُ محسوبية في التوظيف ظل يتسع حتى صار يضم مئة وأربعين ألف موظف. هؤلاء المحسوبون يأكلون ثمانين بالمئة مما يصل إلى فلسطين من الأموال.

الفساد في السلطة قسمان: الفساد الأصغر وهو اللهط، ولم ينقطع؛ والفساد الأكبر هو المحسوبية. وبهما لم تُثبت السُّلطةُ جدارتها في مهمة بناء المجتمع.

لقد نجحت منظمة التحرير في إبقاء شعلة المطلب الفلسطيني متقدة نحو أربعين سنة، وقدمت بفصائلها المختلفة منافذَ للفئات الضعيفة من المجتمعات الفلسطينية في مناطق عديدة لكي تتقدم. فالفقراء في مخيمات لبنان وفلسطين وجدوا في المنظمة سلَّمًا للصعود اجتماعيًّا افتقدوا شبيهًا له في أماكن وجودهم. فقراء كثيرون لم يجدوا المال والخبز، ثم درس أبناؤهم في الجامعات بسبب مساعدة المنظمة، وأكلوا هم خبزهم على مائدة المنظمة.

لكن انتقال المنظمة إلى الضفة وغزة بعد عام ٩٤ اقتضى منها تحولًا جذريًّا يمكِّنها من بناء المجتمع. هذا التحول لم يحدث.

على الصعيد السياسي كانت المنظمة في مهجرها تحرص على إبقاء الخيارات مفتوحة دائمًا حتى تضمن لنفسها البقاء. كانت تفتح قنوات مع الجميع، وتترك المجال مفتوحًا أمام تحالفات قد يضطرها إليها الزمن. كانت جسمًا قليل المبادئ: ليس عندها مبدأ قاطع بعدم التعامل مع اللصوص وتجار الثورات، فتسلل إلى المنظمة عدد من هؤلاء. ليس هناك مبدأ واضح بشأن عدم جواز قتل المدنيين، وليس هناك مبدأ واضح بشأن احتلال أرض الآخرين بالقوة، فإذا احتل العراقُ أرض بلد آخر فلا بأس بالإغضاء عنه تلبيةً لمصلحة آنية. هذا الوهن الأخلاقي انتقل مع المنظمة إلى داخل الضفة الغربية وقطاع غزة بعد عام ٩٤.

كثيرًا ما قامت المنظمة بأعمال اضطرت لاحقًا إلى التهرُّب من تحمل مسؤوليتها، من ذلك منظمة أيلول الأسود وعملية ميونخ ١٩٧٢، ومنظمة أبو العباس وعملية أكيلي لاورو. ربما كانت هذه أعمالًا لم تستطع أي

منظمة نضالية أن تتجنبها كل التجنب. لكن استمرار هذه النزعة إلى ما بعد تسلُّم المنظمة الحكم في الضفة وغزة جعلها مقتلًا.

كان موقف القيادة السياسية الفلسطينية من حمل السلاح في الانتفاضة الحالية مثالًا كلاسيكيًّا على قاعدة: اضرب وتنصَّل من المسؤولية.

نظر الإسرائيليون، الذين يتعايشون مع السلطة الفلسطينية بموجب اتفاقية، إلى الأمر كما يلي: «لسنا مستعدين للتعامل مع قيادة تخرج من جيبها صائب عريقات يتحدث عن ضرورة العودة للتفاوض، ومن جيبها الآخر مروان البرغوثي يحث على استمرار الانتفاضة، ومن جيبها الثالث تحالفًا بين فتح وحماس تنكره السلطة وتغذيه في آن واحد»؛ القيادة الفلسطينية في نظر إسرائيل غير مأمونة الجانب وليست صاحبة الكلمة الواحدة. الإسرائيليون يقارنون سلوكها دائمًا بسلوك الحُكم في الأردن، مثلًا، ويدركون الفارق الشاسع.

كل الفلسطينيين يدركون -ربما بتفاوت- الدور الفعال لمنظمة التحرير في إبقاء القضية ملء سمع العالم أربعين سنة. وفي الضفة الغربية وقطاع غزة ثمة الآن شعور بأن دور المنظمة قد انتهى.

لقد كان ياسر عرفات -بكوفيته، بلهجته، بعباراته المألوفة، وبتكريسه حياته- رمزًا على أن هذا الشعب حي، وأن له قضية. هناك كلمة لم يقلها لعرفات أي من أفراد حاشيته ووزرائه، وهي أن عليه أن ينقل السلطة إلى غَيره لإتاحة المجال لنشوء نظام سياسي يناسب المجتمع وطموحاته.

الفلسطينيون: فئات مختلفة ومصالح مختلفة: عندما يفكر الفلسطيني في نكبات الماضي، وطموحات المستقبل فهو واحد من ثلاثة:

الأول: شعاره الحق. يرى أن فلسطين سلبت بتدبير تآمري لا بتطور تاريخي طبيعي في تدرجه. سلبت فلسطين بالقوة، وتم فيها إبدال شعب بشعب. وتآمرت على شعب فلسطين دول كثيرة، وسنحت ظروف أنجحت هذه المؤامرة. ولا حل لمثل هذا الوضع إلا بإحقاق الحق. هذا الفلسطيني لا يستطيع أن يقبل بأقل مما بين النهر والبحر. وهو يرى أن وجود إسرائيل هو عنوان استمرار الظلم في هذا العالم. هذا الفلسطيني ينتظر صلاح الدين الثاني، ولا يهمه إن كان الانتظار سيطول أجيالًا.

قد نجد مثالًا على هذا الفلسطيني في لاجئ طُرِدَ من صفد ويعيش في مخيم اليرموك في سوريا؛ لن تستطيع أن تجادله كثيرًا، فالقضية بالنسبة إليه سهلة رغم استحالة تحققها في نطاق عمرنا. لكن لا بأس من تذكيره بأنه مثلما كانت هناك أمم تعثرت ثم نهضت، هناك أمم تعثرت ثم اندثرت. قد تقبل الأمة شروطًا صعبةً في سبيل الحفاظ على وجودها، وفي سبيل التشبث بقطعة أرض تكون عنوانًا للأمة حتى وإن تشتت معظم أبنائها. ولا بأس بتذكير ذلك الفلسطيني بأن الشخص الطريد الذي لا وطن له يعامل في الشتات (ولا سيما في دول الشرق الأوسط) معاملة العبد، وأما الطريد الذي له وطن فإنه يعامل معاملة الضيف.

الثاني: النمط الثاني من الفلسطينيين يُمثِّله فلسطيني واقعي براغماتي، لكنه لم ينس الحلم بالتحرير والعودة. هذا النمط يمثله قادة وجنود منظمة التحرير في مرحلة أوسلو (١٩٩٣-١٩٩٤). لقد اتبعوا مبدأ «خذ وطالب». قبلوا معاهدة لا تضمن حدودًا ولا سيادة ولا معابر ولا استقلالًا، قبلوها بأمل تحسينها لاحقًا. وعندما حاولوا تطبيقها، ناهيك عن تحسينها، طلب منهم الخصم أن يخلعوا الحلم بالتحرير الكامل تمامًا. طلبت إسرائيل

التخلي عن حق العودة وعن الإشارة إلى فلسطين الكاملة في الكتب المدرسية، وطلبت تغييرًا في هذه الكتب في مواضع عديدة. لم تستطع المنظمة بكل واقعيتها في مرحلة أوسلو وما بعدها أن تلبي المطالب الإسرائيلية؛ أولًا لسوء نية الخصم، الذي ندم على أوسلو، وثانيًا لأن السلطة الفلسطينية كانت مبنية في قادتها وشعاراتها على منظمة التحرير بشكل كامل، فلم تستطع أن تنفذ الطلبات المتتالية رغم أنها فعلت الكثير كإلغاء ذلك الجزء من الميثاق الوطني الفلسطيني الذي يطالب بكل فلسطين وبالعودة.

خاض مقاتلو السلطة، والشعب معهم، معركة النفق عام ٩٦، وأكدوا للعالم تمسكهم بتطبيق أوسلو بالكامل تمهيدًا لاستكمالها بمعاهدة حل نهائي. وتمكنوا من إثبات أن السلطة لن ترضى بالفتات، وأسقطوا نتنياهو. ثبت للجمهور الإسرائيلي أن نتنياهو لا نية سلام لديه.

أعطى الناخبُ الإسرائيليُّ فرصةً لحزب العمل. عرض باراك ما عنده عرضًا يليق به كجنرال لا يتمتع بحسٍّ سياسي، وكان قبلئذ قد انسحب من لبنان انسحاب الهارب؛ مما أوهم العرب بأن تخويف إسرائيل سهل. أسقط الإسرائيليون باراك لأنهم، رغم ما أبداه من وحشية في أوائل أيام انتفاضة الأقصى التي بدأت في آخر سبتمبر/ أيلول ٢٠٠٠، رفضوا «تنازلاته السخية». وجاءوا بشارون في أوائل فبراير/ شباط ٢٠٠١.

دخل الفلسطينيون انتفاضة الأقصى وكأنها كارثة طبيعية لا بوصفها معركة تحتاج إلى خطة. وأثبتوا فيها -مع ذلك- أنهم متمسكون بالاستقلال والسيادة وبحدود ما قبل يونيو/ حزيران ٦٧. وانهزموا عسكريًا في السنة

الأولى. ومرت عليهم سنة ثانية كانوا فيها «يأكلون علقة». لم يعد هناك معركة ولا نضال، ولا رشق حجارة.

هذا النمط الثاني من الفلسطينيين الذي يتعاطى مع إسرائيل ويقارعها والذي يمضي في طريقه متحيرًا بين الواقعية وبين شعارات التحرير الكامل وحق العودة رفضته إسرائيل؛ لأنها لم تأمن جانبه، ولم يرض عنه فلسطينيو الشتات؛ لأنهم أحسوا أنه لم يحسب حسابهم. لقد أغضبت أحلامُ السلطة إسرائيل، بينما أغضبت واقعيتُها الشتات الفلسطيني.

لعلنا نتفهم مشاعر فلسطينيي الشتات، على أنه من الصعب تفهم مواقف إسرائيل التي سعت إلى الحصول على صكٍّ استسلام فلما عجزت نكلت بالشعب متذرعة بالعمليات الانتحارية.

الثالث: النمط الثالث من الفلسطينيين يوجد منه كثيرون في الضفة وغزة الآن. إنهم يريدون دولة على أراضي الضفة وغزة. ويريدون الأمن والعيش بسلام، واستعدادهم للتنازل عن الحقوق التاريخية كبير. الانتفاضة الحالية جعلت قسمًا كبيرًا من أهل الضفة وغزة متلهفين على الخلاص بأي ثمن إلى حد أنه لم يعد يهمهم شكل العلاقة مع فلسطينيي الشتات. ومع ذلك فإنهم لم يطوروا خطة للخلاص، ولا استطاعوا إيجاد تعبير سياسي عن إرادتهم؛ ربما لأنهم يحسون في أعماقهم بأنهم لن يتمكنوا بمفردهم من تحقيق دولة مستقرة. إن العلاقة بين هؤلاء الذين ملُّوا التنكيل وصاروا يطلبون الخلاص بأي ثمن وبين الشتات معقدة، وكذا العلاقة بين هذين الطرفين ومنظمة التحرير.

المشكلة في القضية لا في الإعلام: يعاني الفكر السياسي الفلسطيني اليوم من حالة عقم تدعو إلى الرثاء. كنت يومًا قد سُئلت إن كان عندنا

مشكلة إعلامية، فأجبت بالنفي. عندنا مشكلة في الرسالة نفسها وفي القضية وفي الفهم. الفضائيات مفتوحة أمام أفواهنا، وأفواهنا مفتوحة أمام الفضائيات، فهل يخرج منها شيء سوى الشكوى والتنديد والانفعال؟

إذا كان للخطة الفلسطينية أن تنجح فيجب أن تتم صياغتها عبر منابر ديمقراطية. يجب أن يخوض الفلسطينيون معتركًا سياسيًّا وفكريًّا داخليًّا يقولون فيه الكثير بكل الصراحة وبكل البعد عن الخوف والتخويف، وبدون انفعال. لا بد من عملية يتم فيها تشكيل أحزاب، وتتم بلورة خطة يمكن لمن بلوروها أن ينالوا أغلبية لها في الضفة وغزة.

هذه العملية لا تحدث في جو من التخويف والتخوين والتسابق على إرضاء الأجانب. لا بد لهذه العملية من أن تكون علنية ومستمرة. الديمقراطية هي البيئة الصالحة للخروج بموقف وبخطة. والمشوار لا ينتهي بصياغة الخطة، بل لا بد من نضال ومن عملية سياسية.

ما الذي قد يحدث؟: سأحاول التكهن بعناصر في هذه الخطة، وأود التأكيد على أن الخطة الأنجح هي التي تلبي قدرًا من المطالب لكل فئة فلسطينية. هذه صورة المستقبل كما أتوقعها.

- لا بد من تخيير أفراد الشتات الفلسطيني بين ثلاثة خيارات: أولًا: أن يرضى المرء بحمل جنسية البلد التي يقيم فيها (لمن يقيمون في الدول العربية)، وبهذا فهو مواطن في هذا البلد. وتلك نهاية القصة. ثانيًا: أن يحمل جواز سفر فلسطينيًّا مع استمرار إقامته في الشتات، في الأردن أو في سوريا أو في أمريكا. ثالثًا: أن يأتي للعيش في دولة فلسطين المستقلة ذات السيادة كمواطن.

- من المحتمل أن تتضمن الخطة ما يسمح بتعديلات حدودية، وربما بتأجير أراض لإسرائيل لأغراض عسكرية، ربما في غور الأردن. لكن هذا البند يجب أن ينص على أنه للفلسطينيين الحق في استغلال هذه المناطق المؤجرة اقتصاديًا، وعلى أن يكون التأجير لزمن لا يزيد عن جيل واحد. وأما التعديلات فربما يصر الفلسطينيون على أن تكون متبادلة وبنفس القدر، بحيث لا يتم الانتقاص من مساحة الضفة وغزة.

- قد يتفق الفلسطينيون والإسرائيليون طواعيةً على التخلص تمامًا من ظاهرة المخيم. فهذا مفيد للطرفين. لكن الأمر يقتضي أموالًا تُنفق على إسكان وتعليم ملايين اللاجئين في فلسطين وخارجها. التعويض كلمة غير ملائمة؛ لأن تعويض إنسان عن وطنه وعن سنوات عمره التي قضاها في الفقر والإهانة مستحيل.

- الدولة الفلسطينية قد تجد ملائمًا أن (تتبرع) بنزع سلاحها، لكن من المهم جدًّا التمسك بتسلح دفاعي يجعل الغزو مكلفًا بشريًا، ويدفع الجيران الأقوياء إلى التفكير مليًّا قبل الإقدام على مغامرة عسكرية.

- القضية الأساسية هي القضية الفلسطينية، ولكن الحل سيكون إقليميًّا، ولا بد للفلسطينيين من أن يتذكروا وجوب الإصرار -في العلن وفي المحادثات وراء الأبواب المغلقة أيضًا- على عودة كامل الجولان إلى سوريا.

- في غضون خمس سنوات قد تتحقق الدولة الفلسطينية، وقد تشهد سريعًا بعد ذلك تدفق مئات الآلاف من الفلسطينيين على الضفة، لا سيما من لبنان. وقد نرى تحسنًا كبيرًا في المساءلة السياسية،

وأجواء ديمقراطية، وسعيًا إلى تحقيق قدر من الرخاء لشعب دفع مقدمًا من دمه ثمن الاستقلال.

لن يخسر فلسطيني مستقر في سوريا، مثلًا، عندما تقوم دولة فلسطينية مستقلة. بل سيربح وضعًا أفضل حيث هو، سيشعر أنه ضيف لا لاجئ.

- قد تقوم بين فلسطين المستقلة وبين شتاتها علاقة مثمرة يستفيد منها الجانبان.

النقاط السابقة فيها خلط بين ما أتوقع أن يحدث وبين ما أعتقد أنه يجب أن يحدث، وهذا نتيجة عدم قدرتي على النظر إلى الأمور بتجرد كافٍ. لكن تحقق الخلاص (وهو في كل حال لا يلبي طموحات كثير من الفلسطينيين) مشروط بدخول مجتمع الضفة وغزة جوًّا سياسيًّا جديدًا يتميز بالديمقراطية مما سيوفر للجسم السياسي الفلسطيني فرصة للتنظُّم في أحزاب، ومناخًا للانكباب على التفكير والنقاش والتداول لتوليد الأفكار والصيغ التي سيكون هناك آلية توفر لبعضها القبول عند الغالبية[1].

(١) ملحوظة تحريرية في يونيو/ حزيران ٢٠٢٢: هذه الورقة، وعمرها عشرون عامًا، قُرئت حرفًا حرفًا في منتدى القدس في العاصمة الأردنية. وقد نسختُها هنا دون إسقاط أو زيادة كلمة. لقد أثارت زوبعة في تلك الندوة. ولقيتُ بسببها هجومًا وصل إلى شبه اتهام بالخيانة من جانب أشخاص يعيشون في الأردن وينتسبون إلى منظمة التحرير الفلسطينية. في هذه الورقة التي أختم بها هذا الفصل ترى أيها القارئ طريقتي في التعبير عن فكرتي. قد أسوق فكرة فطيرة، مستندة إلى انطباع. وقد أخطئ. أنا لستُ أكاديميًّا. يكفي أنني أقول رأيي مخلصًا. ولا أضمن لك الثبات على كل أفكاري. كل ما أضمنه أنني لن أتراجع خوفًا أو طمعًا. وواحدة أخيرة في الختام: قد تراني أهادن طلبًا للسلامة. وأدعو الله ألا يجربني في موقف يجعلني أهادن منافقًا.

حديث الأدب

ألذُّ أكلة أكلتها في حياتي

قد أراني بعد أيام في هِلفرسوم بهولندا. ليس مما تريدون أن تعرفوا أين أغدو وأين أروح. ولا هذا مما طُلِبَ مني الإخبار عنه في حديثي هذا. على أنني أسوق هذا الحديث لأنني آخِذٌ معي كتابَ شعرٍ، والشعر مما يُسمحُ لي بأن أتحدث عنه. ولا يظُننَّ أحدٌ أنني سأخرج عن الموضوع بأكثرَ مما خرجت. على أنني لا أحب أن أكونَ ذكرت هلفرسوم وهولندا ولا أخبرَ السامع بشيء عنهما. وإلّا أكُن مثلَ كُتّاب القصة المبتدئين الذين يوردون في أول القصة أحداثًا لا تخدم تطوُّر الحبكة. وقد تعلمونَ أن الناقد قال لمن يكتب القصة: «إذا علّقتَ بندقيةً على الجدار، فلا بدَّ لك من أن تقتل بها أحدًا إن عاجلًا أو آجلًا في القصة». وقد يجدُ المستمع الكريم أن هذا يجري على الأفلام والمسلسلات غير الرخيصة. فإذا صوَّبَ المخرجُ الكاميرا على موضع في الحديقة في أول الفيلم فلا بدَّ من أن يُخرجَ البطلُ جوهرةً مدفونةً هناك في آخر الفيلم، أو قد يعثرُ في ذلك الموضعِ على دليل يُدين القاتل، أو على أثر يساعد في تطوير سير التحقيق. وكتاب الشعر الذي سآخذه؟ لم أقرر بعد. يتنازع على الدخول إلى حقيبتي الآن كتابان: واحدٌ أخضر وواحدٌ بني.

ولعل خير ما أصنع في هذه الدقائق وأنا أعُدُّ بين الكتابين «حادي بادي سيدي محمد البغدادي» أن أحدِّثكم عن هِلفرسوم. هذه قريةٌ في هولندا. كنت فيها في السنة الفائتة. دخلتُها والمطر ينهمر، والبردُ يصُكُّ الرؤوس، والريح حَيرى تعصف في كل اتجاه.

نزلـتُ مـن القطار وبجيبي ورقة عليها عنـوان، وكنت في حضرة جوع شـديد. قادنـي الجوع إلـى مطعم فتـرددت، ورأيت مطعمًـا آخر. وقفت، نظـرت، ترددت، مشـيت. وأظن أننـي لـم أُبقِ في البلـدة مطعمًا لـم أفضح ترددي أمامه. هذا يحدث لي كثيرًا. قلَّما اخترت مطعمًا بعد تردد وحمِدتُ أكلَه. وقلما اخترت مطعمًا بغير تردد. ولعل السبب أنني أقيم للأكل وزنًا يتجاوز قيمته الغذائية.

عدتُ بعد جولتي إلى حانة قربَ المحطة التي منها بدأت جولتي على المطاعـم. نصـفُ الحانـة مطعـم، ونصفها مشـرب. دخلـت وقعدت في النصـف الـذي يناسـب حالتـي. وكان حقـي أن أذهب إلى فندقـي فأخلعَ معطفـيَ المبتَـلَّ وأُصلحَ من شـأني، ولكن ذلك الجوع الـذي ألَمَّ بي كان مما ينسيك البلل.

وإني أحدثك بحديثي هذا ولي غرض. أريد أن أتمتع بألفاظ الفصحى، أراها تتزلَّج على لساني مثلما تتزلج لعقةُ عسل تطيب فوق اللسان ثم ترِدُ الحَلق فتلذعه لذعة محببة. أدس الكلمة القديمة في تضاعيف كلامي. قد أنحـرف بهـا عـن معناهـا الذي وضعـت له بعـض انحراف، حتـى تجريَ جريانًـا حسـنًا مـع قصتـي. وقـد آتـي بالكلمـة العاميـة حتى يفـرح النص ويرقص، وقد يغلب عليَّ اسـتعمال أساليبَ قديمة ما عاد أحد يستعملها. وقد أخلع من لسـاني كلمة مأنوسـة مألوفة وأضع في مكانها كلمة عتيقة، فكأنـي أقلع ضرسًـا من خِلقة الله عز وجل وأزرع في موضعه ضرسًـا من صَنعة مختبر الأسنان. أأنا أحاول نفخ الروح في جثة؟ حاشا الفصحى أن تكون جثة.

أما زلتَ تتذكَّر أنني قعدتُ في ذلك المطعم-الحانة في هلفرسوم بهولندا؟

طلبتُ شريحةَ لحم وما يصلُح لها. فجاءني الرجل بطبقٍ واسع لم تعرف له مطاعم بلاد الإنجليز مثيلًا. (وأنا قد جئتُ هولندا قادمًا من بلاد الإنجليز حيث أقيم). ومطاعم بلاد الإنجليز عجيبة... يأتونك بطبق فيه قرن فاصولياء وحبات أرز يعُدونها عدًّا، ورُقاقة لحم تكاد تشِفُّ عما وراءها، ويرصفون أمامك بجانب هذا الطبق الحقير عُدَّةً كاملة من الشوك والسكاكين والملاعق. ولا كذلك الأمر في حانتي تلك بهلفرسوم. جاءني الرجل بطبق إهليلجي، أي بيضِيَّ الشكل، البيضة فيها طرف أعرض من طرف، وأما الأهليلج فطرفاه متماثلان. استلقَت في وسط الطبق شريحةُ لحمٍ أُجيد شَيُّه. بل هي قطعةٌ لا شريحة، فقد ذهبت طولًا وعرضًا وسُمكًا مذاهبَ تَسُرُّ الجائعين. وبجانبها السلطة وضروبُ المقبّلات، وبازلاء وذرةٌ صفراء، وأشياء لا أعرف لها أسماء. وجاءني ذلك الرجل الطيب بكشكول فيه عيون، في كل عين منها نوعٌ من أنواع الصلصات مما دخل فيه الخلُّ أو لم يدخل. وجاءني بزُبدٍ دُقَّ فيه ثُومٌ وبَقل. وجاءني بطبقِ قَشٍّ فيه خُبزٌ كثير، وفي بلاد الإنجليز تقضي سهرتك في المطعم وأنت تستعطي النادل خُبزةً، وما أكثر ما تحصل على الوعود الكاذبة.

ثم جاءني ذلك النادل الطيب بالبطاطس المحمرة. لم يضعها ذلك الرجل، أحسنَ الله إليه، مع اللحم والخضار كما يفعل القوم الذين كنا نتحدث عنهم، بل جعلها في زُبدِيَّة عظيمة مربَّعة تربيعًا، أكاد أسميها قصعة لولا تربيعها. كانت تضم في جوفها تلك القرون البطاطسية

المحمرة، وتصعد البطاطسات على هيئة تلة في ذلك الطبق المربع، وكانت بعض تلك البطاطسات يشرأبن برؤوسهن فوق التلة. كانت أكلة العمر. أعِدُكم أن أُعيد الكَرَّة في هذه المرة.

سأذهب هذه المرة على نيَّة الـمُكث ثلاثة أسابيع. ولا أستطيع أن أقضيَها بغير شعر عربي قديم. وحان أن أختار بين الكتاب الأخضر والكتاب البنّي: الكتاب الأول **مجموعة المعاني**. مؤلفه مجهول ومحقّقه عبد السلام هارون، أحد عظام المحقّقين، رجل يفهم الأدب القديم ويعرف كيف يقدم لك كتابًا، وهو عالم ضليع بأسرار العربية. هذا الكتاب مجموعة أشعار منثورة على مئة باب، وألفٍ ومئة وخمسين صفحة في جزأين. كل بابٍ يتناول معنى محددًا: الباب الأول يضم أشعارًا في الحَضّ على التقوى. القطعة الأولى من هذا الباب من قصيدة أعشى قيس في مدح الرسول ﷺ. وقد أورد المؤلف المجهول البيتين:

إذا أنتَ لم ترحلْ بِزادٍ مِن التُّقى ولاقيتَ بعدَ الموتِ مَن قد تَزوَّدا
ندمتَ على ألَّا تكونَ كمثلِه وأنك لم تُرصِدْ كما كان أَرصَدا

وقد غفر الله للأعشى بهذه القصيدة وأدخله الجنة، هكذا أراد له أبو العلاء المعري في **رسالة الغفران**. اسمعوا قصةَ الأعشى في يومِ القيامة كما يَرويها أبو العلاء: قال الأعشى: «سَحَبتني الزبانيةُ إلى سَقَرَ فرأيتُ رجلًا في عَرَصات القيامة (أي ساحاتها) يتلألأُ وجهُه تلألؤَ القمر، والناس يهتفون به من كل أوب: يا محمد، يا محمد... الشفاعةَ الشفاعة! نَمُتُّ بكذا ونَمُتُّ بكذا. فصرختُ وأنا في أيدي الزبانية: يا محمد! أغثني فإن لي بك حرمة. فقال: يا عليُّ بادِرهُ فانظُر ما حُرمَتُه. فجاءني

عليُّ بنُ أبي طالب صلوات اللهِ عليه وأنا أُعتَل كي أُلقَى في الدَّركِ الأسفلِ من النار فزَجَرهُم عني، وقال ما حرمتُك؟ فقلت: أنا القائل:

ألا أيُّهـذا السـائلي أين يمَّمَتْ فإنَّ لها في أهـلِ يثربَ موعِدا

وأنشد الأعشى صدرًا صالحًا من قصيدته على سمع عليٍّ. وهذه قصيدة صنعها الأعشى في مدح الرسول وقصد يثرب فاستوقَفه أهلُ مَكَّةَ عارفين قصده، فقالوا له: محمدٌ حرَّم الزنا. فقال: أنا شيخ فانٍ ليس فيَّ بقية. قالوا: محمد حرَّم الميسر، فقال: الميسرُ ليس من شأني. قالوا: محمد حرَّم الخمر. فقال الأعشى: لا عيشَ لي بدونها. وعاد الأعشى من حيث أتى، ومات ولم يدخل في الإسلام. نعود إلى أبي العلاء، ونرى الأعشى في يوم القيامة بين أيدي الزبانية، نراه ينشد عليًّا قصيدته التي أعدَّها للرسول ﷺ. «فذهب عليٌّ إلـى النبي ﷺ فقال: يا رسـول الله، هذا أعشـى قيس قـد رُوِي مدحُه فيك، وشـهد أنك نبيٌّ مُرسَـلٌ. فقال: هلَّا جاءني في الدار السابقة! فقال علي: قد جـاء ولكن صدَّته قريشٌ وحبُّه للخمر. فشـفع لي فأُدخلـت الجنة على ألَّا أشـرب فيهـا خمـرًا، فقرَّت عينـاي بذلك، وإنَّ لـي منادحَ في العسـلِ وماءِ الحيوان». وماءُ الحيوان هو اللبن الحليب.

هـذه حكاية دخول الأعشـى الجنـة في رواية أبي العـلاء. بعض فقهائنا اليـوم يُدخلـون النـاس النار بأسـهلَ مـن ذلك. وقاهـم الله حرَّهـا فإنهم لا يعلمون.

الكتاب الثاني، البُنيُّ، **الحماسة البصرية**. وقد اخترتُ الكتاب الأخضر **ديـوان المعاني**. فإن عدتُ من هولندا سـالمًا مـن التُّخَمة فقد أحدِّثك عن الكتاب الثاني.

بناتي وسيئاتي

لــولا بـنـاتـي وسيئاتي لطِرتُ شوقًا إلى المماتِ
لأنـنـي فـي جـوارِ قـومٍ بغَّضنـــي قربُهـم حياتي

هذان البيتان اللذان افتتحنا بهما منسوبان لشاعرٍ مغمورٍ اسمه المنصور التميمي. عاش في أوج دولة بني العباس. وقد كذب فيهما كِذبةَ الفأرة. فلا أظن أحدًا يحتمل الحياة فقط للقيام بواجب بناته، أو خوفًا من رجحان كِفَّة سيئاته.

والفأرة المذكورة هي من فئران أحمد شوقي في قصائده الخرافيات. أكل القط ابنَها، فراحت الفأرة تتمنى الموت بعد فِقدانِه. فسمعها القط، فأتاها يريد أن يحقق أمنيَّتها:

ففزِعـت لـمَّا رأتـه الفـارةْ واعتصمت منهُ ببيت الجارةْ
وأشـرفت تقـولُ للسـفيهِ إن مـتُّ بعد ابني فمن يبكيهِ

إذن فالفأرة تريد أن تعيشَ فقط لكي تندبَ ابنها وتقومَ بالواجب.

نعود إلى شاعرنا المنصور فهو يشكو ممَّن حوله من الناس شكوى عباسية، شكوى المجتمع البغدادي المستريح. شكوى فيها تصنُّع. ليس فيها صدقُ شكوى الشعراء الذين عاشوا شظف البوادي. أولئك إذ يشكون -وقلَّما يفعلون- فإنما يشكون بحرقة وصدق، ويتوجعون كالحيوانِ الجريح الذي لا يئنُّ كاذبًا، والإنسان قلَّما يئنُّ صادقًا. غير أنني

أحببتُ قولتـه: «لولا بناتي»، وليس أول من قالها. ذكَّرتني بقول إسـحاق بن خلف:

لـولا أميمةُ لـم أجـزَعْ مـن العَدَمِ ولـم أُقاسِ الدجى في حِندِسِ الظُّلَمِ
وزادنـي رغبةً فـي العيش معرفتي ذلَّ اليتيمـةِ يجفوهـا ذوو الرَّحِـمِ

فابن خلف يجزع من العدم (الفقر)، وهو راغب في العيش لأنه يعرف أيَّ ذلٍّ يلحق اليتيمة. ولا أصِمُه بالكذب. الأحمقُ الأحمقُ من يقول لك: لـو مـتُّ فـإن لِبناتـي مـن العمومـة والخؤولـة مـا يقـوم بهـنَّ ويكفيهـنَّ. والحصيف الحصيف هو الذي قد يُحسن الظن بالناس كلَّ الوقت، ولكن إذا دارَ الأمر على بناتٍ يخلِّفُهنَّ وراءه هالكًا فإنه يسـيء الظن بأخيه لأمه وأبيه.

وهـذا عيسى بـن فاتـك الخطـيُّ الشـاعرُ الخارجـي: كان كلمـا أراد «الخـروج»، أي عصيـانَ الدولـة، تعلقت بـه بناتُه فيقعد عـن التمرد، وفي ذلك قال:

لقـد زاد الحيـاةَ إلـيَّ حُبًّـا بناتـي إنهـنَّ مـن الضِّعـافِ
مخافةَ أن يَرَيْـنَ البؤسَ بعدي وأن يشـربْنَ رَنْقًـا غيـرَ صافِ
وأن يَضطرَّهُـنَّ الدهـرُ بعـدي إلـى جِلْفٍ مـن الأعمامِ جافِ

ويمضي شاعرنا فيقول إن بناتِه يقلن له كلما أزمع «الخروج»:

أبانـا! مَـنْ لنـا إن غبـتَ عنَّـا وصار الحيُّ بعدَك في اختلافِ

(قد لقيت قبل سويعة من تحرير هذا المقال القديم رجلًا في إستانبول في جلسـة دار فيها الحديث عن الأسـماء واختيارها، فعدَّد أسـماء إخوته

الخمسة. قلت له: «والأخَوات؟» فابتسم وقال: «لا يوجد». كأنه يحمد الله على ذلك. وأنا رجل ليس لي من الولد إلّا بنتان، وأنا بهما سعيد، ولم أتمنَّ يومًا ولدًا ذكرًا. أحد رؤساء الوزراء في لبنان خاف على بناته إذا مات أن يجور الأعمام عليهن في الإرث، فتحول إلى المذهب الجعفري الذي يجعل البنات يحجبن سائر الأقارب عن الميراث، كما هي حال الذكور في مذاهب أخرى. أنا كتبت لهما كل ما أملك واسترحت).

معركة أدبية على بيت شعر

قال سَلمُ الخاسر:

من راقب الناس مات غمًّا وفــاز باللــذة الجســورُ

أما سَــلمٌ فاســمٌ ســمَّاه به أبواه، ولا يدَ له فيه. وأما الخاســر فلقبٌ جرَّه على نفسه. ورث سَلمٌ عن أبيه مصحفًا، والمصاحف في ذلك الزمن، قبل أكثر من ألف ســنة، منســوخةٌ باليد عزيزة. باع سَــلمٌ المصحف واشــترى بالدراهــم طنبــورًا يعــزف عليــه الألحان، فقالوا لــه: بعت الآخــرة بالدنيا، وبُــؤتَ بالخُســران المبيــن، فصــار يلقّــب الخاســر، وراحــت عليه. سَــلم الخاسر هذا ليس صاحب معنى بكر في بيته، بل لصٌّ مُغير، سرق المعنى من أســتاذه بشــار بن برد. كان بشارٌ أكبر شــاعر في دنيا العربية. كان زعيم الــمُجّان. كان ماجنًا بالطبع، (وبالطبع معناها بطبيعته). هو رجل شهواني لا يقَــرُّ لــه قــرار بغير اللذَّة الحسّــية. في كل صفحة من ديوانه شــاهدٌ على ذلك. يقول بشار:

قالــوا حــرامٌ تلاقينــا فقلــت لهم مــا في التلاقي ولا في قُبلةٍ حَرَجُ
من راقب الناس لم يظفَرْ بحاجته وفــاز بالطيبــات الفاتِــكُ اللَّهِــجُ

«مــن راقــب النــاس» معناها: من اهتم بهــم والتفت إلــى اعتراضاتهم. واللهــج هــو حلــو اللســان، الذي يحســن التــودد إلــى النســاء بالأحاديث الخفيفــة. وأما الفاتِكُ فهو في قاموس مُجّان ذلك العصر الرجلُ الجريء الــذي يصل إلى مــا يريد ولا يرعوي، هذا هو الفاتك. معنى البيت الثاني:

الـذي يهتم بكلام النـاس يخيب، ولا يفوز بالطيبات واللذائذ إلا الجريء الحلو اللسان.

قـال بشـارٌ بيتـه، وأفرغ صدره مـن هذا المعنـى الدقيق. وجـاء تلميذه وخِرِّيجُه سَلمُ الخاسر فسرق المعنى وقال:

من راقب الناس مات غمًّا وفـاز باللـذة الجسـورُ

فغضب بشارٌ غضبةً مُضَريةً، وحلف لا يكلمنَّ سَلمًا، وراح يشتمه في المجالس. فاستشـفع قوم لسَـلم وجاءوا به إلى بشـار فقبَّل رأسـه، ولكنَّ بشـارًا وبَّخـه وعنَّفـه. قـال لـه: «تأخذ معنـاي الـذي تعبت في اسـتنباطه، وتكسـوه ألفاظًـا أخـفَّ مـن ألفاظـي حتى يسـيرَ بيتُـك ويُـروى، ويذهبَ شـعري! لا والله، لا رضيتُ عنك أبدًا». وراح سَـلم يتضرَّع، وأخذ القوم يشفعون له حتى رضي بشار. وماتُ بشار ومات سَلم ومضت من السنين ألف وثلاثمئة. ولكن بيتَ سَلم الخاسر ظل حيًّا يحفظه طلاب المدارس، وإن أسـاء فهمَه تسـعون بالمئة منهم وحمَلوه على محمَل البراءة، وظنوه بيتًـا مـن أبيـات الحكمـة السـائرة، وإنما هـو فـي الحقيقة دعـوة إلى عدم الاكتـراث بالنـاس والمبـادرة إلـى الملـذات. أما بيت بشـار فمـات على الألسنة وإن حفظته لنا الكتب.

المتنبي وظاهرة «الشاعر-الناقد» المعاصرة

ما زلت أفتح الجريدة على الصفحة الثقافية، بحكم العادة. تكاد تُغثي نفسي المقالاتُ الكثيرة عن الحداثة والتراث. الأمر مستمر منذ سنوات. كأنه صار لا شغل للمتأدبين والنقاد إلا أن يصنفوا أنفسهم، وأن يرسموا بكل وضوح علاقتَهم بالتراث.

أتخيل مطربةً تقف على خشبة المسرح لتقدم أغنيتها، ولكنها قبل أن تصدح بشيء تأخذ في مجادلة أفراد الفرقة الموسيقية بشأن تصنيف الأغنية: أهي دورٌ أم موشح أم سوى ذلك. وتأخذ في تحليل كلمات الأغنية وأوزانها الشعرية ومقاماتها الموسيقية. ويكاد ينفجر الحاضرونَ الدافعونَ دنانيرَ كثيرةً غضبًا، فقد جاءوا لكي يسمعوا الغناء لا النقاش. ثم إن المطربة تقدم أغنيتها، فينصرف الناس غير حاسِّين بالطرب. ويقولون: «سمعنا جعجعة وقعقعة ولم نسمع غناء».

الشاعر صار يثير حول قصائده الباردة زوبعةً نقديةً، صار يشتغل شاعرًا ساعةً من النهار وناقدًا سبع ساعات. ولعل في موقف أبي الطيب المتنبي من النقد عبرةً ودرسًا. كان المتنبي يقول: إنه ينام ملء جفونه عن كلماته، التي يسمعها حتى الأصم، بينما يسهر الناس يتحفظون أشعاره ويختصمون في معانيها:

أنا الذي نظرَ الأعمى إلى أدبي ... وأسمعت كلماتي من به صممُ

أنامُ ملءَ جفوني عن شواردِها ... ويسهرُ الخلقُ جرَّاها ويختصمُ

و«يختصم» تعود إلى (الخلق) أي البشر، وجعلها المتنبي مفردًا.

كانوا يسألونه كثيرًا عما قصده في قوله كذا أو كذا فلا يجيب. حتى أقربُ الأصدقاء إلى نفسه، ابن جنِّي، الذي قرأ على الشاعر ديوانه، لم يكن يحظى منه بتفسير، اللهم إلا الإيماءة هنا والإشارة هناك.

ولأتجاوز عما بدأتُ الخوض فيه من هجاء الشعراء-النقاد، ولألتفت إلى هذين البيتين. فيهما روح الصبي المتفوق في المدرسة الذي يقول لك: أنا لا أُذاكر ولا أُتعب نفسي في الدرس، ومع ذلك أحصل على مئة من مئة. فيهما فخر مقَتَه معاصرو المتنبي من الشعراء-النقاد، وأحبَّه الناس بعد موته وظلوا يحبونه حتى يومنا هذا. كرهه أولئك؛ لأن المرء يكره المفتخر بنفسه، وأحبه هؤلاء؛ لأن فخره صادق غير مغلَّف بالتواضع المزيف. تعصَّب معاصروه عليه فانتقصوا من أدبه وحاربوه في رزقه، هذا ما قالته كتب القدماء. وألَّف معاصروه الكتب والرسائل في الزراية على شعره. وتعصبت الأجيال اللاحقة له. كان المعري كلما روي البيت (أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي) يقول: «أنا الأعمى». كأن المتنبي كان يعرف أن رجلًا أعمى سيأتي بعد موته وينصره. وضع المعري شرحًا لـ **ديوان المتنبي** سمَّاه **مُعجز أحمد**، وفي الاسم توريه لطيفة. فـ «مُعجز أحمد» هو القرآن الكريم، بوصفه معجزة النبي ﷺ، ومن أسمائه كما تعلمون أحمد. والمقصود هو غير ما ينصرف إليه الذهن أول وهلة، المقصود ديوانُ المتنبي، أحمد بن الحسين، الذي أعجز الشعراء.

ما زالت موجة تقديس المتنبي في صعود، وكأنما قُدِّر لهذا الرجل المتعاظم التيَّاه بنفسه، الذاهب بها كلَّ مذهب، المتعالي على الناس، الذي قيل: إنه ادَّعى النبوة، أن يظل موضع تقديس بعد مرور ألف وثمانين سنةً هجريةً على وفاته، وبالسنوات الميلادية هي أكثر من ألف، فألقِ الآلة الحاسبة من يدك.

قيس بن الخطيم

موضوعي اليوم مؤجَّلٌ من الأسبوع الماضي. نقعته في الخلِّ لأنني كنت قد أنفقت دقائقي الخمس قبل أسبوع وأنا أتلمَّس الطريق إلى موضوع وسط الديباجات. آن لي أن أعرف من نفسي هذه الخَصلة، فلا إرجاءَ في هذه المرة. سأتحدث عن قيس بن الخطيم. وصفه صاحب **الأغاني** -بسَندٍ- بأنه مقرونُ الحاجبين (وتلك صفه كان يحبها العرب في الرجل، ويكرهونها في المرأة)، أدعج العينين أي أنهما كانتا سوداوين واسعتين، أحمرُ الشفتين، برَّاقُ الثنايا، وهي أسنان مقدم الفم. ليس هذا فحسب، اسمع بقية الوصف: ما رأته حليلة رجل قطُّ إلا ذهب عقلها. وقيسٌ هذا عاش في يثرب ومات قبيل الهجرة النبوية.

كان قيس من الأوس. قُتل جدُّه عَديٌّ، ثم قُتل أبوه الخطيم، وهو طفل لا يعقل. وخافت أمُّه عليه أن يسعى في ثأرهما فيُقتل كما قتلا، فوضعت أحجارًا أمام الدار وأفهمته أن هذا قبرُ أبيه وجده فصدَّق. ثم إنه صرع فتىً في الحي ذات يوم (أي ألقاه أرضًا) فقال له الفتى: «أما تُجرِّبُ قوة ساعديك على قاتِلِي أبيك وجدك؟» فانطلق قيسٌ إلى أمه ووضع قائمَ سيفه على الأرض وجعل طرفَه في صدره، وقال لأمه: «والله لتخبرِنَّني عِمَّن قتل أبي الخطيم وجدي عديًّا أو لأتحاملنَّ على هذا السيف حتى يخرج من ظهري!» فأخبرته. وانطلق قيس يطلب الثأر حتى أدركه. وقال في ذلك قصيدةً هي إحدى اثنتين كبيرتين تزينان ديوانه. يبدأ قيسٌ قصيدته بالغزل على عادتهم:

تذكَّرَ ليلى حسنَها وصفاءَها   وبانت، فأمسى ما يَنالُ لقاءَها
ومثلَكِ قد أَصْبيتُ ليست بِكَنَّةٍ   ولا جارةٍ أَفْضَتْ إليَّ حياءَها

يقول لها: إنني جعلت امرأة مثلك تميل إليَّ، لكنها ليست كنةً لي، ولا جارة أطلعتني على أسرارها. والرجل الشهم لا يلهو بقلوب قريباته ولا جاراته. فهل يلهو بقلوب الأخريات؟

وقد توافقني على قولي (ومثلَك) بالفتح: فكأنما هو يقول أحببت مثلَك، ولكنَّه قدَّم وأخَّر. أو لعلك تفضّل رواية الديوان (ومثلِك) بالكسر: على أن الواو هنا واو رب، حرف الجرّ الزائد الذي يجر لفظًا. أو لعلك تتبع رواية الأغاني: (ومثلُك)، رفعها لأنه بدأ بها الكلام. وما أدخلني في هذه المتاهة إلا أنني ردَّدت البيت من الحافظة بنصب الكلمة ثم نظرت في الديوان فوجدتها مخفوضة، ثم رجعتُ إلى الأغاني فوجدتها مرفوعة. فاستكملت هذه الكلمة جميع الحالات من رفع ونصب وجر. سبحان الله! لو كان يصحُّ أيُّ تشكيل في كل موضع لهانت المسائل، ولاشتغل كل الناس مذيعين، ولنِمنا في الشارع.

يمضي قيس بن الخطيم في قصيدته:

ثَأَرْتُ عَدِيًّا والخَطيمَ فلمْ أُضِعْ   ولايةَ أشياءٍ جُعِلْتُ إزاءَها
ضربت بذي الزِّرَّينِ رِبْقةَ مالكٍ   فَأُبْتُ بِنفسٍ قد أَصَبْتُ شِفاءَها

أي ضربت بسيفي «ذي الزرّين» رقبة مالك

طعنتُ ابنَ عبدِ القيسِ طعنةَ ثائرٍ   لها نَفَذٌ لولا الشَّعاعُ أَضاءَها

يصف الطعنة بأنها نافذة من الجانب الآخر، ولولا تدفق الدم لرأيتَ الضوء من ذلك الثقب الذي صنعته الطعنةُ بجسم الرجل المسكين.

وكنت أمرءًا لا أَسمعُ الدهرَ سُبَّةً أُسَبُّ بها إلَّا كشفتُ غِطاءَها
وإنّيَ في الحرب الضَّروسِ مُوَكَّلٌ بإقدامِ نفسٍ ما أُريدُ بقاءَها
إذا سَقِمَتْ نفسي إلى ذي عداوةٍ فإنِّي بنصلِ السيفِ باغ دواءَها
متى يأتِ هذا الموتُ لا تبقَ حاجةٌ لنفسيَ إلَّا قد قضيتُ قضاءَها

وهذا البيت الأخير حقيق أن تتأمَّله: الموت هو الخط الذي تخُطُّه تحت المسألة الحسابية وأنت تدقق في صحتها، ولا بد أن تكون النتيجة صفرًا، حتى تتثبَّتَ من صحة الحل. متى يأت هذا الموت لا تبق حاجةٌ لنفسي إلا قد قضيت قضاءها. ولا يحسن بنا أن نترك قيس بن الخطيم، الذي قلنا: إن ديوانه يزدان بقصيدتين كبيرتين، وقد ذكرنا شيئًا من إحداهما دون الأخرى. فأمَّا هذه الأخرى فهي بائية يبدأُها أيضًا بالغزل: يصف محبوبته إذ تسارقه النظرات من وراء خبائها، فكأنها الشمس وراء الغمام:

تبدَّتْ لنا كالشمسِ تحت غمامةٍ بدا حاجبٌ منها وضَنَّت بحاجبِ

ويقول قيس بن الخطيم في هذه القصيدة:

وكنتُ أمرءًا لا أَبعَثُ الحربَ ظالمًا فلما أَبَوْا أشعَلْتُها كلَّ جانبِ
أَرِبْتُ بِدفعِ الحربِ حتى رأيتُها عن الدفعِ لا تزدادُ غيرَ تَقارُبِ
فلما رأيتُ الحربَ حربًا تجَرَّدَتْ لَبِسْتُ مع البُرْدَيْنِ ثوبَ المحاربِ

وهذه الحرب التي يصفها هي التي جعلت الأوس والخزرج يُهرعون إلى الرسول وهو في مكة. وقيل: إنَّ امرأةَ قيس كانت في أَحدِ الوُفود وأسلمت سِرًّا، وإن قيسًا ورد على الرسول ﷺ في وفدٍ لاحقٍ، ووعد بالإسلام. فطلب إليه رسول الله ﷺ أن يجتنب زوجتَه، وأَوصاهُ بها خيرًا

بعد إذ أبلغه بخبر إسلامها. فحفظ قيسٌ وصية الرسول ﷺ. وبلغ ذلك الرسولَ فقال: «وفى الأُدَيعِج»، أو كما قال عليه الصلاة والسلام.

ومات قيسٌ قبل هجرة الرسول ﷺ إلى يثرب التي حلَّ بها السلام بين الأوس والخزرج إلى الأبد.

وعن حرب الأوس والخزرج تلك قال بعض رواة الأدب وأصحابِ الأخبار: إنَّ كلَّ ما كان بينهما إنما كان مشاجراتٍ لا يُجرحُ فيها أحد بَلَهَ أن يُقتل. قال أحدهم: «كانوا يخرجون فيترامَون بالحجارة، ويتضاربون بالخشب». وقال آخرُ تعليقًا على بيت قيس بن الخطيم:

أُجالِدُهُمْ يومَ الحديقةِ حاسِرًا كأَنَّ يدي بالسيفِ مِخْراقُ لاعِبِ

ما اقتتلوا يومئذ إلا بسَعَف النخل.

الاشتهاء والاستحالة

قبل عشرات السنين كنا نجلسُ في غرفة الدرس في الكليَّة. الأستاذ عجوز خنق الثمانين، والله. في أول صفٌّ كانت تجلسُ فتاةٌ بيضاءُ بَضَّة. والبَضَّةُ هي الطرية. كان ذلك في أيام الميني جوب الذي لم يكن جريمة آنذاك. بدأ الأستاذ الدرس. شرح قليلًا ثم صمت، ثم صاح بها: يا فلانة بنت فلان الكذا (وذكر مهنة أبيها)! نحن لحم ودم، اخرجي من غرفة الدرس. وخرجت، وران علينا صمتُ القبور.

ومضت سنينٌ كثيرةٌ وكأنما نسيتُ ذلك المشهد ونسيتُ العبرة منه. صرتُ عندما يعتلج الصدر بالرغبات أعلل نفسي بأن الشيخوخة ستَذهَبُ بهذا كلِّه فيستريحَ المرء، ويتمتعَ بأمور معاشِهِ الأخرى. وذات يوم سألتُ صديقًا لي عجوزًا تعدى السبعين عن الأمر، فقال: «تذهب القدرةُ إلا بعضَها، ويبقى الاشتهاءُ إلا بعضَه». فتنهدتُ. هذا شيءٌ في الخِلقة.

وحديثي عن الشعر. معروف الرصافي، شاعر العراق الذي مات عام خمسة وأربعين، رأى في الطريق امرأة يهصُر، أي يُميل، التبختُر قدَّها:

لقِيتُها في الطريق عابرةً ... يهصُرُ من قَدِّها تبختُرُها
أعجَبَها منظري وأعجبني ... بالحُسنِ عند اللقاءِ منظرُها
فصار قلبي بالحب يأمُرني ... وقلبُها بالغرامِ يأمُرُها
لفَتُّ جِيدي أرى أَتَنظُرُني ... والتَفَتَتْ لي ترى أَأَنظُرُها
فقلتُ والشوقُ فِيَّ ملتهِبٌ ... إن عَذَرَتْنِي فسوفَ أعذِرُها

حبذا نظرةٌ فاسقة لم يتبعها فسوق. الرصافي التقطَ بعدسَتِه الشعرية الحساسة موقفًا من مواقفِ الشعور، وعرضه بوضوح يأخذ بالنفس، ويجعلُ السامعَ يتذكَّرُ ما مَرَّ به من مواقفَ مشابهة. ألم يمرَّ بي موقفٌ رشقتُ فيه امرأةً بنظرة، فإذا هي في الوقت نفسه ترشُقُني بنظرة تحملُ المعنى نفسَه. ألم أُحِسَّ عندئذ بأنني مُقَيَّدٌ بأغلال الأعراف فلا أستطيع أن أُقدم على أي خطوة؟ ألم أتمنَّ أن تلتمسَ لي شريكتي في النظَرات عُذرًا؟ ألم أقل في نفسي: «إن عذرتني فسوف أعذِرها؟»

سامحني عزيزي المستمع إن أسمعتك ما لم تقرأه في كتب المدارس. الرصافي بحرٌ ليس في كتب المدارس منه إلا ساقية. هذا وديوانُه موجود في المكتبات العامة، لكن من يقرأ الدواوين في هذه الأيام.

انتهت الخاطرة... عسى ألا تكون أزعجت القارئ. ولا بد أن أقول شيئًا آخر أُتِمُّ به حديثي. سيكون حشوًا بالطبع. نرجو أن يكون مثل حشو اللوزينج. واللوزينج حلوى فارسيةٌ أخذها العرب فيما أخذوا عن الفرس، وهي رقائقُ تُحشى بلوزٍ مدقوق وسكر، والحشو فيها أطيب من القشرة. مدح عوفُ بنُ محلِّم الخزاعي عبد الله بن طاهر قائلًا:

يا ابن الذي دانَ له المشرقانِ ... وأُلْبِسَ العدلَ به المغربانِ
إن الثمانينَ -وبُلِّغْتَها- ... قد أَحْوَجَتْ سَمْعِي إلى تَرْجُمانِ

وقد مات عوف بن ملحم وهو في الرابعة والثمانين. المهم... تذاكَرَ قومٌ في مجلسِ الصَّاحِبِ بن عبَّاد قصيدةَ عوفٍ فقال أحدُهم إنَّ كلمةَ «بُلِّغتَها» في البيت حشو لا يستدعيه السياق: إن الثمانين وبُلِّغتَها (أي أدعو لك الله أن تعيش وتبلغها أيها الأمير) قد أحوجت سمعي إلى ترجمان.

فقال الصاحب: «هذا هو حشو اللوزينج الذي هو أطيب شيء فيه».

نعيد بيتي عوف مع إضافة ثالث إليهما من القصيدة يستدعيه سياق حديثنا أيما استدعاء:

يا ابن الذي دان له المشرقانِ وألبِسَ العدلَ به المغربانِ
إن الثمانين وبلغتَها قد أحوجت سمعي إلى ترجمانِ
وهِمْتُ بالأوطانِ وَجْدًا بها وبِالغواني أينَ مِنِّي الغَواني

فهذا شيخ آخر يهيم بالغواني، أي الحسناوات بلغة الصحافة، وأين منه الحسناوات!

المحابر والدفاتر

إنـي إذا حَضَرتْنـي ألـفُ مِخبـرةٍ تقـولُ: أَخبرَنـي هـذا وحَدَّثَنـي
صاحَـتْ بِعَقْوَتـيَ الأقـلامُ زَاهِيةً: «هَذي المكارمُ لا قَعْبانِ مِن لَبَنِ»

سأعيد على حضرات المستمعين هذين البيتين بعد حين(١).

كانـت مجالسُ الإملاء عامرةً في الزمن القديم؛ إذ كان الكتاب عزيزًا قبـل الطباعـة. وما كان طالـب العلم يحضر مجلس شيخه إلا والمحبرة فـي حزامـه. ولئـن كان المصحـف حاضـرًا فـي كل بيت، فـإن الحديث الشـريف كان مفرَّقًـا في قلوب المحدِّثيـن، يروونه في مجالس العلم (أو مجالـس الحديث) مع إسـناده أو رفعه أو عنعنته، مـن قولهم: «عن فلانٍ عن فلانٍ عن فلان» إلى أن يرتفع الحديث إلى الرسـول ﷺ. وقلَّما كان طالـب علـمٍ جادٌّ يحضر مجلـس الحديث بـلا محبرة، فعندئـذ يصحُّ فيه قـول علي ابن المدينـي: «الطفيلي في أصحاب الحديث الذي يكتب من محابر الناس». وإذا سـمعت عالمًا يقول: «حضرتني ألف محبرة، فاعلم أنـه يفاخـر بكثـرة تلاميذه». في ذلـك الزمن كان الحضـور اختياريًا تدفع الطالـبَ إليـه شـهوةُ العلـم والتحصيـل، ولـم يكـن أحـدٌ يقيـس العلـم بالسـاعات الجامعية المعتمدة أو بالسـنوات الدراسية أو الشهادات ذات

(١) ملحوظة تحريرية: هي أحاديثُ قيلت في الإذاعة، فإن رأيتَني أترك كلمة «المسـتمعين» فلكي أشعرَك بالجَوّ الذي قيل فيه هذا الكلام، وإن رأيتَني أبدل بها كلمة «القراء» فلكي أمـوّه الأمـر عليك، وأشـعرَك بأنك تقرأ كلامًا طازجًا. هو بائت. غيـر أن له من الطزاجة نصيب: فهو لم ينشر في كتاب أو موقع قبل اليوم قطُّ.

الأسماء الإفرنجية التي ترشُّها جامعات كثيرات هذه الأيام بغير حساب. والبيتان السابقان لعبد الملك الطُّبني الأندلسي الذي مات قبل ألف سنة. يقول الطُّبني: «إذا حضرتني ألف محبرة وراحت تردد ما أقول من أحاديث وأسانيد، وأخبرني فلان وحدثني فلانٌ عن فلان، عندئذ تصيح الأقلام التي تستمدُّ مني العلم، تصيح قائلة بعَقوتي أي بفناء بيتي: هذه هي المكارم. المكارم ليست قعبين أو قدحين من اللبن الحليب تقدمهما لضيفك. الفخر الحقُّ لم يعد بالكرم العربي والإحسان للضيف. المكارم هي العلم».

إني إذا حضرتني ألفُ محبرةٍ تقول: أخبرني هذا وحدثني
صاحت بعقوتي الأقلامُ زاهيةً: هذي المكارمُ لا قعبان من لبن

ولعلَّ المستمع يسأل: «وكيف يُسمِع العالمُ المُملي ألفَ طالب، في وقت لم يكن فيه ميكروفون (والميكروفون قطعةٌ من الحديد لم يفلح بعد أحد في إيجاد كلمة عربية تقوم مقامها)؟» كان المُملي يتخذ لنفسه واحدًا من الطلاب جهوَرِيَّ الصوت يقف عند رأسه أو يصعد فوق دكة أو مصطبة، ويعيد كلام المحدِّث صارخًا به. وهذا الطالب الصخَّاب كان يسمى في اصطلاح أهل تلك المجالس المستملي. قال أبو عقل الدورقي: «مَثَلُ المستملي في المجلس كمَثَل الطبَّال في العسكر».

ولا يخلطنَّ أحدٌ بين الطلاب الذي يستملون، أي يكتبون، وبين هذا الطالب الصارخ الذي يسمى أيضًا المستملي، ولا يحلُّ لنا أن نسميه المعيد فتلك منزلةٌ أخرى. المعيد كان ذلك الطالبَ النجيب الذي يوكله المعلِّمُ بإعادة الدرس على من يرغب في ذلك، بعد أن يفرغ المعلِّمُ من

درسـه ويذهب. هذا هو المعيد في مجالس العلم القديمة. وقد أحسـنت جامعاتُنـا اليوم في اسـتخدام هذه الكلمة القديمة. إنهـا تطمئننا إلى أن لنا في العلم والتعليم جذورًا. نحن أمةٌ عرفت الإملاء والاستملاء والمحابر، وافتخـر شـاعرٌ مـن شـعرائها قبـل ألـف سـنة بطلابه بعـد إذ كان أجـدادُه يفتخرون بإكرام الضيف. ولعمري لإكرام الضيف جدير كذلك بأن يفخر المرء به.

قالوا في الخمر

قال الشاعر:

وما طبخوها غير أن غلامَهُمْ سعى ليلةً في كرْمِها بسراجِ

وإذ أقول: قال «الشاعر» فلأنني لم أحقق للبيت نسبًا. وجدتُه في رسالة الغفران لأبي العلاء غيرَ منسوب. كانوا قديمًا يطبخون النبيذ تعجيلًا في إدراكه. والنبيذ هو الخمر، والخمر بنت العنب. كانوا يقطفون العنب بعد تمام نضجه وجنوحه إلى الذبول، ويطرحونه في ماعون عظيم ويدوسونه بأقدامهم حافيةً حتى يصبح خبيصة ليس فيها حبةٌ سالمةٌ.

ليس من حدِّ هذا البرنامج أن يعلِّم السادة المستمعين طريقةَ صنع النبيذ، ولكننا نسوق هذا الكلام حتى نستعين به على فهم ما كان الشعراء يقولون في الخمر. والعجيب أن الأمراء والسلاطين الذين تشددوا في منع شرب الخمر وبيعها، تساهلوا في وصفها والتغني بها. كأنهمْ تركوا هذا المتنفَّس قصدًا. ثم إن أصحاب المعاصر كانوا ينبذون تلك الخبيصة زمنًا بعد أن يضيفوا إليها شيئًا من خمر ناجزٍ مكتمل التخمر، هذه هي «الروبة»، تمامًا كروبة اللبن الزبادي. ثم يعودون إليها بالتصفية ثم بالترويق. ثم يتركون ذلك العصير ما شاء لهم أن يتركوه. وكلما قدم به العهد جاد وازداد صفاءً. لعلهم كانوا يطبخون العنب الذي لم يبلغ تمام نضجه على كرومه لتسريع الأمر. ولكن أهل الشراب كانوا يأنفون شرب الخمر التي طُبخ عنبها.

ذلك العصير الذي يتركونه يروقُ في الأقبية المظلمة -والحديث ذو شجون- كان ربما استحال خلًّا إذا وقع خطأٌ في إعداده وجرت رياح الكيمياء بما لا تشتهي سفنُ النبَّاذين، فعندئذ يكون على المسلمين حلالًا، ولا أقول: زُلالًا، فالخل مُزٌّ حاذق لا يصلح للشرب بل يطبخون به اللحم أو يَغمِس فيه الفقيرُ خبزته: يأتَدِم به.

الشاعر يدافع عن تلك الخمر، ويقول: إن الذين صنعوها لم يقرّبوها من النار، وكل ما في الأمر أن غلامًا من غلمانهم خرج ذات ليلة يتمشى في الكروم (والعنبُ بعدُ على سُوقه لم يُقطَف)، وكان بيد الغلام مصباح. ذلك كان كل حظ تلك الخمر من النار:

وما طبخوها غير أن غلامَهُمْ   سعى ليلةً في كرمها بسراجِ

وقبل أن نودعكم نترككم مع بيتين لشيخِ وصَّافي الخمر، أبي نواس. يتذكر الشاعر قُطْرُبَّلَ حيث كان يذهب لتجرع ذلك السمّ، ويتذكر عصر الخمر:

خليليَّ باللهِ لا تَحفِرا   ليَ القبرَ إلَّا بِقُطْرُبَّلِ
لعلِّيَ أسمعُ في حُفرتي   إذا عُصِرتْ ضَجَّةَ الأَرْجُلِ

ما رأيُكم في بيتين آخرين؟ أبو مِحجَن الثقفيُّ شاعرٌ سبَق أبا نواس بمائتي سنة، هو أيضًا يُريدُ أن يدفنوه في موضعٍ يذكِّره بالخمر، في الكروم حتى ترتوي عظامُه من عُروقها أي جُذورها، لا في الفلاة أي الصحراءِ. يقول لصاحبه:

إذا متُّ فادفِنِّي إلى أصلِ كَرْمةٍ   تُرَوِّي عظامِي بعد موتِي عروقُها
ولا تَدفِنَنِّي بالفلاةِ، فإِنَّني   أخافُ إذا ما متُّ ألَّا أذوقُها

قالهـا كـذا «أذوقُهـا». وبقية قصة أبي محجن أن سـعد بـن أبي وقاص حبسـه في الخمر، فإذا كانت القادسـيَّة اسـتعطفَ أبو محجن جاريةَ سعدٍ وأمَّ ولدِه زبراء فأطلقته فحاربَ مع المسلمين وأبلى أحسن بلاء، فقال له سـعد: «والله لا ضَرَبتُـكَ فـي الخمـر أبدًا». فـردَّ أبو محجن (هذا الشـاعر الذي يريد أن يشربها حيًّا وميتًا) ردَّ قائلًا: «وأنا والله لا أشربُها أبدًا». هذا موضع يحسُنُ التوقفُ عنده.

شاعر الحياة

اسم هـذه الأحاديث «بيت من الشـعر»، غير أني سـأروي اليوم أبياتًا كثيراتٍ، لا بيتًا فردًا، وكلُّها لأبي العتاهية شاعرِ الحياة. هذا الشاعر وضع القبـر والمـوت نُصب عينيه؛ فلا تخلو من ذكـر أحدهما أو كليهما قصيدة مـن قصائـده فـي كل ديوانـه، من الجِلـدة إلى الجِلدة. وأنا سـمَّيتُه شـاعر الحياة؛ لأن المرء لا يذكر الموت هذا الذِّكر إلا لشدة تعلقه بالحياة. يقول أبو العتاهية الذي مات من ألفٍ ومائتي سنة، في رويٍّ له رنينٌ مطرب:

المـرءُ يطلـبُ والمنيَّـةُ تطلبُـهْ ... ويـدُ الزمـانِ تُديـرُهُ وتُقلِّبُـهْ
ليس الحريصُ بزائدٍ في رزقِهِ ... اللهُ يقسِمُهُ له ويُسبِّبُهْ
الموتُ حوضٌ لا محالةَ دونَه ... مُـرٌّ مَـذاقَـتُـهُ كَـريـهٌ مَشربُهْ
وترى الفتى سَلِسَ الحديثِ بذكرِهِ ... وَسْـطَ النَـدِيّ كأنَّـهُ لا يَرهَبُـهْ
مَن كانـت الدنيا مِن أكبـرِ هَمِّهِ ... نَصبَـتْ لـه مِـنْ حُبِّها مـا يُتْعِبُهْ
فاصبرْ على الدنيا وطولِ غمومِها ... ما كلُّ مَـن فيها يرى مـا يُعجبُهْ
ما زالـتِ الأيـامُ تلعـبُ بالفتى ... طـورًا تُخوِّلُـهُ وطـورًا تسـلُبُهْ

تخوله: تعطيه الخول أي العبيد

مَنْ لم يـزلْ متعجبًا مِـن كل ما ... تأتـي بـه الأيـامُ طـالَ تعجُّبُـهْ

وفي قافية أخرى يتخيلُ أبو العتاهية أنه مات وأن رهطَه، قومه، حملوه إلـى حفرتـه حيـث يُحثَى، يُهـالُ، عليه كثيبٌ مـن التراب. وبيـن قومِه من

يَستَرجِعُ، يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون فهذا هو الاسترجاع، وبينهم من يبكي وينتحب. أسلفنا الشرح وهاكم الأبيات:

كأنّي بِرهطي يحملون جِنازَتي إلى حفرةٍ يُحْثَى عليَّ كَثيبُها
فكم ثَمَّ مِن مُسترجِعٍ متوجِّعٍ وباكيةٍ يعلو عليَّ نحيبُها
وداعيةٍ حَرَّى تُنادي، وإنني لَفي غفلةٍ عن صوتِها ما أُجيبُها

وما دمنا في هذه السيرة، نسوق إليكم مطلعَ قصيدة للشيخِ ناصيف اليازجي:

لا تَبْكِ مَيْتًا ولا تَفرحْ بمولودِ الأمُّ للدُّودِ والمولودُ للدُّودِ

وقد التفتَ نقاد الشعر في زمن الشيخ ناصيف إلى هذا المطلع البشع فأسموا القصيدة «القصيدة الدودية».

رجع الحديثُ إلى أبي العتاهية. يتخيل نفسه واقفًا مع خصمه أمام العرش في يوم الدين:

إلى ديَّانِ يومِ الدينِ نمضي وعند اللهِ تجتمعُ الخصومُ
ستَعلَمُ في الحسابِ إذا التقينا غدًا عند الإلهِ مَنِ الملومُ

والمعنى بسيط مبذول، والصياغة فيها بعض تعسُّفٍ لا يغفِرُه إلا القوافي، والقوافي لا تخون أبا العتاهية. إنما أتيت بالبيتين لأعرض إزاءهما بيتين لمعروف الرصافي الشاعر العراقي، أراه أخذ فيهما معنى أبي العتاهية:

قُل للذي أَنْحى عليَّ بظُلْمِهِ سَفَهًا وجارَ بِقولِهِ وبفعلِهِ
الموتُ يجمعُ بيننا وسنلتقي عند الذي تثِقُ الخصومُ بعدلِهِ

وأرى أن الشاعر المعاصر تفوق على صاحب المعنى.

الشيخوخة

يقول جميل صدقي الزهاوي، الذي توفي عام ١٩٣٦، إنه رأى شـيخًا منحنيًا كأنما يبحث عن شيء سقط منه فسأله: «ما الذي أضعت؟» إليكم البيتين:

رأيـتُ بالأمس شـيخًا قـد انحنـى باضطرابِ
فقلـت: يـا شـيخُ مـاذا أضعـتَ؟ قال: شـبابي

أنـا الآن علـى مفترق طريقيـن فإما أن أحدثكم عن الزهـاوي، وإما أن أرويَ لكم بعض ما قاله الشعراء في الشيخوخة. ولأنَّ الذاكرة مسعفةٌ في هـذه اللحظة أفرض عليكم، معتذرًا، حديثَ الشـيخوخة. والبيتان اللذان قـرأتُ للزهاوي ليـس فيهما معنى معقد، ولا يحتاجـان إلى خمس دقائق من اللف والدوران. الفاتن فيهما السهولة، والنكتة البارعة.

قال الشاعر الأندلسيُّ يحيى بن حكم الغَزَال:

قالـتْ أُحِبُّكَ، قلتُ كاذبةٌ غُـرِّي بِـذا مَن ليـس يَنتَقِدُ
هـذا كلامٌ لسـتُ أقبلُـهُ الشـيخُ ليـسَ يحبُّـهُ أحـدُ

وهذا الشـاعر كان يعمل في السِّـلكِ الدبلوماسي في دولة بني أميةَ في الأندلس في أيام عبد الرحمن الأوسـط. ففي نحو سـنة ثمانمئة وعشرين ميلادية بُعِثَ سـفيرًا إلى الدنمارك، وقيل: بل إلى أيرلندا. ما يهمُّنا هنا هو الشيخوخة. عندما ذهب الغَزَال في سِفارتِه كان الشيبُ قد غَزا رأسه. مَثُل

أمام الملِكة «تُود» الشابة ليقدم أوراق اعتماده، فسألته: «كم عمرك؟» قال: «عشرون سنة». قالت: «ولكنَّ في رأسك شعرًا أبيض»، فأنشد الغزال مرتجلًا (على ما تقول القصة):

يا تُود يا رُودَ الشباب التي ... تُطْلِعُ من أزْرارِها الكوكبا
قالت أَرى فَوْدَيْكَ قد نَوَّرا ... دُعابةً تُوجِبُ أن أَدْعَبا
قلتُ لها: ما بالُهُ؟ إنَّهُ ... قد يُنتَجُ المهرُ كذا أشهبا

يقول لها: إن المهر يولد أشهب أبيض، وبياض شَعري لا يدل على تقدمي في السن. ولعل الغزال كان فعلًا شيخًا فانيًا عندما سَفر لبني أمية الأندلس. سِفارتُه تلك مختلَفٌ في تاريخ وقوعها؛ يقول دبليو دي ألان (الذي ألف عن هذه السفارة كتابًا بالإنجليزية ونشره في دبلن): «إن السفارة كانت في عام ثمانمئة وخمسة وأربعين للميلاد»، وعلى هذا فقد كان عمر الغزال وقتَها أربعًا وسبعين سنة. وأما إذا وافقنا المستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال، فإن سفارة الغزال كانت وعمره ستٌّ وثلاثون سنة. لعله كان سفيرًا إلى أكثرَ من بلد، فالقسطنطينية مذكورة إضافة إلى الدنمارك وأيرلندا. هذه التوثيقات نقلتها عن **تاريخ الأدب العربي** للدكتور عمر فرُّوخ. وفي الشيخوخة قال الشاعر العجوز وقد بشَّروه بغلام:

قيل لي جاءَك نجلٌ ... ولدٌ شهمٌ وسيمُ
قلتُ: عَزُّوهُ بِفَقْدي ... وَلَدُ الشيخِ يَتيمُ

نترك الشاعر الغزال. يحدثنا شاعر آخر عن العجوز التي ترجّي، أي تمنَّى، أن تعود إلى الصِّبا بعد أن لَحِبَ جَنباها وانبسطا وزالا عن التدوير

والتكويـر، المقصـود قفاها، وهي مع ذلك تدفـع إلى العطار، طبيبِ ذلك الزمن، مِيرةَ أهلِها، أي مؤونة الدار من قمح وسكر وما أشبه:

عَجُـوزٌ تُرجِّـي أن تكـونَ فَتِيَّـةً وقد لَحِبَ الجَنبانِ واحدَوْدَبَ الظهرُ

تَـدُسُّ إلـى العطـار مِيـرةَ أهلِهـا وهل يُصلِحُ العطارُ ما أفسـد الدهرُ؟

الخمر سماء ونجوم

الـدَّنُّ كلمـةٌ أثيـرةٌ عند الذيـن يصنعون ألغـاز الكلمـات المتقاطعة في الجرائـد والمجلات، فكلمـات الحرفين عزيزةٌ مطلوبةٌ. يكتبون لنا: وعاء الخمـر، ثلاثـة أفقـي وأربعة عمودي، ونجـد مربعين فارغيـن فنكتب دال نون: دَنّ. صرنا نظن الدن قَدَحَ الخمر، وليس به.

الـدنُّ هـو خابِيَةُ الخمر الكبيـرة، أو كما يقول **معجم المنجِّـد**: الراقُودُ العظيـم الـذي لا يَقعُـدُ إلَّا أن يُحفَـرَ له. أبو نواس يسـتلُّ الخمـرَ من الدَّنِّ إبريقًا إبريقًا، يسـتولي على دَمِ هذا «المخلوق»، ويسـتلُّ روحه بالتدريج. ثـم ينثني زعيمُ سـكارى الشـعر العربـي وقد أصبح له روحـان، وأمَّا الدَّنُّ فيغدُو جسمًا فارقَه روحُه:

ما زلتُ أسـتلُّ روحَ الدَّنِّ في لُطُفٍ وأَسـتقِي دمَـه مِـن جـوفِ مَجروحِ
حتى انثنيْتُ ولي روحانِ في جَسَـدٍ والـدنُّ مُنْطَـرِحٌ جسـمًا بـلا روحِ

هذه الصياغة البديعة صياغة أبي نواس. أما المعنى، أو الفكرة، فليست له. أراه أخذها من بشار بن برد حين قال:

شـربْنا مِن فـؤادِ الـدَّنِّ حتى تركنـا الـدَّنَّ ليـس لـه فـؤادُ

ولكن النواسـيَّ زاد على معنى بشـار وصقله وشخَّصه تشخيصًا، فهذا يغفـر له السـرقة. هذه من السـرقات التي لا تعاقب عليهـا محكمةُ النقاد. ولأبـي نـواسٍ اختراعـاتٌ كثيرةٌ وأبـكارُ معانٍ لم يُسـبَق إليهـا. ومن ذلك وصفُه للكأس إذ يقول:

(كأسٍ من العسجد أي الذهب)، حَبَتها بأنواع التصاوير فارسُ. فالكأس من ذهب وعليها تصاوير فارسيةٌ منقوشة. قرارتها كسرى (صورة كسرى في الأسفل) وفي جنباتها مهًا، أي أبقار وحشٍ تدَّريها بالقسيِّ الفوارس (أي تدرأها وتحتال لصيدها الفوارس، الرجال الراكبون، بأقواسهم). فللخمر ما زُرَّت عليه جيوبهم أي ياقاتُهم، وللماء ما دارت عليه القلانسُ أي القبعات. فأبو نواس وصف لنا في أبياته الأقداح والرسوم المنقوشة عليها وأخبرنا بنسبه الخمر إلى الماء في مشروبهم ذاك. فالخمر تُصَبُّ إلى أن تبلغَ عنقَ الفوارس وتكسَرُ بعد ذلك بالماء حتى يصل المزيج إلى القبَّعات، أطلنا الشرح:

تدورُ علينا الراحُ في عَسجَدِيَّةٍ   حَبَتْها بأنواعِ التصاويرِ فارسُ
قرارَتُها كِسرى وفي جَنَباتِها   مَهًا تَدَّرِيها بالقِسِيِّ الفوارسُ
فَلِلْخمرِ ما زُرَّتْ عليهِ جيوبُها   وللماء ما دارتْ عليه القَلانِسُ

هذا معنى بِكرٌ لم يأخذهُ أبو نواسٍ من أحد، وإن كان كرَّرَهُ هو في شعرِه حين يقول:

بَنَيْنا على كِسرى سماءَ مُدامَةٍ   مُكلَّلَةً حافاتُها بنجومِ
فلو رُدَّ في كسرى بنِ ساسانَ رُوحُهُ   إذًا لاصْطَفاني دونَ كلِّ نَديمِ

وإن سألت ما النجومُ التي في حافَة الكأسِ؟ فهي الفَقاقيع. وقد جعل سطح الخمر في الكأس سماءً وجعل الفقاقيع نجومها. وقد بنى سماءَه أيضًا فوق صورة منقوشة لكسرى.

علي بن الجهم

اسمعوا البيت الذي سنُديرُ عليه هذه الفقرة حتى يبقى طعمُه بين أضراسكم على مدى الدقائق الخمس المقبلة:

عيونُ المها بينَ الرُّصافةِ والجسرِ
جلبن الهوى من حيث أَدري ولا أدري

هذا مطلع القصيدة الرُّصافية لِعليّ بن الجَهم. قالوا في قصة لا سندَ لها في النقل، ولا يقبلها العقل: إن عليَّ بن الجَهمِ ورَدَ بغداد من البادية وتوجَّهَ إلى بلاط الخليفة المتوكل مادحًا. دخل على الخليفة وأنشأ يقول:

أنتَ كالكلبِ في حِفاظِكَ لِلْوُدِّ وكالتَّيسِ في قِراعِ الخطوبِ
أنت كالدَّلْوِ لا عَدِمْناك دلْوًا مِن كبارِ الدِّلا كثيرَ الثقوبِ

فارتبك مجلس الخليفة، ولكن جعفرًا المتوكل قال لهم: «هذا رجل شاعر، ولكنَّ عليه جلافةَ البادية. خذوه وأسكِنوه قصرًا، وألبِسوه الديباج وأطعِمُوه اللَّوزَينَج». ففعلوا. وبعد أشهر حُمِل علي بن الجهم إلى المتوكل فأنشده القصيدةَ الرصافية، وهي من الشعر الرقيق الحضري الذي لا يشوبُه من البداوة إلا متانة اللغة. فقال المتوكل: «لقد خشيتُ عليه أن يذوبَ رقةً ولطافةً في هذه القصيدة». وهذه القصة اختلاق كلُّها. فعليُّ بن الجهم حضري بغدادي المولد والنشأة، وديوانُه بين أيدينا شاهد على أنه لا يمكن أن يقول شيئًا كـ «أنت كالكلب». والبيتان ليسا في الديوان.

ومن القصص التي لا يقوم عليها دليلٌ، وإن كانت أقربَ إلى العقل، أنَّ رجلًا قَعَدَ على جسرِ بغداد فأقبلت امرأةٌ حسناء من جهة الرُّصافة، وإذ مرَّت بقربه قال الرجل: «رحم الله عليَّ بن الجَهم». فقالت المرأة: «رحم الله أبا العلاء المعري». ومضت في طريقها. وكان على مَسمَعٍ شيخٌ ذو علم. فاقترب من الرجل وقال: أقسمتُ عليك إلَّا ما أخبرتني بالَّذي دار بينكما. فقال الرجل: قلت لها رحم الله عليَّ بن الجهم ففهمت أنني أشير إلى:

عيون المها بين الرصافة والجسر

جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري

وردَّت علي قائلة: رحم الله أبا العلاء المعري، ولا أراها قصدت إلا قوله:

فيا دارَها بالخَيْفِ إنَّ مزارَها قريبٌ ولكنْ دونَ ذلكَ أهوالُ

نعود إلى القصيدة الرُّصافية، ونروي منها ثمانية أبيات من أصل اثنين وستين بيتًا كلُّها من أجود الشعر وأعلاه:

عيونُ المها بين الرُّصافةِ والجسرِ

جلبنَ الهوى من حيث أدري ولا أدري

أَعَدْنَ ليَ الشوقَ القديمَ ولم أكنْ

سَلَوْتُ ولكنْ زِدْنَ جَمرًا على جمرِ

خَليليَّ ما أَحلَى الهوى وأَمَرَّهُ

وأَعلَمَني بالحُلْوِ منه وبِالمُرِّ

صِلِي واسألي مَنْ شئتِ يُخبرْكِ أنني

على كل حالٍ نِعْمَ مُستودَعُ السِّرِّ

ومـا أنـا مِمَّـن سـارَ بالشـعرِ ذكرُهُ

ولكـنَّ أشـعاري يسـيرُ بهـا ذِكري

ومـا الشـعرُ ممـا أَسـتَظِلُّ بظلِّـهِ

ولا زادنـيِ قَدْرًا ولا حَـطَّ مِن قَدْري

ولكـنَّ إِحسـانَ الخليفـةِ جعفـرٍ

دَعانـيِ إلى ما قلـتُ فيهِ مِنَ الشـعرِ

فَسـارَ مَسـيرَ الشـمسِ في كلِّ بلدةٍ

وهبَّ هُبـوبَ الريحِ في البـرِّ والبحرِ

وقبـل أن نذكِّرَكـم بالبيت الذي انطلقنا منه، نقول لمن نسـيَ: إنَّ المها هـو بقـر الوحـش. ذلك البقر النحيـل الذي ما زال يركض حتـى أيامِنا في بادية الشـام. وعيونُ المها واسعةٌ ومحفوفةٌ بسواد كأنه الكحل. ومحفوفة بالمخاطر:

عيـونُ الـمَها بيـن الرُّصافَـةِ والجسـرِ

جلبنَ الهـوى من حيـثُ أَدري ولا أدري

فكرة يتسارقونها

يصف أبو تمامٍ ديمةً (أي سحابةً) تسير الهوينا وتسكب ماءً يحيي الثرى الظامئ. ويقول: لو أنه يمكن عقلًا ومنطقًا أن تمشي قطعةُ الأرض الظمأى وتتابع السحابة في سيرها لإعظام الارتواء وزيادته لسعى المكان الجديب خلف السحابة:

ديمةٌ سَمْحَةُ القِيادِ سَكُوبُ مُستغيثٌ بها الثرى المكروبُ
لو سَعَتْ بُقعةٌ لإِعظامِ نُعْمى لَسعى نحوَها المكانُ الجَديبُ

وهذا معنى دقيقٌ احتاج الشاعر أن يستخرجه استخراجًا. الأرض (التي يُضرب المثل بها في الثبات) جعلها أبو تمام تريد أن تركضَ وتتبعَ السحابة.

أبو تمام، وابن الرومي بعده بقليل، انفردا عن كل شعراء العربية بقدرة فائقة في الغوص على المعاني وترتيبها وتركيبها والتشقيق منها. ولا كذلك البحتري.

البحتري تلميذ أبي تمام وقد سرق منه كثيرًا سرقاتٍ لطيفات. ومن جملة سرقاته هذا المعنى. يقول البحتري في مدح الخليفة العباسي المتوكل على الله: لو أن المنبر الذي تتجه نحوه لإلقاء خطبة العيد، لو أنه يستطيع أن يمشي لسعى نحوك اشتياقًا:

فَلَوَ أنَّ مُشتاقًا تكلَّفَ فوقَ ما في وُسْعِهِ لَسعى إليك المِنبرُ

الموقـف هنـا مختلف عنه فـي بيت أبي تمـام، ولكن الفكـرة واحدة. تعالوا ننصف البحتري ونشير إلى ديباجته. سـمعنا هـذه الكلمة كثيرًا في التعليقـات المدرسـية علـى أشـعار الشـعراء. الديباجة هي حلاوةُ الشـعر بغض النظر عن دقة معانيه. اسمعوا جانبًا من قصيدة البحتري التي يمدحُ بهـا جعفرًا المتوكل... يبدأ بالغزل ثم يخـرج إلى المـدح، ونختم مقتطفنا بالبيت المنبري:

أُخْفي هَوىً لكِ في الضُّلوعِ وأُظهِرُ ... وأُلامُ مِـن كَمَـدٍ عليـكِ وأُعذَرُ
وأراكِ خُنتِ على الهوى مَن لم يَخُنْ ... عهدَ الهوى، وهجرتِ مَن لا يَهجُرُ
وطلبـتُ منكِ مـودَّةً لـم أُعْطَها ... إنَّ الـمُعَنَّى طالِـبٌ لا يَظفَـرُ
اللهُ مَكَّـنَ للخليفـةِ جعفـرٍ ... ملـكًا يُحَسِّـنُه الخليفـةُ جعفرُ
بالبِرِّ صُمْـتَ وأنتَ أفضلُ صائِمٍ ... وبِسُـنَّةِ اللهِ الرَّضِيَّـةِ تُفطِـرُ
ذَكَـروا بِطلعَتِـكَ النبـيَّ فَهَلَّلُوا ... لـمَّا طَلعتَ مِن الصفوفِ وكبَّروا
ومَشـيتَ مِشيَةَ خاشِـعٍ مُتواضِعٍ ... للهِ لا يُـزهَـى ولا يـتـكـبَّـرُ
فلَـوَ أنَّ مُشـتـاقًا تكلَّـفَ فوقَ ما ... فـي وُسْـعِه لسَـعى إليك المنبـرُ

هـذه قصيـدةُ البحتري. وقد فُتِن نَقَدةُ الشـعر بهذا البيـت الأخير، وإن كنتُ أراه مقصرًا عن بيتِ أبي تمام. وننتقل في الزمن، لكننا نبقى قريبًا من هـذا المعنـى الشـعري. نـرى الخليفـة المسـتعينَ بـالله يقول للشـعراء في مجلسه، وقد قصدوه في مناسبة: لا أقبل منكم شيئًا إلا أن تأتوا بما أتى به البحتـريُّ عندما جعل المنبر يسـعى اشـتياقًا. بُهِتَ الشـعراء وقدحوا زناد الفكر عبثًا. وكان يحضرُ المجلسَ المؤرخُ والجغرافي البَلاذُرِيُّ، صاحبُ فتـوح البلـدان. ذهـب البلاذُري إلـى بيته وأعمَـلَ فكرَه، ورجـع في اليوم التالي إلى مجلس الخليفة المسـتعين وأنشده بيتينِ يحتويان على الفكرة.

يقول البلاذُري – ونحن نترجم عنه أولًا –: لو أن بُردَ الرسول، أو عباءته -وكان خلفاء بني العباس ومن بعدهم خلفاء بني عثمان يتوارثونها- لو أن هذا البُرد يستطيع أن يظُنَّ لَظَنَّكَ صاحبَه الأصلي، أي أنك تقترب في أخلاقك من أخلاق المصطفى. ولو أن البُردَ يُحسن الكلام لقال وأنت ترتديه: نعم هذان هما منكبا أو كتفا صاحب البُرد الأصلي، وهذان هما عطفاه أو إبطاه. يقول البلاذُري:

ولو أنَّ بُرْدَ المصطفى إذْ لَبِسْتَهُ يَظُنُّ لظَنَّ البُرْدُ أَنَّكَ صاحِبُهْ
وقالَ، وقد أُعْطِيتَهُ ولَبِسْتَهُ، نعمْ هذِهِ أَعطافُهُ ومَناكِبُهْ

أنشد البلاذُري المستعين هذين البيتين فقال له: «ارجع إلى منزلك!» فرجع الجغرافي المشهور إلى منزله. فحمل إليه الخليفة سبعةَ آلافِ دينار، وقال له: «ادَّخر هذه للحوادث. ولك عليَّ الجرايةُ حتى أموتَ أو تموت».

كلُّ هذا جرَّنا إليه قول أبي تمَّام:

لو سعت بقعةٌ لإعظامِ نُعمى لسعى نحوَها المكانُ الجديبُ

عرار شاعر الأردن

نذكرُ شاعرَ الأردن مصطفى وهبي التل/ عَرار. ونبدأ بأبياتٍ له في الحنين والغزل:

وادي الشّتا هذا وتِلكَ مَلاعبي ... أيامَ كنتُ وكنتِ من جيرانِهِ
فاذْني شِفاهَكِ مِن فَمي إن لم يَكُنْ ... يا مَيُّ قلبُك قُدَّ مِن صَوَّانِهِ
وتوسَّدي صَدري، وحسبُكِ نِعمَةً ... هذا الذي تُوحِينَ مِن خَفقانِه
ما لِي ودُنياهُمْ فَحُبُّكِ عَالَمٌ ... سِرُّ الهوى وَقْفٌ على سُكَّانِهِ

ويقول عرارٌ مخاطبًا الهَبر صديقَه الغجري النوري:

يا هَبْرُ هاتِ لِيَ الرَّبابَةَ وانطلِقْ ... بي حيثُ قومُكَ أَسْهَلوا أم أَصْحَروا
أنا مِثلُكُمْ أصبحتُ لا أرضٌ ولا ... أهلٌ ولا دارٌ ولا لِيَ مَعشَرُ
فَهَلُمَّ نَشْربُها فَلَوْنُ حَبَابها ... ذَهَبٌ كَشَعْرِ الشَّرْكَسِيَّةِ أَشقَرُ

فحباب الخمر، أي فقاقيعها، بلون الذهب، أو بلون شعر فتيات الشركس الأشقر. وهذا يذكّرُ بقولِ أبي تمام في الخمر:

عِنَبِيّةٌ ذَهبيةٌ سَبَكَتْ لها ... ذهَبَ المعاني صَاغَةُ الشعراءِ
وَضعيفةٌ فإذا أصابتْ فرصةً ... قَتلتْ، كذلكَ قُدرةُ الضعفاءِ

إي وربي، كذلك قدرة الضعفاء، فأما الأقوياء فهم من يستطيعون العفو عند المقدرة. ومن هذه القصيدة لأبي تمام، البيت:

صعُبتْ وراضَ المزْجُ سيئَ خُلْقِها ... فتعلَّمَتْ مِن حُسْنِ خُلْقِ الماءِ

نعودُ إلى عرارِ شاعرِ الأردن. يقول في قطعة وجدانية:

يـا راهـبَ الديـرِ تُبْنـا عـن محبَّتِهِمْ ... وقـد أَتَبْنـا فـلا كانـي ولا مَانـي
شِبْنا ورانَ علـى الفَوْدَيْـنِ متَّـزِنٌ ... مِـن المشـيبِ بَكى حظِّـي وأَبكاني
قُـلْ للسَّـوادِنِ يفتحـنَ الصوامِعَ لِي ... فالريـحُ صِـرٌّ وبَـرْدُ الغَـوْرِ آذانـي

والسوادِنُ جمعُ سَادِنة أي خادمة، ولعله يقصد الراهبة في الدير.

كان عـرارٌ يقضـي أوقاتَه منفِيًّا إلى مادبا أو العقبـة؛ لمخالفتِهِ الحكومة في السياسة وغير السياسة. وإذا انتفى النفيُ فلا تجدُ عرارًا إلا بين أحبابِهِ النَّـوَر، وهم قومٌ من البدو الرُّحل يشـبهون الغجـر، أو هم هم. والنَّوَرُ في الأردن أهـلُ طـربٍ وفـنٍّ وسَـمَر، وكان عـرارٌ يقضـي أيامه وأماسـيه بين خرابيشهم (أي بيوتهم). وإذا لم تجد شاعرنا هنا ولا هناك، فإنك لا شك واجِدُه في حانَة قَعوار يشربُ من خمرة لونُ حبابِها ذهبٌ كشعر الشركسية أشقر. اسمعوا هذا الشعر الجميل الرائق لعرار:

عفـا الصَّفا وانتَفى من كوخِ نُدماني ... وأوشَـك الشـكُّ أن يُـودي بإيماني
مـوَلايَ شـعبُكَ مَكلومُ الحَشـا وبِهِ ... مِن غَـضٍّ طَرْفِكَ والإِهمـالِ داءانِ
مـولايَ إنَّ المطايـا لا تصيـرُ إلـى ... غاياتِهـا إن علاهـا غيـرُ فرسـانِ
ماذا على الناس مِن سُكرِي وعَربَدَتي ... ماذا على الناس من كفري وإيماني
مـاذا علـى الناسِ مِن حُبِّـي مُكَحَّلةً ... بيـن الخرابيـشِ أهواهـا وتهوانـي
قالـوا تعاقِرُهـا قولـوا لهـم علنًـا ... إنـي أعـاقـرهـا فـي كـل دكـانِ
قـال الأطبـاءُ لا تشـربْ فقلتُ لهم ... الشُّـرْبُ لا الطـبُّ عافانـي وأبراني
قالـوا تَدَمْشَـقَ قولـوا ما يـزالُ على ... عِلَّاتِـهِ إربِـدِيَّ اللـونِ حُورانـي
يـا أُردُنِيَّـاتُ إنْ أَوْدَيْـتُ مغتربًـا ... فانسُـجْنَها – بِأبـي أَنْتُـنَّ – أكفانـي

وقُلْنِ للصَّحبِ وَارُوا بعضَ أَعظُمِه   في تَلّ إربِدَ أو في سفحِ شِيحانِ
قولوا قَضى ومَضى وَهبي لِطِيَّتِهِ   تغَمَّدَتْ روحَه رَحْماتُ رحمانِ
عَسى وعَلَّ بهِ يومًا مكحَّلَةٌ   تَمُرُّ تتلو عليه حِزْبَ قرآنِ

وقد مضى عرار إلى ربه في عام ألف وتسعمئة وتسعة وأربعين وعمره خمسون سنة. ترك ديوانًا صغيرًا طبع باسم **عشيات وادي اليابس**. الديوان مليء بالشعر. وهذا يندر في دواوين الشعر.

عرار مرة أخرى

تعالوا نقضي هذه الدقائق في صحبة شاعر أردني عظيم. وهل تعرفون شاعرًا أردنيًا عظيمًا عظمةَ مصطفى وهبي التل، الذي غلب عليه لقب عرار. والعرار نبتٌ صحراوي: أليس يقول الشاعر القديم:

تمتَّعْ من شَميمِ عرارِ نَجدٍ ... فما بعد العَشِيَّةِ مِن عرارِ

عرارٌ الأُردني كان مغضوبًا عليه من الحكومة، ومن أهل التقوى وأصحاب العمائم، لأنه كان سكِّيرًا. وكانت له مع الشيخ عبّود جَولاتٌ سجَّل لنا ديوان عرار جانبَ عرارٍ منها. عندما كان منفيًّا في العقبة على شاطئ البحر الأحمر أعلن توبته عن الخمر، وكتب إلى الشيخ عبود قصيدةً بهذا المعنى:

أَمَولانا أمولانا ... هجرنا الدَّنَّ والحانا
وبُدِّلْنا من المنظو ... مِ والمنثورِ قرآنا
لعلَّ الرُّشْدَ يُمْسِكُنا ... إذا ما الغَيُّ أَرْخانا
فقلْ لِلشوْقِ أهلُ الذو ... ق ما اهتمُّوا بِشكوانا
وأَبلِغْ شيخَنا عبُّو ... دَ عنَّا بعضَ ما كانا
لِنَستَفْتِيهِ هل صحَّتْ ... بهذا الشكلِ تَقوانا

ولم ينتظر عرار ردَّ الشيخِ ولا تهنئته، فرجع عن توبته:

وَهِمْتُ فليس ما سَمَّيْـ ... ـتُهُ الإيمانَ إيمانا
وذو الشوقِ القديمِ إذا ... تذكَّرَ عادَ وَلهانا

ألا مَنْ يشتري بالحا   نِ والألحانِ تَقوانا
بِسعرِ صلاةِ أُسبوعٍ   ببعضِ الكأسِ مَلآنا

أستغفر الله لي ولعرار. على أن عرارًا كان بعيدًا كلَّ البعد عن زندقة الشعراء العباسيين وعن مغامزهم في جانب الدين. كان يكره تزمت المشايخ، ويعبر عن ذلك عنادًا بالإفراط في شرب الخمر ووصفها والتجمل بذلك، والزهو بالإثم:

عبُّودُ يا ناعي النها   رِ على المآذنِ في العشيَّةْ
ليس الهدى وقفًا على   فئةِ الشيوخِ الأزهريَّةْ
إن الحياةَ لها قوا   عدُ غيرُ متنِ الخزرجيَّةْ

والخزرجية هذه منظومة في علم العروض أولها:

وللشعر ميزانٌ يُسَمَّى عروضَهُ
بها النقصُ والرجحانُ يَدريهِما الفتى

وسُمِّيت باسم صاحبها عبد الله الخزرجي. والعروض كلمة مؤنثة.

انظر ما أجمل خيال عرار في البيت الأول: إنه يرى الشيخ يؤذن للعِشاء فيراه إنما ينعى النهار الذي مات.

فنبيذُ قَعوارَ اللذيـ   ذُ وأنَّةُ الناي الشجِيَّةْ
وهُيامُنا بالغانيا   ت من الأمور الجوهريَّةْ
أَوَما تَراني والمشيـ   بَ كما تراهُ بِعارِضَيَّهْ
ما زلتُ خَفَّاقَ الفؤا   دِ ولم تزلْ نفسي طَرِيَّةْ
تَرْكُ التُّقى خيرٌ بِعلـ   مِ الله مِنْ نُسُكِ التَّقِيَّةْ

وهذا البيت الأخير أريد أن أقف عنده وقفة قصيرة، ولكن البيت الذي قبله يشدُّني شدًّا: ما زلت خفاق الفؤاد ولم تزل نفسي طريةً. والنفس الطرية هي المقبلة على اللذائذ، والأمَّارةُ بالسوء. التعبير دارج عندنا. وأريدك، أي قارئي الكريم، ألا تظنَّ بعرارٍ ظنَّ سوء إذ تراه يخلط التعابير المتينة القديمة بالتعابير الدارجة كقوله: من الأمور الجوهرية، وقوله هل تمَّت بهذا الشكل تقوانا. فهو يضع تعابيره الدارجة، الصحفية الرنين، في مواطنَ تُكسِبُ هذه التعابير قيمةً جمالية. إنه كما يقولون يوظفها توظيفًا... ولغة عرار قوية ومتينة.

يقول عرار: إن ترك التقوى أفضل من التقية أو من التقوى المزيفة، التي يقصد بها الإنسان مداراةَ الناس والحصولَ على رضاهم، أو تجنب أذاهم. ترك التقى خيرٌ بعلم الله من نسك التقية.

ولا أحب أن أرجئ عرارًا أسبوعًا آخر دون أن أسوق ثلاثة أبيات يقول فيها إن نفسه خضرا. وهذا تعبير دارج آخر، والنفس الخضرا هي النفس الطرية المقبلة على اللذات. يخاطب عرار محبوبته قائلًا:

وَثَّابَةَ النهدينِ حاجَتُنا ... لِزكاةِ حُبِّكِ لم تَعُدْ سِرًّا
ما زال قلبُكِ ما يزالُ بِهِ ... رَمَقٌ ونَفسي لم تزل خَضْرا
شِبْنا وحُبُّكِ ما يزالُ فتىً ... غضَّ الإهابِ يغازِلُ الدَّهرا

ولا أدري ما زكاة الحب التي يريد. ولا أُلِحُّ على عقلي كثيرًا في فهم معنى الأبيات فالمهم الجوُّ العام لها... والمهم أن نفسَ عرار لم تزل خضرا.

طيلسان ابن حرب

قد تدور فكاهةٌ ما من الفكاهات زمنًا طويلًا بين الرفاق في مدرسة أو مشغل. يبدأ الأمر حادثةً صغيرةً وتُروى روايات متباينة، ويزيد فيها كلٌّ منهم شيئًا.

الشعر العربي فيه فكاهاتٌ دارت بين الشعراء ألفَ سنة. قد ذكرنا حكايةَ طيلسانِ ابن حربٍ وأنشدنا في ذلك أشعارًا (قلم التحرير يقول: ذلك حديث ضاع). لكنَّنا وجدنا أبياتًا أخرى فيها طرافة. أصلُ الفكاهة أن أحمدَ بن حرب أهدى إلى الشاعر الحمدَوي -أو الحمدوني بحسب بعض الروايات- طيلسانًا، ثوبًا، جُبَّةً- وظل يذَكِّره به سنوات. فضاق الحمدوني بالأمر، وراح ينظم المقطَّعات في هذا الطيلسان. قيل: نظمَ في الطيلسان خمسين قطعة. قال الحمدوني:

يا ابنَ حربٍ كسوتَني طَيْلسانًا	مَلَّ مِن صُحبةِ الزمان وصَدَّا
فَحَسِبْنا نَسْجَ العناكِبِ لو	قِيسَ إلى نَسجِ طَيْلسانِكَ سَدَّا
إن تنفستُ فيه ينشقُّ شَقًّا	أو تنحنحتُ فيه ينقدُّ قَدَّا
طالَ تردادُهُ إلى الرَّفْوِ حتى	لو بعثناهُ وحدَه لَتهدَّى

ثم يُشَبِّه الحمدوني هذا الطيلسان بآل فرعون الذين يُعرَضون على النَارِ بُكرةً وعشيًّا. فكذا هذا الرداء، الطيلسان، فهو يبقى بين يدي الرفَّاء، الذي يَرقَعُ الثياب رَقعًا خَفِيًّا، زمنًا طويلًا:

يا ابن حربٍ أطَلْتَ مقتي بِرفْوي	طيلسانًا قد كنتُ عنه غنيًّا

فهو في الرفو آلُ فرعونَ في العرض   على النار بكرةً وعَشِيًّا

وقال الحمدوني أيضًا:

فيما كسانيهِ ابنُ حرب مُعتبَرْ   فانظرْ إليه فإنه إحدى الكُبَرْ
قد كان أَبيضَ ثم ما زِلْنا به   نرفُوه، حتى اسودَّ مِن صَدَإِ الإِبَرْ

وكأنما استولت حكاية الطيلسان على عقل شاعرنا استيلاءً فتراه يهجو رجلًا اسمه أبو خزرة، فينسى نفسَه ويصفُ قميصَ الرجل:

عليه قميصٌ له واحدٌ   يقصُّ عليكَ حديثَ الأُمَمْ

فهذا قميصٌ قديمٌ يقص عليك أخبار الأمم البائدة. والحمدوني – أو الحمدوي – شاعر من البصرة عاش في أيام الجاحظ ولا يُعرف تاريخ مولده ومماته على وجه التحقيق. وقد تناقلت كتبُ الأدب أشعاره في الطيلسان، ونظم الشعراء قصائد ومقطعات يقلّدونه.

قال شاعر النيل حافظ إبراهيم في بدلته العتيقة:

نسبوها لطيلسانِ ابنِ حربٍ   نسبةً لم تكن بذاتِ افتراءِ
كشفَ الدهرُ لونَها واستعارت   لونَ وجهِ الكَذوبِ عند اللقاءِ

وابن الرومي معاصرٌ للحمدوني وقد جرى في مضماره. قال ابن الرومي:

لي طَيْلَسانٌ ليس يتركُ لي   رَفْوي له مالًا ولا نشبًا

والنشب هو المال

طَرِبٌ تُغَنّي منه ناحيةٌ   وتَشُقُّ أخرى جيبَها طربا

وفـي قطعة أخرى يشبّه ابـنُ الرومي تَمَزُّقَ القمـاش بحركة الرُّخّ على رُقْعَـة الشَّـطرنج، والـرخُّ هو الذي يسـمونه اليوم بالقلعـة أو الطابية، وهو الحجـر الـذي يتحرك طولًا وعرضًا لكنه لا يتحـرك مواربةً، وكذا التمزق في القماش:

تستمِرُّ الصُّدُوعُ طولًا وعرضًا فيهِ حتى كـأنَّـهُـنَّ رِخَـاخُ

ويـرى ابـن الرومـي أن كلمـة (طيلسـان) كبيرةٌ جـدًّا على هـذا الثوب البالي المهترئ الذي يتحرك إذا هبت ريح على بعد تسعين فرسخًا:

يا ابنَ حربٍ كسوتَني طيلسانًا حملُـهُ لاسـمِهِ كثيـرٌ كثيـرُ
يتجَلَّى تَنَسُّـمَ الريـحِ مِن غا يـةِ تِسـعينَ فرسـخًا فيطيرُ
إنَّ مَن يُمسِـكُ السـماءَ على الأرض ويُبقِي حياتَـه لَقديرُ

ويقـول ابـن الرومي: إن الطليسـان لم يعـد موجودًا فـي الواقع وليس يدرك إلا بالفكر:

قـد طـوى قـرْنًـا فقرنًا وأنـاسًـا فـأُنـاسـا
لَـبِـسَ الأيـامَ حتى لـم يـدعْ فيها لِباسا
غابَ تحتَ الحِسِّ حتى مـا يُـرى إلَّا قِيـاسـا

ونـرى ابـن الرومـي يعـارض قصيـدة الحمـدوي فـي الطيلسـان. قال الحمدوي:

جاد ابنُ حربٍ لِي بِهِ بعدما أيقن منه بالبِلى المحضِ
كـأن إشـفـاقـي عليه إذا غدوتُ إشفاقي على عِرضي

فقال ابن الرومي معارِضًا:

أَلبِـسُ حِلمي عند لُبسـي له حتـى ترانـي سـاكِنَ النَّبْضِ

كأنَّما كَفَّايَ قد غُلَّتا عن حَركاتِ البَسْطِ والقبضِ
خوفًا على نِضْوِ بَراه البِلى فبعضُه يبكي على بَعْضِ

وقال ابن الرومي أيضًا:

ولي طيلسانٌ ناحلٌ غير أنه ثَبوتٌ لَهبَّاتِ الرياحِ الزعازعِ
وما ذاك إلا أنه مُتهتِّكٌ يُخَلِّي سبيلَ الريحِ غيرَ مُنازِعِ
أَراه كَضَوْءِ الشمسِ بالعينِ رؤيةً ويمَنعُني مِن لَمْسِهِ بالأصابعِ

ولابن الرومي أرجوزةٌ في الطيلسان:

لي طيلسانٌ أنا في يَديْهِ مثلُ الأسيرِ خانعٌ لديهِ
زعزعتِ الأيامُ جانبيهِ قد هَدَمَتْ أيامُهُ ركنيهِ
تُسرعُ كلُّ آفةٍ إليهِ كأنَّ كُلَّ صيحةٍ عليهِ

فهذا الطيلسان مثل المنافقين الذين يحسبون كل صيحة في العسكر دعوةً للفتك بهم كما جاء من وصف الله لهم في سورة المنافقون: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾﴾. صدق الله العظيم.

وقد نُشِرَ ديوان الحمدوي في العراق، حققه أحمد النجدي ونشرته مجلة المورد في خمسٍ وعشرين صفحة. ولم يتيسَّر لنا الاطلاعُ عليه.

(أقول وأنا أحرر هذا الحديث: قد سمعه من الإذاعة رجل عراقي، فبعث إليَّ بذلك العدد من المجلة. وتراسلنا مدةً ثم انقطعنا).

نزيف دماء ودموع

لا شيءَ ينفعُ في هذه اللحظة المتلجلجة. قد أعددت أحسن أقلامي وملأته حبرًا أسود كما أشتهي، وهيأت الورق، وما أهملت ما يلزم من الشاي والقهوة. لكنَّ أجمل الكلام هو الذي أنسِّقُه في عقلي (أو «أزوِّرُه في نفسي» بتعبير القدماء) وأنا في الحافلة أو القطار. أرصفُ العبارات وأتخيَّر أحلى المفردات وأوقَعَها، وتخرجُ الفَقرة تتهادى كالعروسِ تامَّةَ الحُسن ليس ينقصها شيءٌ إلَّا القلم والورقة. وأجيء إلى منضدتي وعليها كلُّ اللوازم، فإذا أنا قد نسيت عباراتي التي ألَّفتُها في عقلي.

هذه لحظةٌ عصاني فيها ما أريدُ من بليغ القول، فأنا أُزجي إليكم ما أطاعني. وأفتتح ببيت شعر:

وإنَّا وسَعْدًا كالفصيلِ وأمِّهِ إذا وَطِأَتْهُ لم يَضِرْهُ اعتمادُها

هذا بيتٌ نسبه الثعالبي في كتابه **خاص الخاص** للفرزدق، ولكن الديوان أنكره.

يقول الشاعر -كائنًا مَن كان-: إن العلاقة بين قبيلتنا وقبيلة سعد تحتمل أن يجور أحدُنا على الآخر بعض الجور، ولا ينشأ عن ذلك أذىً ولا عداوة. فالناقة تَطَأُ بأخفافها فصيلَها، ولدها، ولكن ذلك لا يضيره، لأن أمَّه أرأفُ به من أن تؤذيه.

وقد رأيتُ هذا البيت في **البيان والتبيين** للجاحظ منسوبًا أيضًا إلى الفرزدق، ولكنه هناك محكيٌّ عن رجلٍ اسمه سعد لا عن قبيلة، والبيت عند الجاحظ:

وإنّي وسعدًا كالحُوار وأمّه ... إذا وَطِأَتهُ لم يَضِرْهُ اعتمادُها

والحوار هو ابن الناقة الرضيع، وأما الفصيل فهو «اللطيم» أي الذي فصل عن أمّه. ولعل هذا البيت مأخوذ معناه من بيتين قالهما أبو الجهم العدويُّ في معاوية بن أبي سفيان:

نُقَلِّبُهُ لِنَخْبُرَ حالتيْهِ ... فنخبُرُ منهُما كرمًا ولِينا
نَميلُ على جَوانِبِهِ كأنّا ... نَميلُ إذا نَميلُ على أَبِينا

فالشاعر يُدِلُّ على معاوية، صاحبِ الشَّعرة المشهورة. الفكرة واحدة. ولا نجزم بأن الفرزدق هو الذي أخذ المعنى، فهو أدرك أيام معاوية، وقال فيها شعرًا كثيرًا، ولكن أبا الجهم العدوي كان آنذاك شيخًا فانيًا. وأختمُ بأبياتٍ للبحتري في احتراب الأقارب من قصيدة يقول في أولها، وليس بمطلع:

حملتُ هواها يومَ مُنعَرَجِ اللِّوى ... على كَبِدٍ قد أَوهَنَتْها صُدوعُها

يقول البحتري في احتراب الأقارب:

تَذُمُّ الفتاةُ الرُّودُ شِيمَةَ بعلِها ... إذا باتَ دون الثأر وهو ضجيعُها
حَمِيَّةُ شعبٍ جاهليٍّ وعِزَّةٌ ... كُلَيْبِيَّةٌ أَعيا الرجالَ خُضوعُها
وفرسانُ هيجاءٍ تَجيشُ صدورُها ... بأَحقادِها حتى تضيقَ دروعُها

تُقَتِّلُ مِن وِتْرٍ أَعَزَّ نفوسِها عليها، بأيدٍ ما تكاد تُطيعُها
إذا احتَرَبَتْ يومًا ففاضتْ دماؤها تذكَّرتِ القُربى ففاضت دموعُها

فهؤلاء الفرسان يقترفون القتل لما في صدورهم من أحقاد وأوتار، والوتر هو الظلم الذي يستوجب الثأر، ثم يندمون.

بين بروكلمان ومجنون ليلى

لا فائدة عمليةً من درس الشعر الجاهلي أو الأموي. ولا فائدة عمليةً من الشعر الحديث ولا من درسه. ولن تستفيد دينًا ولا دنيا من قراءة (بَلهَ حفظَ) أشعار حسان بن ثابت في مدح الرسول والدعوة. فحفظُ آية أو حديثٍ خيرٌ لمعادك، وفهم قوانين نيوتن للحركة أفيد لك في الدار العاجلة. لا يضير الطبيبَ الجراحَ أنه لم يدرس في صباه أشعار امرئ القيس، ولا يزيد في علمه أنه كان درسَها. الشعر متعةٌ لمن يستمتع به. وكأنّي برجلٍ يقول: إن كان ذلك كذلك، فلنعلّم أولادنا أشعار المعاصرين التي ليس فيها كلمات صعبة فهذا أجدر أن يمتعهم، إذِ المطلوب مجرد المتعة.

ما أسهل هذا المنطقَ وما أصحَّه! لولا أن عتيقَ الخمر له طعمٌ يعرفه من يعرف الخمر، ويتحرَّج (من لا يعرف) أن ينكره حتى لا يوصَمَ بالجهل وقلة الدراية.

أذكر كلمةً للمستشرق الألماني كارل بروكلمان عن الشعر العربي. وقبل أن أذكرها أذكّر ببروكلمان. هذا الرجل ألَّف كتابًا كان جريدة إحصاءٍ لكل من كَتب، ولجميع ما كُتب، باللغة العربية قديمًا. ولن يستطيع الباحث العربي – وأنا الآن أقتبس عن عمر فرُّوخ أحد النوابغ من تلاميذ بروكلمان – أن يستغنيَ عن ذلك الجهد الجبار، وسيظل كتاب بروكلمان بأجزائه الكثيرة دليلًا ثمينًا في أيدي الباحثين في آداب اللغة العربية وفنونها مدة طويلة جدًّا. انتهى كلام عمر فرُّوخ.

بـدأ بروكلمان عمله العظيم عام ألف وتسـعمئة واثنين، وقلَّده وترجم عنـه جرجـي زيدان في كتابـه المهم عن **تاريخ آداب العـرب**، واقتفى أثره كلٌّ من كتب في تاريخ الأدب العربي في القرن العشرين.

هذا الرجل قال: إنه يذكر الأشعار وأصحابها، ولا يتناول قيمتها الفنية ولا أثرهـا فـي النفـس، فذلـك أمر يُحسـنه العرب فقـط. وأنا أحتـرم هذا التواضـع وهـذا الفهـم. قد حاول بعض المستشـرقين خوض هـذه اللُّجة لكنهم غرقوا. هذا نيكلسـون الإنجليزي ينشـر كتابًا عربيًّا قديمًا فيه شعر، وتنظـرُ إلـى الأخطاء التي يرتكبها في فهم الشـعر – رغم سـعة علمه ودقة تحليلـه – فـلا تملـك إلا أن تبتسـم. إنه لا يتذوق شـعرنا كمـا نتذوقه. بل يعرض ما يقرأُ منه على معجمه الواسع من المفردات العربية، ويحاول أن يفهم بعقله دون قلبه، وهيهات.

صادفنـي موقـفٌ يصلـح التمثيـلُ به هنـا. كان هـذا منذ أسـبوعين مع تلميـذة ألمانية تدرس الشـرق الأوسـط المعاصـر. أردتُ أن أعطيَها مثالًا على الشـعر العربي القديم، واخترتُ «القصيدة المؤنسـة» لمجنون ليلى. وكـم رجلٍ شـرق أوسطي تودد إلى شقراوات ألمانيا بشرح قضايا بلده... هـذه هـي الوطنية الزائدة عن الحد! أنا انتقيتُ قصيدةً في الحبِّ العذري، ولهذا ما له من دلالة. بدأت أقرأ وأترجم، ثم شـعرت أن ما أقوله لا يزيد عن أن الرجل يداوي نفسه بإنشاد الشعر، وأنه ذاهل القلب وأنه يرجو أن يجمع الله الشـتيتين. ثم كانت النتيجة أن هذه القصيدة أفضلُ شـاهد على أن ترجمة الشـعر أمر سـخيف حقًّا. ووافقتني السـيدة الألـمانية، وضربت مثـالًا مـن شـعر شـيلر الذي يجـد له الألمـان رونقًـا ولكنه يتلاشـى على الترجمـة. «المؤنسـة» هـذه قصيـدة عظيمة. سُـمِّيت كذلـك؛ لأن مجنون

ليلى، سيد العشاق في الشعر العربي، كان يأتنس بترديد أبياتها دون سائر شعره. كان يؤنس روحَه المتوحش في الفيافي بهذه القصيدة. هذا شعر يسيل رقةً، يترقرق:

تذكَّرتُ ليلى والسنينَ الخواليا ... وأيامَ لا نخشى على اللهوِ ناهيا
فيا ليلَ كمْ مِن حاجةٍ لي مُهِمَّةٍ ... إذا جئتُكُمْ بالليل لم أَدْرِ ما هيا
فما أُشْرِفُ الأَيْفاعَ إلَّا صَبابةً ... ولا أُنشِدُ الأشعارَ إلَّا تَداويا

مجنون ليلى هو الذي أوصل العشق العذري إلى الغاية. لقد أحبَّ حتى الهيام، أحب حتى استوى عنده الموت والحياة. أحبَّ حتى الموت، ومات هائمًا على وجهه.

قالوا: لا كان ثمةَ قيسٌ ولا ليلى. إن هو إلَّا حديث خرافة. فليكن. ليكن هذا القيس خرافيًا. إنني أحسُّ بوجودِه وأتمثَّله رجلًا من لحم ودم، أكثر من ثلاثة أرباع الشعراء القدماء والمحدثين الذين وُثِّقت حياتُهم توثيقًا. والقصيدة المؤنسة تُنسَب أبياتُها إلى كثيرين، وقد اجتمعت هذه الأبيات من قصائد عديدة. ولكن الروح واحدة. السبعون بيتًا التي أكتب ما أكتب وأنا أتردد بينها قارئًا مستمتعًا، ترفرف عليها روح واحدة، روح مجنون ليلى. وأوضح صورة للمجنون هي التي رسمها في خمس وتسعين صفحة صاحب **الأغاني**. وهذه الصورة إنما هي لحالة العشق المطلق. أما المجنون فلعله أشخاص عديدون، ولعل أشعاره أشعار خلق كثير.

شكوى لا محل لها

تأتـي علـى المـرء لحظـةٌ يـكاد فيهـا يطير عن وجـه الأرض مـن فرط السـعادة. وهـو في هـذه اللحظة يظـن أن التعاسـة لن تعـرف طريقَها إلى حياته. لا يكاد يتخيل أن بوسعِ الدهر أن يأتيَه بيوم نكد. وتنقضي اللحظة الحلـوة، لحظة قمة النشـوة، وتتلاشـى، ويعود المرء إلـى وضعه العادي. وسرعان ما تأتيه الأيام بالنكد.

تأتـي لحظـة الضغط والقهـر والكبت، ويحس المرء بالحصار. تشـعُرُ بـأن النـاسَ كلَّهـم عليـك، وأن جسـمك يخذلُـك، وأنَّ صاحـب البيـت يضطهـدك، وأن شـركة الكهربـاء وقَّتت فاتورتهـا في هذا اليـوم توقيتًا. يا ربـي، ما أبشـع لحظـة الحصـار، لحظة تصطلح علـى ابـنِ آدم فيها العلل والنكـود. وقـد يكـون مصـدر النكـد منك، مـن جُـوَّاك. تـرى رفيقك قد انتعشـت حالـه: بنـى دارًا ثانيةً وزوَّج ابنَه زيجةً حسـنةً، فتتكدر عيشـتُك، وتقول في نفسك: «هذا الرجل كان ابنَ صَفِّي في المدرسة، وكان يُضرَبُ ضربَ الإبل الغريبة لسماكة دماغه ومشاكسته. وأخرجه أبوه من المدرسة وهو لا يكاد يفك الحرف». يا أخي حنانيك! هل تريد أن يرزق الله الناس على قدر عقولهم؟ اسمع أولًا ما قال أبو تمام في هذا:

وَلو كانت الأرزاقُ تجري على الحِجَا هَلَكْـنَ إذنْ مِـن جَهْلِهِـنَّ البَهائـمُ

والحجا هو العقل. الشعراء قالوا كثيرًا في غدر الدهر، وفي أن الحمقى أصحاب حظ. هذا كثيرٌ جدًّا في الشعر العربي. أعتقد أن المجتمع لا يريد

عددًا كبيرًا من العباقرة. ما فائدة الحصول على ابني سينا أو نيوتُنين؟ إذا احتاجت مدرسةُ القرية إلى معلِّمٍ واحد للحساب، فلا ينفع القريةَ أن يكون فيها عشرونَ معلِّمًا للحساب. وإذا احتاجَ المجتمع إلى ألفِ مهندس، فليس مما يسرُّ العاقل أن يرى آلاف المهندسين يتسكعون في الشوارع. ليتهم يتسكعون فحسب، بل تتسكعُ ألسنتُهم بالشكوى واتهام المجتمع بالظلم. وتراهم يحسدون الفوَّال والخباز والبنَّاء، ويذُمُّون الدهر والمجلس البلدي.

قد أرى امرَأً غنيًّا ورث مالًا لا تأكله النار، ولا يبلعُه البحر، وقد أراه قاعدًا مستريحًا. وقد يكون هذا الغنيُّ الوارثُ أبلهَ وبخيلًا. وقد أكون أنا أحسنَ منه عقلًا أو علمًا، ولكنني لا أملك إلا ما يستر العورة ويصُدُّ الجوع، وإنني لأقضي النهار في عملٍ دائبٍ. ما المشكلة في هذا الوضع! للمجتمع قوانين، تتوزع وفقها الثروات، ومنها قانون الإرث. والناس تعجبهم قوانينُ المجتمع إذا خدمتهم، ولا تعجبهم إذا خدمت غيرهم. نعود إلى بيت أبي تمام ونُقعده بين بيتين يكونان له كالإطار للصورة يُبرز جمالها، أو كالكُحل في العين. أو يكونان كصديقتَي الغانية الفاتنة، تكتنفانها فيزيد حضورُهما من جمالها.

قال أبو تمام:

ينال الفتى من عيشِه وهو جاهلٌ ويُكدي الفتى في دهرِه وهْوَ عالِمُ

ولو كانتِ الأرزاقُ تجري على الِحجا هَلَكْنَ إذنْ من جَهلِهنَّ البهائمُ

فلم يجتمِعْ شرقٌ وغربٌ لقاصدٍ ولا المجدُ في كفِّ امرِئٍ والدراهمُ

الأرزاق على الله

القصَّـارِ فـي لغة الأقدمين غاسـلُ الثياب، وفي لغتنـا المعاصرة: الذي يكسو الجدران بطبقة من الجبس. هذه مقدمة لغوية.

أتذكر قصة عامل في مهنة القصارة عمل نهارًا في ترميم جدارٍ في بيت أحـد الأغنيـاء، وكان بيتًـا قصرًا. وفي آخـر النهار ألحَّ الغنيُّ في مسـاومته وأراد أن يبخسـه أجـرَه. فأجـال القصَّـارُ بصـره فـي أرجاء بهـو الجلوس الواسـع الذي تتدلَّى من سـقفه ثريًّا بديعةُ الصنع، وقال للغني: «سـتخرج مـن هنـا يومًا مـن الأيام إلـى حجرة متريـنِ في متـر». فامتُقِعَ وجـهُ الغني واضطرب وأُرتج عليه. ثم فكَّ الله عقدة لسـانه فأخذ يحاول إقناع العامل بـأن يأخـذ فوق ما طلـب، وأن يسـامحه، والعامـل يتأبّى الزيـادة، ويجود بالمسـامحة، هكـذا القصة. وأحِبُّ أن أضع لها نهايـةً معقولةً أكثر بعد أن قـال العامل تلـك العبارة، ضحك الغني ضحكة فيهـا نفاق وتودد كاذب، وربَّتَ على ذراع العامل، وقال له: «ستأخذُ حقَّك يا هذا، أنا لا أضيِّع حق أحد». ثم عاد الغنيُّ إلى المساومة حتى قبل العامل، ولكنه ما رضي. أرى أن ذلك أشـبهُ بطبيعة الإنسـان الذي لا ينسـى الجشـع، حتـى على فراش الموت. الإنسان... كائن جبَّار جبَّار... من الجبروت.

ولكـن هناك من الكائنات الإنسـانية من يمكن تسـميتُهم بالمسـاكين. ومنهم ابنُ زريق. وهو شـاعر بغـدادي أراد أن يتزوج بابنة عمه، ولكنه لم يكـن يملـك مهرَها، فارتحل إلى بلاد بعيدة، قيـل: إلى الأندلس. وامتدح

أحد الأمراء بقصيدة عصماء كما تقول القصة. وأراد الأمير أن يداعبه فأظهر له عدم الرضا عن قصيدته، ولم يَجزه بشيء. وكان ابن زريق من الناس الذين لا يلاحقون الأمور حتى تمامها، ويسلّمون بالإخفاق بسرعة. ذهب ابن زريق إلى الخان الذي كان ينزل فيه، وكتب قصيدة يشكو فيها حاله. قال يخاطب ابنة عمه:

لا تعذليهِ فإنَّ العذلَ يُولِعُهُ ... قد قلتِ حقًّا، ولكنْ ليس يسمَعُهُ
يكفيهِ مِن لوعةِ التَشتيتِ أنَّ له ... مِن النَّوى كلَّ يوم ما يروِّعُهُ
كأنَّما هو في حِلٍّ ومُرْتَحَلٍ ... مُوَكَّلٌ بفضاءِ اللهِ يَذرَعُهُ
قد وزَّع اللهُ بين الخلقِ رزقَهُمُ ... لم يخلُقِ اللهُ مَخلوقًا يُضَيِّعُهُ
أستَودِعُ اللهَ في بغدادَ لي قمرًا ... بالكَرْخِ مِن فَلَكِ الأَزْرار مَطلَعُهُ
ودَّعتُهُ وبوُدِّي لو يودِّعُني ... صَفْوُ الحياةِ وأنّي لا أُوَدِّعُهُ
وكم تَشَبَّثَ بي يومَ الرحيلِ ضُحىً ... وأَدمُعي مُستهلَّاتٌ وأدمُعُهُ
عسى الليالي التي أَضْنَتْ بِفُرقَتِنا ... جسمي، ستَجمعُني يومًا وتجمعُهُ
وإن تَغُلْ أحدًا مِنَّا مَنِيَّتُهُ ... فما الذي بقضاءِ اللهِ يصنعُهُ

وضع ابنُ زريقٍ الرُّقعةَ التي كتب فيها قصيدته تحت وسادته، ونام في غم وكرب شديدين، بالرغم مما يقوله الشعراء من أن الشاعر إذا كتب مشاعره في قصيدة أحسَّ براحة كبرى. وفي الصباح جاءت رسل الأمير إلى الخان يطلبون ابن زريق، فالأمير يريد أن يكافئه بمال كثير بعد أن عبث به وأوهمه أنه لم يرض عن القصيدة. وجدوا ابن زريق ميتًا، ووجدوا تحت وسادته القصيدة. هذه قصة ابن زريق كما روتها كتب الأدب القديم، ولم يُعرف له شيء من الشعر سوى هذه القصيدة، وهي من عيون الشعر الوجداني القديم، وهي في الرواية التي بين يدي ثمانيةٌ وثلاثون بيتًا اخترت منها تسعةً.

خمريات حافظ إبراهيم

قد شَرَطتُ على نفسي في عدد كبير من هذه الأحاديث الضعيفة التي أُثقِلُ بها عليكم شرطًا: ألا يكون في تضاعيف كلامي بيتٌ من الشعر يقلُّ عمرُهُ عن ألف سنة. ثم هأنذا أتحلل مما ألزمتُ به نفسي، وآتي بشعر لم تمرَّ عليه مئة سنة بَلْهَ ألفًا.

أحدثكم اليوم عن «خمريات» حافظ إبراهيم، وهي في ديوانه تسعةٌ وخمسون بيتًا. وهي على الطراز العتيق: أمضي في القصيدة أبحث عن معنى يشير إلى أنها قيلت في هذا القرن العشرين فلا أجد. أرى الديباجة كديباجة أبي تمام ومسلم بن الوليد. واتركوا أبا نواسٍ فليس له في الخمريات قَبلٌ ولا بَعد.

يا ساقِيَّ عليَّ بالصَّهباءِ ... هذا الظلامُ أثار كامِنَ دائي

تَحريمِها، والذَّنْبُ للقدماءِ ... مشمولةٌ لولا التُّقى لَعجِبتُ مِن

نزلَ الكتابُ بحِكمةٍ وجَلاءِ ... قَرُبوا الصلاةَ وهُمْ سُكارى بعدَما

والمشمولَةُ هي الخمر وكذا الصهباء، يقول حافظ: إنه كان يريد أن يتعجبَ من تحريم الخمر، ولكنَّ التقوى تمنعه من ذلك. وهذا شبيهٌ بقولك لجارك: «لولا خوفي من غضبك لقلت: إنك لصٌّ». ثم يلقي حافظ على القدماء تَبِعةَ تحريم الخمر؛ ذلك أن القرآن نهى عن الصلاة مع السُّكر فخالف بعضهم الحكم، فنزل التحريم غير المشروط. وهذا بيت آخر من القصيدة:

يا زوجةَ ابنِ الـمُزْنِ يا أختَ الهنا   يـا ضَـرَّةَ الأحـزانِ فـي الأحشـاءِ

وتفسير البيت أن الخمر هي زوجة الماء (المزن هو السحاب وابن المزن هو الماء) وإنما سمَّاها زوجة لأن الشاربين يزوِّجون الخمر بالماء، أو يكسرون حدَّة الخمر بالماء. ثم إنها أخت الهنا والسرور، وضَرَّة الأحزان فلا تجتمع مع الحزن في قلب الإنسان. وقد جمع حافظ في بيته هذا ما طاب له من الأقارب (الزوجة والأخت والضرة) وفي هذا شيءٌ من الطرافة.

ثم يقول حافظ بعد أبيات:

أَلَّفـتُ بيـنَ ابـنِ السـحابِ وبينَها   فرأيـتُ صِحَّـةَ مـا حـكاهُ الطائي:
صعُبَتْ وراضَ المزجُ سيئَ خُلْقِها   فتعلمـتْ مـن حُسـنِ خُلْـقِ الماءِ

فهو عندما كسر الخمرة بابن السحاب،الماء، رأى صحة قول أبي تمام الطائي... ثم ضمَّن البيت.

وبيت أبي تمام مصنوع بفكر ورويَّة، وليس فيه الدفقُ الشعوريُّ الذي نفتقدُه أيضًا في أبيات حافظ المصنوعة. على أن هذا البيت المتضمَّن، الذي يزيد عمره عن ألف سنة، هو أجمل أبيات قصيدة حافظ. ولحافظ قصيدة خمرية خيرٌ من هذه؛ يقول:

فِتيةَ الصهباءِ خيرَ الشـاربينْ   جَـدِّدوا بـاللهِ عهـدَ الغائبينْ
وأذكروني عند كاساتِ الطِّلا   إنَّني كنـتُ إمامَ الـمُدمِنينْ
رُبَّ ليـلٍ قـد تعاهَدْنـا على   مـا تعاهدْنـا وكُنَّـا فاعليـن
فقضَيْنـاهُ ولـم نَحْفِـلْ بمـا   سَطَّرَتْ أيدي الكرامِ الكاتبين

والكرام الكاتبون الذين لم يحفل بهم حافظ إبراهيم وصحبه السكارى هم الملائكة الذين ذكرهم الله في كتابه العزيز: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝١٠

كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ صدق الله العظيم وكذب المفترون. نستأنف القصيدة:

وتَواثَبْنـا إلـى مَشْـمولَةٍ ذاتِ ألـوانٍ تَسُـرُّ الناظريـنْ
عَمِـدَ السـاقي لأنْ يقتُلَهـا وَهْيَ بِكْرٌ أُحْصِنتْ منذُ سنينْ
ثـم لـمَّا أن رأى عِفَّتَهـا خاف فيهـا اللهَ ربَّ العالمينْ
وأَجَلْنـا الـكأسَ فيمـا بينَنا وعلى الصَّهبـاءِ بِتْنا عاكفينْ

فالساقي أراد أن يقتلَ الخمر بمزجها بالماء، ثم رأى أنها كالفتاة البكر ظلت محصنة عفيفة سنين طويلة، فخاف ربَّهُ أن يُلَوِّثَ عفتها فتركها دون مزج، فشربوها صرفًا غير مكسورة.

الدكاترة الجهلة

يَحسُـن بالمرء ألَّا يتنطَّح لصنع ما لا يُحسـن. إذا نزَّ الماء من حنفيَّتِك فاستدع السبَّاكَ وادفع له. ذلك أروح لك وأخف وطأة على وقتك، وعلى نفسيتك. وإذا تلـف جهازُ التسـجيل فألـقِ به في صفيحـة القمامة... فلن تنتفـعَ بـه لأيِّ غَرَضٍ آخر، فهو قد صُنع ليكون جهاز تسـجيل، فإن أخفق فـي هـذه المهمـة فلا أنصحُـك أن تُوكل إليـه مهمة أخـرى، أو أن تحاولَ اسـتدرار قيمة أخرى منه. اسـمع الموسـيقى من الراديو، أو اشـتر جهازًا جديدًا إن كان معك نقود.

وإذا تعسَّر عليك فهمُ بيتِ شعرٍ قديم فاتركه، فهو لا يستحق التعب في معظـم الحـالات، ولا تفعل ما يفعله المحققون الجـدد. أولئك قوم فيهم صفاقـة عجيبـة، وأكِـدُّ ذهني الآن للعثـور على رجل منهـم يخلو من هذه الصفـات ولا أوفَّـق. أولئـك تلاميـذُ فـي الجامعـات يـرون أيسـرَ سـبيلٍ للحصـول علـى الـماجسـتير أو الدكتـوراه تحقيقَ مخطوطة ثـمَّ طبعَها في كتاب. وتراهم يصرُّونَ على الطبع حتى تعرف بناتُ الحيِّ أنهم مؤلفون، وحتى يُثبتوا في طلبات التوظيف أسماءَ الكتب التي أخرجوها. والتحقيق الـذي يصنعونَـه مُؤلمٌ لكل من يحـب التراث. معظمهم يتنـاول كتابًا كان حقَّقَهُ بعضُ العلماء الأجلَّاء وطبعه، يجدون نسـخةً خطيةً أخرى لم تكن مكتشـفةً أيـام التحقيقِ الأصلـي، ويعيـدون تحقيق الكتـاب مضيفين إليه مئـات الأخطـاء المطبعية، وأخطـاءً في الفهـم ويخرجونه خلقًا مشـوَّهًا، وتكون النسـخة الخطية المكتشفة في غالب الأحيان منسوخة عن إحدى

النسخ المعتمدة في التحقيق القديم، فلا يكسب المرء من التحقيق الجديد سوى أوهام ناسخ إضافي تطبع في الهوامش أو في المتن. وعلى ذكر الهوامش، فهؤلاء التلامذة الخائبون يحبون أن يشرحوا لك أبيات الشعر. فتراهم يشرحون الكلمات السهلة، ويتركون الصعبة. هذا شيء يغيظ جدًّا؛ لأنه عمل من يريد أن يضحكَ عليك ويُوهِمَكَ بأنه صنع شيئًا. أريد أن أقرّبَ الأمر على من لم يفهم سرَّ الغيظِ الذي أشعرُ به من هؤلاء المتطفلين. تخيل أنك أخذتَ جهازَ التسجيل إلى رجلٍ ليُصلِحَه، فالمسجل يأكل الشريط، والصوت فيه خشخشة وهو لا يتوقف آليًا عند انتهاء الشريط، وما إلى ذلك من الأعراض المألوفة في أجهزة التسجيل التي بلغت أرذل العمر. عندما ترجع إلى الرجل لتأخذ الجهاز تراه يلمع؛ لقد نظفه من الغبار والأوساخ، وتظنُّ المسجل قد صلح، وتذهب إلى البيت وتكتشف أن الرجل لم يصنع غير ما رأيت. كُتب هؤلاء التلامذة مثل أجهزة التسجيل التالفة. أفضل مكان لها صفيحة القمامة.

ما زال هناك شيء لم أقله.

أنا أعرف أن المحقِّقين المزيفين كانوا موجودين في الماضي. وعندي شيء من كتب أولئك أيضًا. كانوا يتسللون إلى بعض الناشرين، وناشرو ذلك الزمن مثل ناشري هذا الزمن تجارٌ يحبون الكسب، وبعضهم كان أميًا. ولا حاجة بي إلى ذكر الأسماء. وكان بعض أولئك المدلِّسين من محققي الكتب القديمة القدامى ينشر الكتب أحيانًا على حسابه ارتقابًا لربح كبير. أما اليوم فالشأن مختلف. التحقيقات الهزيلة المزيفة السقيمة المشحونة بالأغلاط واجتهادات التلامذة، يصدرها اليوم أساتذة جامعيون وتلامذتهم. هذه الأشياء تصدر الآن بمباركة الجامعات. وقد ترى

الجامعة ترفع إلى وزير الثقافة في بلدها قائمةً بأسماء الكتب التي حققها تلامذةُ الدراسات العليا، فلا يملك الوزير إلا أن يحافظ على ميزانية الجامعة أو يأمرَ بزيادتها، والوزير لا يقرأ سوى القائمة، وموظفوه لا يقرأون.

وكي ألتزم بشرط هذه النافذة التي أطل عليكم منها أبحث عن بيتِ شعر... بيتٍ فيه هجاءٌ للأدعياء والمتعالمين... هجاءٌ للذين يجب أن يقفوا عند العتبة بجانب نعال القوم ليسمعوا، ولا يفتحوا أفواههم، غير أننا نراهم يتصدَّرون المجالس، ويملأون الجامعات. قال شاعر أعرفه حق المعرفة، وقد رأى تلاميذ خائبين وتلميذات، يعيدون تحقيق كتب التراث ويأتون في ذلك بالفواحش:

رُبَّ جهولٍ ورُبَّ جاهلةٍ لها مكانٌ في الجامعاتِ وَلَهْ
وَهْيَ بِسِرِّ التراثِ عالمةٌ لها ولوعٌ جَمٌّ بِهِ وَوَلَهْ
وهْوَ هَواهُ اجْترارُ ما أكلوا تلك لَعَمري هِوايَةُ الجَهَلَةْ
دعِ التراثَ المطبوعَ في كتبٍ ذاكَ قتيلٌ سِواكَ قد قَتَلَهْ

الديوان فوق رأسي

سأحدِّثكم اليوم عن ديوان ابن الرومي. ومقدمةُ حديثي أطولُ من الحديث نفسه.

فُتنت بابن الرومي بسبب أبياتِ الزلابية، وأحسب أن كثيرين فتنوا به للسبب نفسه. أقرأونا في المدرسة قوله في قالي الزلابية:

رأيتُه سَحَرًا يقلي زلابِيَةً في رقَّةِ القِشر والتجويفِ كالقَصَبِ

كأنَّما زيتُه المغليُّ حين بدا كالكِيمِياءِ التي قالوا ولم تُصِبِ

يُلقِي العجينَ لُجَيْنًا مِن أنامِلِهِ فيستحيلُ شبابيكًا مِن الذهبِ

يقول ابن الرومي: إن الكيمياء، التي كان أصحابها في ذلك الزمن يؤمِّلون بها تحويل المعادن الرخيصة إلى ذهب، هذه الكيمياء لم تنجح، ونجح قالي الزلابية: فهو يلقي العجين الأبيض من يده لجينًا، أي فضةً، في الزيت، وبعد هنيهة تستحيل الفضة شبابيكَ من الذهب.

قرأت هذه الأبيات في المدرسة وخرجت إلى الشارع فرأيت الزلابية، وقلت في نفسي: «إن من البيان لسحرًا». بحثت عن **ديوان ابن الرومي** فوجدت كتابًا بهذا الاسم صنعه الشيخ محمد شريف سليم صادرًا في مِصر عام ألف وتسعمئة وسبعة عشر، وفيه قصائد ابن الرومي مرتبة على أحرف الهجاء حتى حرف الجيم. ورحت أبحث عن الأجزاء الأخرى سدى. ثم عرفت أن الرجل لم يصدر سوى هذا القدر من الديوان. ثم رأيت مختارات من أشعار ابن الرومي جمعها كامل كيلاني عام أربعة

وعشـرين، ولكنها علـى كبر حجمها مجرد مختـارات. وظللت بعد ذلك أبحـث عـن **ديوان ابن الرومـي** الكامل، وقد ثبت عندي أنـه لم يطبع، فلو كان طُبـع لرأيتـه مـن مكتبة مـن مكتبات الجامعـات التي زرتهـا. ثم وقع بصري على هذا الشيء المنشود قبل نحو تسع سنواتٍ. نعم إنه هو: **ديوان ابـن الرومي** بتحقيق د. حسـين نصار. كاملًا محققًا حسـن التحقيق. رأيته في مكتبة جامعية.

وأمضيت سبعَ سنوات أبحث عنه لشرائه فما أفلحت في العثور عليه. وقُيِّـض لـي أن أزور معـرض القاهـرة للكتـاب فـي عـام ثلاثـة وتسـعين، وبحثـت عنـه عبثًا. وقبل أسـابيع، وفي عامنا هذا، عام خمسـة وتسـعين، كنـت في معـرض القاهرة للكتاب. ولـم أبذل جهدًا خاصًا في البحث عن **ديـوان ابـن الرومـي**، كأننـي فقـدت الأمـل فـي العثـور عليـه. ثـم وقعت المفاجأة.

وجـدت الكنـز أمامـي فـي جناح الهيئـة المصريـة العامـة للكتاب. لـم أصنع مع هذا الكتاب ما أصنعه مع كل كتاب، من حَومٍ حوله وتفكيرٍ في السـعر وتحويـلٍ للعملـة، وتفكير في ثقله، وفي مشـقة حملـه من بلد إلى بلد. لم أفكر في أي شـيء من هذا. التقطت الأجزاء السـتة: جزءًا من كل كدس، ومضيت بها إلى منضدة المحاسـب مسـرعًا كأني أريد أن أسرقها لا أن أشـتريها. ثـمّ إننـي شـحنت ما اشـتريت مـن كتب في هذا الموسـم شحنًا. لكن ليس **ديوانَ ابن الرومي**. فهذا يجب أن يكون معي. وليس في الحقيبـة التي يضعونها فـي بطن الطائرة: أنا متوجِّه حتمًا إلى لندن، ولكن حقيبتـي قد تذهب إلى موسـكو. وضعت ديوان ابـن الرومي في حقيبة يدٍ تكون فوق رأسي في الطائرة، ويكون مصيرها مرتبطًا بمصيري. اشتريت

ديوان ابن الرومي الذي أُحسن تحقيقُه وطبعُه بنحو خمسة وثلاثين جنيهًا مصريًا. وأنفقت عليه ثمانيَ جنيهات إسترلينية في لندن (أي ما يعادل نحو أربعين جنيهًا مصريًا) لقصِّ الزوائد الورقية على الأطراف.

وديوان ابن الرومي كبير جدًّا. فيه نحوُ ثلاثين ألف بيت، حيثما يمَّمتَ في صفحات الديوان الألفين والسبعِمئة والخمسين قرأتَ شعرًا عذبًا، منه الذي يُبكي ومنه الذي يُضحك. وأفتح الجزءَ الأول على الصفحة رقم مئة، وأقرأ أربعة أبيات يهجو فيها ابن الرومي مغنيًا:

ليس كالسُّكرِ دواءٌ   لغناءٍ كالدواءِ
فاسقني عشرين رطلًا   لا تَشُبْهُنَّ بماءِ
فلعلَّ السُّكْرَ يكفيني   أذى هذا العواءِ
من رأى منتحِبًا غيري   على سوء الغناءِ

كلمتان يأباهما الشعر.. إلا قليلًا

مـرّ بـي ناقدٌ قديمٌ قال ما معناه: إن كلمة « أيضًا» خُلِقَت للنثر، وأنها ما دخلـت بيتَ شـعرٍ إلا أفسـدته. ثم إنَّ ذلك الناقدَ وجـد بيتًا فيه كلمة أيضًا واقعـةً موقعًا حسـنًا، قاضِيةً غرضًـا، فكانت الاسـتثناء لقاعدته. وتجربتي الشـخصية هـي مـع كلمـة أخـرى: كلمة «يسـتطيع». أعـرف أن الشـعراء أقعدوها في أبياتهم، وجعلوها أحيانًا «يسطيع» حتى لا يختل الوزن. ومن ذلك بيتٌ في معلَّقة طَرَفَة:

فـإن كنـتَ لا تسـطيعُ دفـعَ منيَّتـي   فدعنـي أبادرْهـا بمـا ملكـتْ يدي

علـى أنـي ظللـتُ أرى «يسـتطيع»، وأختهـا العرجـاء، واقفتيـن فـي الشـعر غيـر قاعدتين. هنأتُ نفسـي؛ لأنه صار لي أنا أيضًـا كلمة أخرى اكتشـفتُها تصلـح للنثـر، وتُفسِـد الشـعر. ثم مرَّ بـي بيتٌ صاغـه اللغوي والشـاعر العراقي عبد الحق فاضل. جاء البيت في الترجمة التي صنعها فاضـل لــ **رباعيات عمر الخيام**. والبيت في الواقع جزءٌ من رباعية شـاء لها المترجمُ أن تكون من ثمانية أشـطر من المجزوء، وهذه هي طريقته فـي كل رباعيـات الخيـام تقريبًا. يقول الشـاعر: إن الخمـر التي تضوع، تفـوح رائحتُهـا، أمـرٌ لا بـد منه لكـي يتمكن مـن حمل جسـمه. اللحظة الحلوة هي لحظة الانتشـاء، اللحظة التي يحثه فيها السـاقي: قدحًا آخر فاشـرب، ولكنـه فـي أوج الانتشـاء والاكتفـاء يقول: لا أسـتطيع. يقول الشاعر:

أنـا لا أحتمِلُ العيــشَ بلا خمـر تضوعُ
لا ولا أَحمِلُ جِسمي فَهوَ محمولٌ فظيعُ
أنـا أَهـوى لحظـةً يسـأَلُني السـاقي بِها:
قَدَحًـا آخـر فاشـربْ، وأنـا لا أسـتطيعُ

هذا مَحِلٌّ لا يسدُّ فيه شيءٌ مَسَدَّ كلمة «أستطيع».

مـا رأيُكم في رباعية أخـرى من عبدِ الحق فاضل، أحدِ أبرع من ترجم الخيام إلى العربية، على قلة نصيب ترجمتِه من الذيوع؟ يقول:

يــا إلهي أنـــا مَـــنْ قـــد بَرأَتْنـــي قدرتُكْ
فترعرغـــتُ عزيـــزًا دَلَّلَتنـــي نِعمتُـــكْ
سوف أمضي في المعاصي جاهدًا سبعينَ عامًا
لأرى مَعصِيَتـــي أوســـعُ أم مَغفِرتُـــكْ

لسـت أعرف يقينًا أيًا من رباعيات أحمد رامي في ترجمته المشـهورة والبديعة للخيام ترادف هذه. لعلها الرباعية الكلثومية:

إن لم أكنْ أخلصْتُ في طاعتِكْ فإنني أطمَـعُ فـي رحمَتِـكْ
وإنَّـمـا يـشـفـعُ لـي أنـني قد عشتُ لا أُشرك في وَحدتِكْ

الغنى والفقر والرحيل

تقيمُ الرجالُ الأغنيــاءُ بأرضِهِمْ وترمي النوى بِالـمُقْتِرينَ المراميا
فأكرِمْ أخاكَ الدهرَ ما عِشتُما معًا كفــى بالمنايــا فُرقــةً وتَنائيــا

فأكرِم أخاك الدهرَ: أي طولَ الدهر

هذان البيتان رأيتُهما منسوبَينِ لشاعر اسمه إلياس بن القايف في كتاب **المضنــون بــه على غير أهلــه** للزنجاني. وكنــتُ أمسِ قرأتُ أبياتًا لشــعراء مختلفين تدورُ على هذا المعنى في كتاب **العمدة** لابنِ رشـيق القيرواني. ولكــن، كيــف أعثرُ علــى تلك الأبيــات وقِراءتي فــي كتاب **العمــدة** قراءةُ عَجَب: أفتحُ الكتابَ كيفَما اتَّفَق وأقرأُ صفحةً هنا وفقرةً هناك، من أوله أو مــن وســطه أو من آخره، ولا أحقِّقُ بعد أن أطوِيَــهُ في أي مكان منه كنت. تناولتُ **العمدة** وقلت لنفسي: لا بد أن الصفحةَ التي كنتُ عندها أمسِ ما زال موقِعُها متأثِّرًا حتى الآن بِفِعلِ الشَّدِّ والتَّمسيد الذي صنعته وأنا مُكِبٌّ علــى ذلــك الموضع من الكتــاب. رميت **العمــدة** على كعبــه فانفتَحَ خبطَ عَشــواء، فإذا هو ينفتح على الصفحة عينِها، وفيها أبياتٌ لســعيد بن حُمَيد يعاتب صديقًا:

وأراكَ تكلَفُ بالعتابِ وودُّنا صافٍ عليه مِن الوفاءِ دليلُ
ولعــلَّ أيــامَ الحيــاةِ قصيــرةٌ فعــلامَ يكثُــرُ عَتْبُنــا ويَطولُ

ابــن آدم يتصرف وكأنه ســيعيش أبدًا. ولو اعتبــر المرء بقصة يرويها له جدُّه عن والد جده كيف اختصم مع شريكِه في تجارة، وكيف تطور الأمر

إلى فض الشراكة وما رافق ذلك من جفاء أو عداوة. ثم مات هذا ومات ذاك، ومسح الدهر بيده الخشنة فوق جبين تلك المسألة فلم تعد شيئًا مهمًّا مثلما كانت أيام حدثت، لو اعتبر المرء بتلك القصة لأدرك أن الحياة قصيرةٌ جدًّا حتى نتعادى فيها ونتفانى كما قال المتنبي:

ومُرادُ النفوسِ أَصغَرُ مِنْ أن ... نتعادى فيهِ وأن نَتَفانى

وقال أبو الطيب:

ذَرِ النفسَ تأخذْ وُسْعَها قبل بَيْنِها ... فمفترِقٌ جارانِ دارُهُما العمرُ

وبَيْنُ النفس: رحيلُها

وفي البيت تشبيه في منتهى الجمال: فأنت وصاحبُك جاران، ولكن ليس في المكان كما هي الجيرة، بل في الزمان. والدار التي تجمعكما ليست دارًا من حجرٍ أو خشبٍ بل من سنين، إنها العمر.

وها هو المتنبي الذي لم يكن شديد الشغف بالنساء، ها هو يعرض على محبوبته اتفاقيةً: يقول لها: دعينا نتمتع بجمال وجهك، فبعد سنوات سيزول هذا الجمال. وابذُلي لنا وصلك، ولا تُدِلِّي علينا، فليس عندنا وقت في هذه الدنيا التي سرعان ما سنرحل عنها.

زوِّدينا مِن حسنِ وجهِكِ ما دامَ ... فحُسنُ الوجوهِ حالٌ تَحولُ
وصِلينا نَصِلْكِ في هذه الدنيا ... فإنَّ المُقامَ فيها قليلُ

وهذا شاعرٌ آخر لم يسمِّهِ صاحبُ العمدة، يقول مخاطبًا صديقه:

ولقد علمتَ فلا تكنْ متجَنِّبًا ... أنَّ الصدودَ هوَ الفراقُ الأولُ
حَسْبُ الأَحِبَّةِ أنْ يُفرِّقَ بينَهُم ... رَيْبُ المنونِ، فما لنا نَستعجِلُ

ونعود إلى البيت الذي افتتحنا به الحديث:

تُقيمُ الرجالُ الأغنياءُ بأرضِهِمْ   وترمي النوى بالـمُقْتِرينَ المراميا

والمقترون بغير شدَّة الفقراء وهذا المقصود، وهي بشدَّة البخلاء. كانت الدولة العربية في ذلك الزمن القديم دولة عزيزة وغنية ويرتحل الفقيرُ من ولاية فيها إلى ولاية طلبًا للرزق. وفي زمننا صار الغني هو الذي يرتحل، وإن ارتحل فقير واغتنى في غربته بقيَ حيثُ هو. تغيَّر شكل الإقامة والارتحال، ولا أظن أن هناك مجالًا للمقارنة. قد ورَّطتُ نفسي في مسألة لم أحسن تدبُّرها. أترُكُها إلى أن تستقيم لي وقد لا تستقيم. وأختم ببيتين لشاعرٍ آخر له حُجَّةٌ قويةٌ في وجوب الارتحال لكي تتحسن الأحوال:

إذا كنتَ في دار وضامَكَ أهلُها   وقلبُكَ مَشغوفٌ بها فتغرَّبِ
فإنَّ رسولَ اللهِ لم يَستقِمْ له   بمكَّةَ أمرٌ فاستقامَ بيثربِ

ماذا أتعلم من الشعر؟

قد تمر بي عبارةٌ حكيمةٌ في موقف من مواقف العيش أو في كلام موجز يرتجله أحدهم أو ينقله، فلا تعلَقُ الحكمة بذهني، ولا أتعلم: إن اتَّفَقَ أن فهمت المراد من الحكمة، فسَرعان ما تختلط الأشياء عليَّ. وأسمع الحكمة في بيتٍ من الشعر جذبني إليه رنينه، فأحفظه بفهم أو بغير فهم. وتمر الأيام وأزداد فهمًا. البيت في الذاكرة ثابتٌ على حاله، وبيت الشعر قد رُكِّبت كلماته مثل البيت تبنيه من أوراق اللعب فلا تنهار ورقةٌ إلَّا انهار البيت كله. بيت الشعر يبقى على حاله قاعدًا في وزنه، ويجترُّه العقل ويجتلي معانِيَه، ويضيف إليه معاني جديدةً لم يحلم بها الشاعر في منامه. نحن العربَ تراثُنا التفكيري الشعوري موزون مقفًى. يستخفنا الشعر، ويملي علينا سلوكًا في مواقف كثيرة.

إذا وجدتُ نفسي في مجلس به حِسانٌ، وإذا رأيتُني ناعِمًا بهذا المجلس ألحَّت عليَّ أبياتُ أبي الطيب المتنبي:

لم يتركِ الدهرُ في قلبي ولا كَبِدي ... شيئًا تُتَيِّمُهُ عينٌ ولا جيدُ
يا ساقِيَيَّ أَخمرٌ في كؤوسِكُما ... أم في كؤوسِكُما هَمٌّ وتَسهيدُ
أَصخرةٌ أنا ما لي لا تُحرِّكُني ... هذي المُدامُ ولا هذي الأغاريدُ

ثم أذكر بيتي جميلٍ:

لِكلِّ حديثٍ بينَهُنَّ بَشاشةٌ ... وكلُّ قَتيلٍ عِندهُنَّ شهيدُ
يقولون جاهِدْ يا جميلُ بغزوةٍ ... وأيَّ جهادٍ غيرَهُنَّ أريدُ

ويدور الحديث. والحديث بين الرجال والنساء يدور في مسارات حلزونية تصيب بالدُّوار رأسَ من لا قِبَلَ له بالغزل وبالسهر وبالحياة الحلوة، وأقول: أليست هي إنسانةٌ وألستُ إنسانًا، وأليس يحكون طول الوقت عن المساواة، فما هذه اللعبة الغريبة، لعبة الغزل والنحلة واليعسوب؟ لا أفهم. ثم أتذكَّر بيتَ عمر بن أبي ربيعة، ومنه أتعلَّم أن الرجل شيء والمرأة شيء آخر:

كُتِبَ القتلُ والقتالُ علينا وعلى الغانياتِ جَرُّ الذيولِ

والقصةُ أن امرأةً يقال لها «عمرة» أسرَها مصعب بن الزبير بعد أن قتل زوجَها، المختار بن بن أبي عُبيد الثقفي)، وطلب إليها مصعب أن تبرأ من زوجها ومن معتقده، فأبَت، فحفر لها حُفيرةً أقيمت فيها وقُتلت، فقال عمر بن أي ربيعة:

إن من أعجبِ العجائبِ عندي قتلَ بيضاءَ حرةٍ عُطبولِ
قُتِلتْ بالملا على غيرِ ذنبٍ إنَّ للهِ درَّها مِن قتيلِ
كُتِبَ القتلُ والقتالُ علينا وعلى الغانياتِ جَرُّ الذيولِ

الذيول هي ذيول الثياب كما لا يخفى على المستمع اللبيب.

وقد أتذكَّرُ بيتَ الزهاوي:

في الغربِ حيثُ كِلا الجنسينِ يشتغلُ لا يفضُلُ المرأةَ المِقدامَةَ الرجلُ

ولعلي أرى في هذا البيت نكتة جميلة تضفي عليه لمسة شاعرية. النكتة هي أنه بيت ليس فيه شيء من الشعر ولا الخيال. إنه فكرة ساذجة وحسب، لكنها مُحَلاَّة بالوزن. لا أكاد أجد بيتًا يخلو من الخيال خلوَّ هذا البيت، ولذا أعُدُّه فريدًا.

وقد يمرُّ ببالي صديق لي كان يحمَدُ ربَّه أن ليست له أخَواتُ، حتى لا يتعرض لهن أحد، ولا يغازلهن أحد. ثم أتذكَّرُ الخنساء التي بَكَت أخويها صخرًا ومعاوية بديوان شعرها كله فخَلَّدَتهما.

كلَّما فكرت في شيء خرجت لي من ديوان الشعر العربي أفكارٌ جاهزات في أبيات الشعر.. هذا ينظِّم تفكيري، وهو أيضًا يشُلُّهُ ويضَعُه في قالب.

٧-٨-١٩٩٥[1]

(١) **ملحوظة تحريرية**: أحيانًا أترك تاريخ كتابة الحديث، وغالبًا أشطبه.

تشبيه غريب

تعالـوا أقـرأُ عليكم أبياتًـا للفرزدق موجـودةً في ديوانـه. لا تهربوا من الاسم: الفرزدق. أعِدكم بشعر طيب طيَّ هذه القصيدة، وهو صعب، لكنه غريـب. فـي هذه القصيـدة يوجد أطول تشـبيه مرَّ عليَّ في الشـعر العربي كله: تشبيهٌ طرفُهُ الأول بيتان، وطرفه الثاني عشرةُ أبيات:

ومرتَجَّـةِ الأَردافِ مِـن آلِ جعفـرٍ مخضَّبَـةِ الأطـرافِ بِيـضٍ نُحورُها
تَهـادى إلـى بيـتِ الصـلاةِ كأنهـا على الوَعْثِ ذو ساقٍ مَهيضٍ كَسيرُها

هـذه امـرأة جذابـةٌ مرتجـة الأرداف تذهب إلـى المسـجد، وهي تجر نفسـها جـرًا من الدلال والكسـل والنعمة وتتراقص فـوق الطريق الوعرة، فهـذا حجـر تتجنبه وتلك حفيرة تقع فيها، وهي آناء ذلك كله تترجرج من جسـمها مواضـعُ وترفَـعُ يديها فـي حركة تـوازنٍ فكأنَّها الطيرُ الذي كُسِـرَ جناحُـه فهـو يرفـرف لكنـه لا يطير (كذا أحـب أن أتخيل الصـورة، ولكن الشاعر ربما قصد البعير الذي كُسرت ساقه). ثم يُشَبِّهُ الفرزدق هذه المرأة التشبيه الطويل:

كـدُرَّة غـوَّاصٍ، رمـى فـي مَهيبـةٍ بأجرامِه والنفسُ يَخشـى ضميرُها

مـن أجل اللؤلـؤة رمى الغواص جسـمه في البحر الـمَخوف رغم أن نفسه تخشى.. ماذا تخشى؟

مُوَكَّلـةً بالـدُّرِّ خرسـاءَ قـد بكـى إليـه مـن الغـواص منهـا نذيرُهـا

النفس تخشى حيَّة البحر إلتي تحرس الدرة الثمينة، ولكن الغوَّاص لا يبالي بالخطر.

فقال أُلاقي المـوتَ أو أدركَ الغِنى ... لنفسـيَ والآجـالُ جـاءٍ دُهورُهـا
ولــمَّا رأى مـا دونَهـا خاطَـرَتْ بهِ ... علـى الموتِ نفـسٌ لا ينـامُ فقيرُها

ودون الدرة حية عظيمة تحميها، لكن الفقير يخاطر بنفسه.

فأهــوى ونابـاهــا حَوالَــيْ يَتيمــةٍ ... هـي المـوتُ أو دُنيا يُنادي بَشـيرُها

أهوى بيديه على الدرة، وحية البحر تحميها بنابين فيهما السم الناقع.

فألقــت بكفَّيْــهِ المنيَّــةُ إذْ دنــا ... بعضَّــةِ أنيــابٍ ســريعٍ سُـؤورُها

عضته الحية العضة القاتلة بأنيابها السريعة السؤور أي الوثوب والمساورة.

فحــرك أعلــى حبلِــهِ بِحُشاشــةٍ ... ومِـن فوقِـهِ خَضـراءُ طـامٍ بُحورُها

والغوَّاص بينه وبين رفاقه الذين على ظهر السفينة إشارة معروفة حتى فـي أيامنا هـذه: إذا هزَّ الحبل رفعـوه فورًا. وصـاحبنا تماسـك بعد العضَّة واستجمع حشاشته أي بقية نفسه ورمقه الأخير وهزَّ الحبل.

فمـا جـاء حتـى مـجَّ والمـاءُ دونَـهُ ... مِـن النفـسِ ألوانًـا عبيطًـا نَحيرُهـا

أي ما جاء فوق سـطح الماء حتى بصق العبيط وهو الدم. لا علينا من تركيـب العبـارات، ولا يطالبنـا أحـد بفهم كل كلمـة وكل حرف. نحن لا نـدرس لامتحـان، والفـرزدق هكذا، لغتـه ملتوية. صاحبنـا الغواص أخذ يبصق دمًا وفاضت روحه والدرة بيده. وأخذوا الدرة إلى أمه التي حزنت إذ سمعت بموته:

فلمـا أَرَوْهـا أمَّـهُ هـانَ وَجدُهـا ... رجـاةَ الغِنـى لــمَّا أضـاءَ مُنيرُهـا

الأمُّ هان حزنها لما رأت بريق الدرَّة.

وظلتْ تَغالاها التِّجَارُ ولا تُرى لها سِيمَةٌ إلّا قليلًا كثيرُها

ظل التجار يزيدون في سعر الدرَّة، لا يضعون لها سعرًا أو سيمة إلا وهذا السعر أقل مما تستحق بكثير. هذه الدرة – يقول لنا الفرزدق – مثل تلك الفتاة ذات الأرداف المرتجَّة.

(يقول قلم التحرير: قبل أن أشتغل في إذاعة لندن التي بثثتُ منها هذه الأحاديث الأدبية بسنوات، كنت أسكن في فلسطين حماها الله. ورأيت نساء فقيرات يهبطن الوادي الوعر، وعلى رؤوسهن دسوت فيها ثياب يبغين غسلها عند مجتمَع السيل في أصل الوادي. فكانت أبيات:

توعَّرن في الوادي وكان يسيلُ على الهام أَجرانٌ بهن غسيلُ
عليهنَّ أثوابٌ تفسّر ما حوت إذا سألتْها الريحُ فهي تقولُ
تهادَيْنَ لا همًّا حملن فإنني حملتُ بهن الهمَّ وهو ثقيلُ
وخلَّفنَ لي قلبًا عليلًا وقد مضت على مهْلِها أردافُهن تميلُ

أجاءت هذا على خاطري مرتجَّة الأرداف التي وصفها الفرزدق

الشكوى بضاعة الضعفاء

قال طرفة بن العبد قبل ألفٍ وخمسمئة سنة يفتخر:

قليـلُ التَّشـكِّي للمصيبـاتِ حافِظٌ مِن اليومِ أعقابَ الأحاديثِ في غدِ

ربمـا كان هذا أولَ ما وصلنا من الشـعر العربـي في التمدح والافتخار بقلـة الشـكوى ومواجهـة النوائب بصمت وإبـاء وترفع عـن التذمُّر. وفي الشـكوى لـذةٌ. قـد يعـرف المصـاب بمصيبة أن الشـكوى لن تعـود عليه بشـيء، ولكنه يشكو ويندب حظه، ويردد ذلك حتى يملَّ منه جُلَساؤه، لا يفعل ذلك إلا للفوز بمتعة التنفيس عما في داخله، وإخراج ما يعتمل في صدره. قال الشاعر:

ولسـتُ كمـن أَخنـى عليـه زمانُـهُ فبـاتَ علـى أَخدانِـه يتعتَّـبُ
تلَـذُّ لـه الشـكوى وإن لم يجِـدْ بها شِـفاءً كمـا يَلتـذُّ بالحـكِّ أَجـرَبُ

لخَّـص هـذا المعنـى تلخيصًـا بديعًـا في كلمـات قلائـل، وزاد أن أتى بتشبيه طريف عمَّق به المعنى. لقد زاد في المعنى أيضًا أن الشكوى ليس منهـا نفـع حقيقـي. ولكـن أليـس الأجربُ يشـعر براحـة إذا حـكَّ جربه؟ وأليسَ تلك اللذة نافعة؟

لا تشكُ ولا تتشكَّ؛ فذلك مُخِلٌّ بهيبتك ووقارك. هل رأيتَ سيدًا من السَادة، أو وجيهًا من الوجهاء، يشكو ويلوم الزمان؟ قال أبو تمام:

شكوتُ وما الشـكوى لمثليَ عادةً ولكنْ تفيـضُ الكأسُ عند امتلائِها

وهذا تسويغ حسن. ولعلَّ صياغة البيت هي التي تضفي عليه تلك الجاذبية.

كُثَيِّر عزَّة

كُثَيِّر عزَّة الشاعر الذي عاش في عصر بني أمية أخذ عليه النقادُ القدامى أشياءَ جرَّتها عليه غفلتُه وحمقُهُ. سنروي شيئًا من ذلك، ولا أشك في أن كُثيِّرًا كان خفيفًا أحمق مغفلًا: بعض الخفَّة، بعض الحمق، بعض الغَفلة. تراه يصف غَيمًا وبرقًا ثم مطرًا يخرج به من الأرض نبات، كل هذا ليقول لحبيبته إنني أهَبُ إليك وإلى أهلك هذا المطر والنبات. وتراه يخاطب عبد العزيز بن مروان أخا الخليفة، والأمير القوي حاكم مصر قائلًا: إنك سَكَّنتَ غضبي بتلطُّفِك، وتراه يقول لأمير المؤمنين إنك غَزوتَ قلبي فنِلتَ ما فيه من المودة.

فإن أمير المؤمنين برفقِه غزا كامناتِ الودِّ مِنِّي فنالَها

وعيب عليه بيتٌ من هذه الأبيات الثلاثة:

وما روضةٌ بالحَزْنِ طيبةُ الثرى يمجُّ الندى جَثجاثُها وعرارُها

لها أَرَجٌ بعد الهدوِّ كأنما تلاقت به عطَّارةٌ وتِجارُها

بأَطيبَ مِنْ أَردانِ عزةَ مَوْهِنًا وقد أوقدَتْ بِالمَندَلِ الرَّطْبِ نارَها

يصف روضةً جبليةً طيبة التراب فيها أزهار برية رائحتها زكية من جثجاث وعرار، ويقول: إن أكمام ثوب عزَّة أطيب من ذلك. إلى هنا والمعنى جميل والشعر رائق. ولكنه يفسد الأمر بآخر شطر عندما يقول: «وقد أوقدت بالمندل الرطب نارها». وقد أحسنت تلك المرأة التي سمعت هذا الشعر من كُثير فقالت له: فَضَّ الله فاك، والله، لو أوقدت امرأةٌ

منتنةٌ مِجمرَها وتبخرت بالمندل الرطب لطاب ريحها، أما قلتَ كما قال امرؤ القيس:

خليليَّ مُرَّا بي على أمِّ جندبِ لِنقضِي لُباناتِ الفؤادِ المعذبِ
ألم تَرَ أنّي كلَّما رُحتُ طارقًا وجدتُ بها طيبًا وإنْ لم تَطَيَّبِ

ولا تنقضي حماقات كُثيِّر. تراه يشبّه محبوبته بالعصا:

ألا إنما ليلى عصا خيزُرانةٍ إذا غَمزُوها بالأَكُفِّ تَلينُ

جعلها عصا وجعل الناس تغمزها بالأكف. وكان بشار بن برد يقول: سامح الله أبا صخر (يعني كثيِّرًا) ألا قال كما قلت أنا:

ودعجاءِ المحاجِرِ مِن مَعَدٍّ كأن حديثَها قِطَعُ الجِنانِ
إذا قامَتْ لحاجَتِها تَثَنَّتْ كأنَّ عِظامَها مِن خَيزُرانِ

ولست أرى أن بشارًا أحسن كثيرًا، بل لقد أغرب وعقَّد الصورة. إنه يجعلني أتخيل صورةَ أشعة للقفص الصدري لحبيبته وأرى عظامها الخيزرانية. غير أني أحببت قوله: «إذا قامت لحاجتها تثنَّت». وموطن إعجابي هنا كلمة «تثنَّت». إنه يصف امرأة متزنة سمينة من الكسل ومن النعمة، لينة العظام، ويصف قيامها من قعود، إنها تتثنى وتتمايل حتى تقدر أن تنهض بجسمها الممتلئ. ألا قاتلَ اللهُ بشارًا. كان كأنه يرى.

الآن أترك المرزباني الذي أخذت من كتابه **الموشَّح** بعض النقدات السابقة، وأحاول أن أكتشف حماقات أخرى لكُثيِّرٍ في ديوانه. هذه واحدة: هجرته عزةُ يومًا وصَرمَت حبلَ الود وحلفت ألا تكلمه. ثم إنه لاقاها وهو راكب جمله فقالت عزة: «السلام عليك أيها البعير». تخاطب

الجمل ولا تخاطب كُثيرًا. فقال كثير في ذلك شعرًا (يوجه الكلام أيضًا لجمله):

حيَّتْكَ عَزَّةُ بعد الهجرِ وانصرفَتْ فَحَيِّ ويحَكَ مَنْ حيَّاك يا جَمَلُ
فحنَّ مِنْ وَلَهٍ إذْ قلتُ ذاك له وظل معتذرًا قد شَفَّهُ الخجلُ
وردَّ مِن جَزَعٍ: ما كنتُ أعرفُها ورامَ تكليمَها لو تَنطِقُ الإبِلُ

إذا نسي المرءُ القوافي الرنانة وسمع الأبيات بعقله لا بأذنه، فإن ما قد يستنتجه هو أن كثيرًا قصَّر كثيرًا عن خفِّة دمِ عزة، التي ألقت التحية على البعير نكايةً بصاحبه. كثيِّر بليد في فهم النكتة ولكنه حساسٌ جدًّا فيما يتعلق بحبه لعزَّة.

وبسبب بساطته وسذاجته حقق كثيِّر في الشعر شيئًا. قد يرمى بيتًا خطيرًا، جوهرةً شعريةً مهمة، ولا أحسبه كان يحس (بعد أن يصنع البيت) بقيمة ما صنع. من ذلك أشهرُ بيت له على الإطلاق، وهو البيت الذي ورد في أشهر قصيدة له. وهي قصيدة أحب أن أقف عند أبيات كثيرة منها كما تقف النساء في سوق الصاغة عند كل بترينة. ولن يتاح هذا إلا بعد أسبوع. ولكنني أذكر البيت الذي عدَّه القدماء عين القصيدة:

فقلتُ لها يا عَزَّ كلُّ مُصيبَةٍ إذا وُطِّنَتْ يومًا لها النفسُ ذَلَّتِ

والقصيدة كلها عيون. وشعر كُثيِّرٍ حديقةٌ من الأزهار البرية لم تُسقَ ماءَ الفكر.

كُثَيِّر عزَّة مرة أخرى

افترقنا في الأسبوع الماضي على موعد مع شعر كُثَيِّر عزَّة، ولا سيما مع قصيدته التائية المشهورة. وكنا تحدثنا عن أشياء يأتي بها في شعره تدلُّ على غفلة وحمق. من ذلك أجد في ديوانه أبياتًا تبدأ بداية طيبةً:

أيا عَزَّ صادي القلبِ حتى يَودَّني ... فؤادُك أو رُدِّي عَلَيَّ فُؤادِيا
أيا عَزَّ لو أَشكو الذي قد أصابني ... إلى ميتٍ في قبرِه لبكى ليا
ويا عَزَّ لو أشكو الذي قد أصابني ... إلى راهبٍ في ديرِه لرثى ليا
ويا عَزَّ لو أشكو الذي قد أصابني ... إلى ثعلبٍ في جُحرِهِ لانبرَى ليا
ويا عَزَّ لو أشكو الذي قد أصابني ... إلى مُوثَقٍ في قيدِه لَعدا ليا

فبعد أن جعل الميت يخرجُ من قبره ليبكي على حاله، انحدر في مطالبه بدل أن يرتفع، فأتى راهب الدير. ثم يبدأ السخف الساخف، فنراه يجعل الثعلب يخرج من جحره، ويجعل المقيَّد بالأغلال يركض ويعدو. وهاتان الأخيرتان كاريكاتيران يفسدان الصورة المؤثرة الأولى إفسادًا ذريعًا. سخِنَت عينُك يا كثيِّر! ما هذا الهذر؟ تشكو مصابَك لثعلب! هذا الشاعر قريحته أكبر من عقله.

ما زلنا على موعد مع قصيدته التائية وهي عينُ شعره، وسنروي منها صدرًا صالحًا، ولكننا نروي له أولًا خمسة أبيات أخرى رأى فيها القدماءُ شاهدًا على الحمق، ونرى نحنُ فيها شعرًا من أطيب الشعر وآصَلِهِ وأحلاه. قال كثيِّر:

ألا ليتَنا يا عَـزَّ مِـن غيرِ ريبةٍ بعيرانِ نَرعى في الخَلاءِ ونَعزُبُ
كِلانا بِـهِ عَـرٌّ فمَنْ يَرَنا يَقُلْ على حُسنِها جَرباءُ تُعدي وأَجرَبُ
إذا ما وَرَدْنـا مَنهلًا صاحَ أهلُه علينا فما ننفكُّ نُرمَى ونُضرَبُ
نَكونُ بَعيرَيْ ذي غِنىً فَيُضيعُنا فلا هُوَ يَرعانا ولا نحنُ نُطلَبُ
وددتُ وبيتِ اللهِ أنَّـكِ بَكْرَةٌ هِجانٌ وأنّي مُصْعَبٌ ثم نَهرُبُ

يتمنى أن يكون وحبيبته عزة بعيرين يملكهما رجل غني لا يبالي بهما فهما حرَّان طليقان، ويتمنى أن يكون بعيرًا أجرب وأن تكون عزة ناقةً جرباء تُعدي النياق الأخرى بجَربها، فأصحاب الجمال يبتعدون بجمالهم عن هذين الأجربين خوف العدوى، ويضربونَهما بالعصيِّ ويرمونهما بالحجارة، ويبتعد البعيران الحبيبان وينفردان بحبهما ويهربان بعيدًا بعيدًا.

هذه صورة في منتهى الغرابة. وأنا أرى لها رصيدًا قويًّا في نفس الشاعر. هو هكذا يحس. الأبيات الخمسة تشهد عندي لكثير أنه شاعر، وتشهد عليه أيضًا أنه خفيف العقل. فبعد أن مسخ محبوبته ناقة تمشي على أربع لا ينسى أن يذكّرنا بأنها حسناء، وأن الناس يرونها ناقة حسناء. لو كان هذا الشعر لأبي تمّام لرأيناها نكتة طريفة ولضحكنا له، أما من كثّير السليم الصدر المغفل فهي مما يضحكنا منه لا له. أقول هذا ولا أنتقص من شاعريته في هذه الأبيات.

لن يتسع وقتنا هذه المرة للحديث عن القصيدة التائية فنحن نرجئها إلى الأسبوع المقبل. ونسمع غيرها:

ألا إنَّ عـزَّةَ قـد أقبلـتْ تُقَلّبُ نحوِيَ طَرْفًا غَضيضا
تقولُ: مَرِضْـتُ فما عُدْتَني فقلتُ لها: لا أُطيقُ النُّهوضا
كلانـا مريضـانِ فـي بَلـدةٍ وكيف يعودُ مَريضٌ مريضا

لا أشكُّ في أن عزة قبلت عذره، فهو مريض في عقله.

أحسن من هذه الأبيات أبياتٌ يتمنى فيها المرض تمنيًا، ولا جُناحَ على من تمنى أن يصبح بعيرًا أن يتمنى أيَّ شيء في العالم. يقول كُثَيِّر عزَّة مخبِرًا عن نفسه:

يودُّ بِأنْ يُمسيِ سَقيمًا لعلَّها إذا سمِعتْ شَكواهُ ليلى تُراسِلُهْ
ويَرتاحِ للمعروفِ في طلبِ العلى لِتُحْمَدَ يومًا عندَ ليلى شمائلُهْ
ويُدرِكُ غيري عند غيرِكِ حَظَّهُ بِشعري ويُعييني به ما أُحاوِلُهْ

ولا تكترث كثيرًا لاسم «ليلى» فقد يكون جاء به للتمويه، وربما تكون محبوبة أخرى. وقد رأينا شعراءنا القدامى يتغزلون في القصيدة الواحدة بأم الحويرث وعنيزة وفاطمة. هذا ما صنعه امرؤ القيس في معلقته.

لنا مع كثير وقفة أخرى أخيرة.

كُثَيّر عزَّة مرة ثالثة

قد أطلنا الوقوف عند شعر كُثَيِّر عزَّة، ولما نلمَّ بتائيته المشهورة. وقد أحبُّ قبل أن أُنشدَ منها شيئًا أن ألفِتَ أسماعَكم إلى رويِّها العذب، وهو قليل في الشعر العربي:

خليليَّ[1] هذا رَبْعُ عزَّةَ فاعْقِلا ... قَلوصَيْكُما ثم ابكِيا حيثُ حَلَّتِ
ومُسَّا تُرابًا كان قد مَسَّ جِلدَها ... وبِيتا وظَلَّا حيثُ باتتْ وظَلَّتِ
ولا تَيأَسا أن يمحوَ اللهُ عنكما ... ذنوبًا إذا صلَّيْتُما حيثُ صَلَّتِ
وما كنت أَدري قبلَ عزَّةَ ما البُكا ... وما موجعاتُ القلب حتى تولَّتِ
وما أَنصَفَتْ أمّا النِّساءُ فَبَغَّضَتْ ... إلينا وأَمَّا بِالنَّوالِ فَضَنَّتِ
وكانت لقطعِ الحبلِ بيني وبينَها ... كنَاذِرَةٍ نَذْرًا وَفَتْ فَأَحَلَّتِ
فقلتُ لها: يا عَزَّ كلُّ مُصيبةٍ ... إذا وُطِّنَتْ يومًا لها النفسُ ذَلَّتِ
وإِنِّي وتَهيامي بِعَزَّةَ بعدما ... تخلَّيتُ مما بَيْنَنا وتَخَلَّتِ
لكالمُرْتَجي ظِلَّ الغَمامةِ كُلَّما ... تَبَوَّأَ منها لِلمَقيلِ اضْمَحَلَّتِ
كأَنِّي وإِيَّاها سَحابَةُ مُمْحِلٍ ... رَجاها فلما جاوَزَتْهُ استَهَلَّتِ

هذه أبياتٌ تخيَّرتها من اثنين وأربعين بيتًا. ولما وجدت النقاد القدامى يقصرون تناولهم الناقد القادح لهذه القصيدة على أبيات المدح المحض

---

(١) ملحوظة تحريرية: عندما كنت أنشد هذا في الراديو كنت أمد الياء مَدًّا فأقول في ختام هذا البيت: حتى تولَّتيي. والآن صار هذا الحديث حبرًا على ورق، فاقرأه ومُدَّ الياء حتى لو كنت تقرأ قراءة صامتة. مدَّها في عقلك.

فيها رأيت أن أتقمَّص ناقدًا قديمًا، (أتقمصه أي أدخل في قميصه وأصبح كأنني هو)، وأن أُجرِّبَ انتقاد هذه الأبيات على طريقة القدامى:

يقـول لصاحبيـه اعقـلا قلوصيكمـا أي بعيريكما ثم ابكيـا حيث حلت عـزة، وكان يريـد أن يقول: حيث «كانت» تحـلُّ. ويطالبهما بمسِّ التراب الذي مسَّ جلدها. ونحن نقول لكثيِّر: هداك الله! وهل كانت عزة شـاة أو قطة تتمرغ في التراب؟ ألا قلت: مسًّا ترابًا داسته عزة أو وطئته. وحتى لو عنيت بقولك: «مسَّ جلدها» أن التراب مسَّ أخمص قدميها، فذلك والله أقبح. تقول لنا: إن عزة كانت تسير حافية! وهذا لعمر الله أخلق في زمنك بالإمـاء منه بفتاة مترفة. وأمـا طلبك من صاحبيك أن يبيتا وأن يظلا حيث باتـت وظلَّـت فـلا طائل تحتـه وهو فضلة قبيحـة، كدتَ تطلـب منهما أن يعشقاها معك.

وفي البيت الثالث من أبياتنا التي اخترنا. تقول: ولا تيأسا أن يمحو الله عنكمـا ذنوبًـا إذا صليتمـا حيـث صلَّت. وكيـف لهما أن ييأسـا ولـم يكونا رجَوا؟ فلا يأس إلا بعد رجاء. كان أوقع وأبعد عن الإحالة أن تقول: (ولا تعجبـا أن يمحو الله عنكما الذنوب.. نعـم الذنوب وليس ذنوبًا) ولا أرى أن الوزن أعجزك فكان في وسعك أن تقول:

ولا تعجبـا أن يمحـو الله عنكمـا ذنوبكمـا إن قمتمـا حيـث صلت

والقيـام والصـلاة بمعنـى. ولا يخفى عليك أن البيت يكون سـليمًا لو قلت:

ولا تعجبا أن يمحو الله عنكما الذُّ نـوب إذا صليتمـا حيـث صلـت

حيث كلمة الذنوب في كلا الشطرين، وهذا ما نختاره لك حتى يكون مـن صاحبيـك صـلاة ومن عزة صـلاة باللفـظ والمعنـى كليهمـا. ولكننا

رأيناك في ديوانك تكره الكلمة تقع بين الشطرين فعرضنا عليك مخرجًا نقيم عليك فيه الحجة.

وتقول:

وما كنت أدري قبل عزة ما البكا ولا موجعات القلب حتى تولَّت

ونرى هنا ثلاثة أزمان: زمنًا لم تكن فيه تعرف عزة، وزمنًا عرفت فيه عزة، وزمنًا ثالثًا عشته بعد فراق عزة. وفي البيت تخبرنا أنك لم تعرف البكاء قبل عزة ولا موجعات القلب حتى تولت. وهنا قفزت عن الزمن الأوسط الزمن الذي كنت فيه تعرف عزة، وكان (كما يشهد ديوانك) مملوءًا بالبكاء والنحيب. كنت تريد أن تقول: إنك لم تعرف الوجع والبكاء قبل عزة، وعرفت ذلك إذ أحببتها، وازددت به معرفةً بعد فراقها، ولكن ثَقُلَ عليك الكلام والوزن معًا... فقوَّلتك القوافي ما لم تُرِد أن تقول.

ونأتي أخيرًا إلى البيت الذي هلَّل النقادُ له:

فقلتُ لها: يا عَزَّ كلُّ مصيبةٍ إذا وُطِّنَتْ يومًا لها النفسُ ذَلَّتِ

والمعنى أن المرء يتجرع المصيبة بالتدريج ثم يتقبلها في نهاية المطاف. وهذا معنى شريف. ولكن لماذا تخاطب عزة بهذا الكلام؟ العاشق المخذول يخاطب بهذا المعنى نفسه ويعزِّيها ولا يخاطبُ بهذا محبوبته. ولا والله ما أحببتُ صياغتَك لهذا المعنى البديع: أنت جعلت شرط تقبل المصيبة أن يتم التمهيدُ لها. وهذا هراء، فالمصيبة تقع دون إنذار، ثم يتجرَّعها المرء جرعةً بعد جرعة فينقضي أثرها.

كنـا مـع كُثَيِّر عـزَّة في القصيـدة التي اتفقـوا على أنها أفضـل قصائده. اخترنـا منهـا أجمـل أبياتهـا، وحـاولنـا أن ننتقص مـن قدرها علـى طريقة القدماء. فهل كنا جادِّينَ أم هازلين؟ كنا الأمرين معًا.

نزار قباني

حديثي عن نزار قباني. وأرى مستمعًا يحضني حضًّا (وهو يلصق أذنه بالراديو) على أن أحمل على نزار قباني حملة هوجاء تطيح به، فمستمعِيَّ فيما أحسب ممن يحبون القديم. لن يحدث هذا، لا الحملة ولا الإطاحة. وأرى مستمعًا آخرَ بدأ يتحفز الآن ويقول: يحيا العدل! حدثنا يا أخي عن هذا الشاعر العبقري. وأقول لذلك المستمع الأول: إنه لا يعرف شيئًا عن سماحة الشعر العربي إذ يعادي نزارًا. وأقول للثاني: تريَّث فسوف تسمع مني ما تحب وما لا تحب.

لا أرفع نزارًا هكذا بدون سبب. أرفعُهُ بسبب. ألا يكفي أن هناك ثلاثةَ ملايينِ شاعرٍ في الوطن العربي يقولون: إن شعرَ نزارٍ ليس بشعر. ألا يكفي هذا شهادةً على أنه شاعر كبير. ألا يكفي أن الناس اختلفت في قيمته، وانقسمت في شأنه، مثلما انقسم أهل الأدب في زمن المتنبي بين نصير متعصب وعدو مترصد.

لا أقرأ أشعار نزار مرة ومرة. أقرأها مرة واحدة. أشعاره مثل النكت. وهذا ليس قدحًا.

الشعر العربي بستان كبير فيه الفل والياسمين والورد والنسرين، وديوان الشعر العربي يقبل ما لا يقبله ديوان الشعر الإنجليزي مثلًا. هل رأيت أعجب من العرب ومن شعرهم؟ يقوم بينهم رجل ويأخذ يشتم رجلًا آخر ويصفه باللؤم ويشبهه بالكلب آنًا وبالخنزير آنًا ثم يقعد فيصفق

الحضور له ويقولون: «قاتله الله ما أشعره!» وتسألهم: «ويحكم! هذا السبَّابة الشتامة تسمونه شاعرًا؟» فيقولون: «إي والله»، ونسمي هذا الضرب من الشعر الهِجاء. ويقوم الشاعر ويبدأ بسرد الأكاذيب والمبالغات، ويقعد ويقولون: ثكلته أمه ما أشعره! ويسمون هذا الذي قاله: مدحًا. ويقوم رجل على قدميه وينشد لك بيتين في الغزل، وبيتين في التحسُّرِ على علاقة ماتت، وبيتين في وصف الخيمة، وبيتين في وصف الجمل، ثم يقول: «هذا الجمل أوصلني إليك أيها الأمير، ولن أركبه مرة أخرى، فالذي يصل إليك لا يحتاج أن يفارقك لأنك تُغنيه عن كل الناس». ويقعد الرجل... ويقولون ما أشعره! هذا أيضًا شعر عندنا.

ديوان الشعر العربي صدره واسع، وصدرنا اليوم ضيق. اليوم يجب عليك حتى تكون شاعرًا أن تقف على قدميك أو على رأسك وتقول أشياء مثل التعاويذ. إذا ذكرتَ لنا لونًا فليكن البنفسجي أو القرمزي، وإذا وصفت رجلًا وأردت تشبيهه فلا ينفع أن تشبهه بدابة معروفة كالأسد والحصان، لا بدَّ لك من الإغراب سواءٌ أأحسست بما تقول أم لم تحس. وعليك أن تذكر طائر السنونو، وأن تذكر القيامة، وأن تستلهم أسطورة مما قبل التاريخ، ولا بأس ببعض أسماء آلهة الإغريق. هذا شعر وكل شيءٍ آخر ليس شعرًا. نحن لا نريد أن نقول إن السنونو والأساطير ليست شعرًا. هي شعر إذا كان لها رصيد من الإحساس. ولكن، نريد ألا نوصد الأبواب. تِقاليدنا الشعرية تقول: إن دنيا الشعر واسعة، وإنه يعيش فيها كل شيء.

نزار قباني شعره شعر النكتة. لست تضحك عندما تسمعه، ولكنه شعر نكتة. يبحث نزار عن «الكلمة-الشعار»، الكلمة أو العبارة التي تشدُّ أذنك. نزار قباني هو شاعر الساوند بايت. شاعر الدراما الفورية. ودراماه تأتيك

في أول بيت. «حُبلى».. هذا اسم قصيدة لنزار. الكلمة تمثل الصدمة، امرأة أدركت أنها حبلى من غير زواج. وذهبت إلى «السبب» وقالت له وقال لها. وبعد حوار قصير تخلّى عنها فتركته، وقالت عن الجنين الذي في بطنها وأرادت إسقاطه: «أنا لا أريد له أبًا نذلًا». وانتهت القصيدة، والقصة. سمعت القصيدة حفظت كلمة «حبلى» في أولها، والشطر الأخير من البيت الأخير. هذه هي دراما القصيدة. وهي دراما شعرية طيبة. عندما قال نزار: «حتى فساتيني التي أهملتُها فرحت به، رقصت على قدميه»... قامت عليه القيامة. كان هذا في الستينيات. (تنبيه: ما أروع هذا! فساتينها رقصت على قدميه. ألا ترى ما في هذا من أناقة العبارة وجمال الشعر؟)

كتّاب الأغاني الناجحون يعرفون قيمة العبارة التي هي شعار يعلق بالذهن. الأغنية يجب أن تحتوي على كلمتين أنيقتين تصلحان عنوانًا وتلخِّصان الشيء كله. «إنت عمري» هذه عبارة سحرية. و«اسأل روحك»، و«أمل حياتي» و«حرَّمت أحبك» و«زوروني كل سنة مرة»، و«تعا ولا تجي وأكزب عليّي، وعدني إنك رح تيجي وتعا.. ولا تيجي». هذه كلها نكت، وهي الأساس الأول للأغنية الناجحة. و«شايف البحر شو كبير! كبر البحر بحبك» هذه جملة عبقرية ومؤلفها هو أحد أبناء عاصي الرحباني. كان هذا الولد صغيرًا، وقف على النافذة وأشار بأصبعه وقال لأبيه: «شايف البحر شو كبير»، فقال عاصي الرحباني: «إنه كذلك»، فقال له ابنه: «كبر البحر بحبك». فهرول عاصي إلى البيانو. فماذا عن بقية الكلمات؟ ليس مهمًّا... المهم النكتة. المهم الشعار. المهم الساوند بايت. والساوند بايت حرفيًّا اللقمة الصوتية، وهذا تعبير تلفزيوني. اللقمة الصوتية هي العبارة التي يحسن اقتطافها، وتعلق بالذهن. والمشاهدون في بلاد الغرب، أمريكا مثلًا، لا

يريدون أن يسمعوا رئيسهم أكثرَ من عشر ثوان؛ لأن السياسيين في العادة لا يستطيعون أن يقولوا الصدق لمدة تزيد عن ذلك. ظل رؤساء أمريكا يكتبون -أو يستكتبون- الخطابات الطويلة ويتركون للصحافة والإذاعة أن تقتبسا عبارات من هنا ومن هناك. ثم عندما تولى التلفزيون مقاليد الحكم في أميركا صار الرؤساء يستكتبون لقمًا صوتية يستعملونها في تضاعيف كلامهم، عارفين أنها مغرية بالاقتباس. نزار قباني قال عن عبد الناصر عندما مات: «قتلناكَ يا آخر الأنبياء». وضرب المشايخ رؤوسهم بالجدران، وفسَّرها الفقهاء التفسير الضيق الذي يُحسنونه. لكن هذه العبارة-الشعار نطقت بما في نفوس ملايين العرب في ذلك الوقت. وهذه قصيدة متأخرة لنزار: «متى يعلنون وفاة العرب» عبارةٌ بليدة، لا أرى فيها شيئًا، قد يقولها امرؤ أميٌّ، وقد يقولها امرؤ متعلم... موظفٌ أو مدرسٌ أو مذيعٌ مثلًا. ربما لهذا سارت. وصار عليها خلاف. إنها لقمة صوتية، وإن خلت من بريق عبارات نزار وأناقتها. هذه العبارة بالذات لا أتوقعها من فم فيلسوفٍ أو مثقفٍ جيد الثقافة؛ لأنها جوفاء ومبتذلة. إنها شعار. نزار قباني يحسن هذا جدًّا. أحب أن أقرأ نزار قباني مثلما أحب أن أسمع آخر نكتة، ولكنني لا أحب أن أسمع نكتةً مرتين. هذا مَفصِلٌ يحسن الوقوف عنده، لولا تأنيب ضمير.

ضميري يؤنبني أن تركت نزار قباني مع هذا الحكم المتعسف. لا، شعر نزار بستان فسيح فيه أنواعٌ من الأزهار، وفيه ألوان كثيرة وأريج، وفيه ما شئت. وبستان نزار مرتب أنيق. لم أر شاعرًا في الألفي سنة الماضية آنق في عبارته من نزار قباني. ولم أر صنعةً شعرية خفيفة على القلب ورشيقة مثل صنعة نزار. هذا شاعرٌ شاعر، انقسم الناس في أمره وحاولنا أن نقف على السياج، ولا أظننا أفلحنا.

الشعر الجاهلي

الأرجاء في اللغة هي النواحي، وتقول: في أرجاء العالم أي في نواحيه، ومفرد «النواحي» ناحية، وأما مفرد «الأرجاء» فهو رجا، والمثنى رجوان، إذن فالأرجاء لها مفرد من جنسها وليست ككلمة «النساء» التي مفردها امرأة. وحديثي ليس عن علم الصَّرف، فهو علم لا أُحسن أن أتحدث فيه أكثر من نصف دقيقة (وقد مضت هذه النصف دقيقة). حديثي عن الشعر الجاهلي.

هذا شعر أقرأ كلماته ولا أفهم، فإن فهمت لم أصدِّق أنه جاهلي. البيت الذي جعل الموضوع كلَّه يخطر ببالي آخرُ بيت في معلَّقة امرئ القيس، وفيه كلمة أرجاء: يصف امرؤ القيس المطر والسيول التي حلَّت بالمكان:

كأنَّ السِّباعَ فيه غرقى عَشيَّةً بِأَرجائهِ القُصوى أَنابيشُ عُنصُلِ

يشبِّه الحيوانات البرية التي غرقت في السيل وتلطخت بالوحل بالعنصل: البصل البري المنبوش بجذوره من الأرض.

لا أزعم أنني فهمت فهمًا أفرح به وأطمئن إليه. ثمة صورةٌ قويةٌ أصيلة لكن لم تصل إليَّ بتفاصيلها. لو صحَّت نسبةُ البيت إلى امرئ القيس، فمعنى ذلك أن هذه الصورةَ الشعرية رحَلَت ثلاثمئة سنة على هوادجَ زَلِقَة فوق ألسنة الرواة (وما آفةُ الأشعار إلَّا رواتُها). ثم رحلت ألفًا ومئة سنة على صفحات المخطوطات تحملها مخطوطةٌ عن مخطوطة وناسخٌ عن ناسخ. وقد ضُرب المثلُ قديمًا بغفلة النسَّاخ وقدرتهم على إساءة فهم النصوص. ثم رحلت هذه الصورة الشعرية المئة سنة الأخيرة في الكتب المطبوعة... التي تترك الكثير لذهن القارئ اللبيب.

ها قد بدأنا نعزف اللحن القديم: لحن التشكيك في الشعر الجاهلي.

المسألة ليست بهذه البساطة. هناك التواتر في الرواية، وهناك التصحيح الذي تصادفه الروايات بعد زمن من التغيير والتبديل، وهناك الترميم أيضًا. قد يصل البيت إلى سمع أحد الرواة الأدباء ناقصًا مختلًّا، فيُعمِل الراوي فكره ويرمِّمُ البيت فيعودُ صالحًا لأن يُفهَم.

ويحاول الراوي المرمِّم أن يستخدم من الحجارة والخشب ومواد البناء، أقصد من الكلمات والتراكيب، ما كان موجودًا في الزمن الذي قيلت فيه القصيدة.

أدخُلُ القصيدةَ الجاهليةَ حذِرًا. أتلمَّسُ جدرانها وأدقق في أحجارها وبلاطها. لم أصدِّق أيَّ قصيدة جاهلية كلَّ التصديق. كل قصيدة جاهلية هي روايةٌ فيها مئة كذبة، ولستَ تعرف مواقع هذه الكذبات؛ فكيف تطمئن إلى هذه الرواية؟!

إليكم ختامًا هذا الشعر الجميل المنسوب إلى الأعشى الكبير، وهذا رجل يقال: إنه كان يعيش في جزيرة العرب في الجاهلية، ويقال: إنه وفد على النبي مادحًا ولكنه ثُنِيَ عن عزمه. يقول الأعشى:

ودِّعْ هريرةَ إنَّ الركبَ مُرتَحِلُ وهل تُطيقُ وداعًا أيها الرجلُ
غَرَّاءُ فَرعاءُ مَصقولٌ عَوارضُها تمشي الهُوينا كما يمشي الوَجِي الوَحِلُ
كأن مِشيتَها من بيتِ جارتِها مرُّ السحابةِ لا رَيْثٌ ولا عَجَلُ
قالت هُريرةُ لمّا جِئتُ زائرَها ويْلي عليكَ! وويلي منكَ يا رجلُ

وهذا البيت فيه من الدلال والتثني ما الله يعلمه، قالوا: هو أخنث بيت قالته العِرب.

ولن يتاح لي أن أشرح ما فهمت من كلمات وصور هذا الشعر إلا في الأسبوع القادم. لكن الأعشى من شعراء الجاهلية الذين أصدِّق أن ما نسب إليهم هو في أكثره من شعرهم.

الشعر الجاهلي والترميم

وقفنا قبل أسبوع عند أبياتٍ للأعشى في مفاصِلها لينٌ وتثنٍّ. يصفُ معشوقَتَه بأنها: غرّاء أي بيضاءُ صبيحةُ الوجه، وفَرعاءُ أي طويلة الفرع، والفرع هو الشعر. والناس في أيامنا وفي بعض بلادنا يقولون عن المرأة التي لا تغطي شعرها: إنها مُفَرّعَة، ويصفون المرأة التي خرجت بسرعة من بيتها لإدراك أمر خطير أو للتأكد من خبر سيئ بأنها خرجت فَارِعَةً دارعةً، أما فارعة فمعناها: بشعرها ودونَ غطاء الرأس، وأما دارعة فإنها خرجت وعليها درعُها، والدرع للمرأة الثوب الداخلي.

نعود إلى صاحبة الأعشى فهي «غرّاء فرعاء مصقول عوارضها» والعوارض هي الأسنان. تمشي الهوينا كما يمشي الوجي أي الحافي، الوَحِل أي الماشي في الوحل. تصوروا معي هذه المرأة الجميلة المنعَّمة بنتَ سيِّد العشيرة، إنها تمشي ببطءٍ ودلال مثلما يمشي أحدهم حافي القدمين في الوحل، فهو يطأ الأرض الموحلة بتؤدة؛ لأن الوحل قد يخفي حجرًا مدببًا أو خشبةً مؤذيةً.

وقال الأعشى:

كأن مِشيَتَها من بيت جارتِها   مَرُّ السحابةِ لا رَيْثٌ ولا عَجَلُ

والسحابُ يمشي بانتظام وتؤدة، وهذا الضرب من المشي عنوان الكبرياء عند البشر.

أسوق هذا الشعر الجاهلي في مضمار حديثٍ كنتُ بدأتُه الأسبوع الماضي، وقلتُ فيه: إنني أرتاب في صحة الشعر الجاهلي، وأَعُدُّه مثلَ المباني التاريخية التي رُمِّمت مراتٍ كثيرة، أو كالثوب الذي كثرت فيه الرقع حتى انتهى الثوب وبقيت الرقع وحدها، تمسك إحداها بالأخرى. أحسُّ بهذا أيضًا

عندما أقرأ شعر أهل الإسلام، ولا يختفي شعور الشك تمامًا إلا عندما أصل إلى زمن ابن الرومي ثم المتنبي. لا أشك في شيء من شعر المتنبي، فالرجل واضح المعالم. المتنبي شخصية متميزة تراها في كل قصيدة وفي كل قافية. وكذا المعري.

اختلف النقاد في شرح أبيات كثيرة للمتنبي، وشرح ديوانه أربعون شارحًا. لكن العلة ليست في الرواية بل في الرجل. كان المتنبي ينام ملءَ جفنيه عن شواردِ الكلمات، ويترك الخلق ساهرًا يختصمُ (أي الخلق) بسبب هذه الكلمات.

الكلام الذي قلتُهُ عن شكي في صحة الرواية التي بين أيدينا للشعر الجاهلي ليس مجرد صدى لما قرأناه لطه حسين وللمستشرقين وللنقاد العرب القدماء الذين قالوا فيما قالوا: إن خلفًا الأحمر كان ينظم القصائد على أسلوب القدماء وينسبها لهم زورًا. هذا كلام ساذج؛ فالشعر أصعب من ذلك، وتقمُّص عصر قديم بلغته القديمة ليس مما يسهل على أي إنسان. وما وصلَنا من الشعر الجاهلي ذو قيمة شعرية عظيمة، ولا يُحسِن خلفٌ ولا غيرُه أن يأتوا بمثل ذلك. النقاد الذين روَّجوا لمثل هذه النظرية لم يعانوا الشعر، ولم يعرفوه معرفة من جرَّبه.

موضوع الرواية وصحتها في ديوان الشعر العربي موضوع طويل ويحتاج إلى دارس، ولستُ بذلك الفارس. ويحتاج إلى تفصيل وهوامش، وبرنامجُنا لا يحب التفصيل. فهل تراني حاولت أن أُخرجَ الكستناءة من الكانون فاكتويت وبقيت الكستناءة بين الجمرات؟ هل تريدني أن أقبل من الغنيمة بالإياب؟

لن أستسلم بسهولة. وقبل أن أختم أحب أن أسجل لنفسي براءة اختراع صغير: الشعر الجاهلي ليس أبياتًا قيلت في العصر العباسي ونُسبت للجاهليين، هذا محض هراء. الشعر الجاهلي قيل في الجاهلية، وجرى عليه ترميم كثير في الجاهلية وفي العصور اللاحقة. ونسبة القصائد الجاهلية إلى أصحابها شديدة الاضطراب. الكلمة المفتاحية في فكرتي عن الشعر الجاهلي وصحة انتسابه إلى عصره هي «الترميم».

تعال معي أيها المستمع نتخيل! نتخيل أن زمننا لم يعرف الطباعة، وأنا راوية شعر، وأعيش في عشرينيات القرن العشرين، وسمعت قصيدة أحمد شوقي الدمشقية الجميلة، ووقعت بيدي الورقة التي فيها القصيدة بخط الشاعر، وحفظت، ثم ضاعت الورقة، فأنا أروي للناس بعد وفاة شوقي قصيدته الجميلة:

سلامي من صبا بردى يرِقُّ ودمعي لا أكفكفهُ دمشقُ
ومعذرةٌ تُقدِّمها يراعي يدِقُّ عن المصيبة ما يدِقُّ
وبي جُرحٌ كجرحِكِ ليس يُشفى لجرحي في فؤادِي الغضِّ عمقُ
دمُ الثوار تجهله فرنسا وتجهلُ أنه عدلٌ وحقُّ
وللمستعمرين وإن أبانوا حضارتهم فليس هناك صدقُ
وما حريةُ الأقوام إلا دمًا يجري وأبوابًا تدقُّ

وأنا، كما ترى، راوية متوسط الإحساس بالشعر، غير أنني أقيم الوزن. ويأتي المرمِّم الذي لم يسمع القصيدة من شوقي ولم ير الورقة، فينتبه إلى أن شوقي يشير إلى الثورة الفرنسية، وأن البيت يجب أن يكون «دم الثوار تعرفه»، لا تجهله فرنسا، فيصلح البيت. ويقف وقفات طويلة مع عبارات لا تنسجم مع فصاحة شوقي. ويصلح مثلًا عبارة «أبانوا حضارتهم»، فيجعلها: «أبانوا تحضرهم». المشكلة في الراوية الذي هو أنا أنني أقيم الوزن وأفهم المعاني بعض الفهم؛ لذلك أتجاسر على الأصل. فلو كنت راوية يحفظ بقليل فهم، ولا يقيم الوزن، لكنت جئت بالأبيات كما هي مع بعض إخلال بالوزن يسهل إصلاحه.

ويسمع القطعة التي رويتها عن شوقي شاعرٌ دمشقيٌّ، وتعجبه على علاتها، ويريد أن يلقيها في حفل لإحياء ذكرى زيارة شوقي لدمشق. لكنها قصيرة.

هذا الشاعر الدمشقي أراد أن يرفد القطعة بأبيات على غرار البيت الأخير، فقال مكررًا الشطر:

وما حرية الأقوام إلا ... حفاظًا والأبوَّةُ لا تُعَقُّ
وما حرية الأقوام إلا ... عزيمةَ أمة ليست تُشَقُّ
وما حرية الأقوام إلا ... بأن يهديك للعلياءِ عشقُ

هذا بالضبط ما صنعه شعراء تغلب وهم يرممون قصيدة عمرو بن كلثوم. لعله قال:

بِأَنَّا نُورِدُ الرَّاياتِ بِيضًا ... ونُصْدِرُهُنَّ حُمْرًا قد رَوِينا

فجاء المرممون من شعراء تغلب وزادوا:

بِأَنَّا الـمُطْعِمُونَ إذا قَدَرْنا ... وأَنَّا الـمُهْلِكُونَ إذا ابْتُلينا
وَأَنَّا الـمَانِعُونَ لِمَا أَرَدْنا ... وأَنَّا النازلونَ بحيثُ شينا
وأَنَّا التَّاركونَ إذا سَخِطْنا ... وأنا الآخِذونَ إذا رَضينا
وأَنَّا العَاصِمُونَ إذا أُطِعْنَا ... وأَنَّا العَارِمُونَ إذا عُصِينا

أنا، الراوية الأول، مسخت القصيدة، وبعد الترميم أصبحت أفضل قليلًا، وسيأتي مرمِّم آخر ويزيدها جمالًا، وسيأتي آخر فيزيد فيها. وسيبقى فيها بعض روح شوقي.

لكن شوقي عاش في زمن المطبعة؛ فهذه أبياته كما قالها:

سَلامٌ مِنْ صَبا بَرَدى أَرَقُّ ... ودَمْعٌ لا يُكَفْكَفُ يا دمشقُ
ومعذِرةُ اليَراعةِ والقوافي ... جلالُ الرُّزْءِ عَنْ وصفٍ يَدِقُّ
وبي مِمَّا رَمَتْكِ بِهِ اللَّيالي ... جراحاتٌ لها في القلبِ عُمْقُ
ولِلمستعمرينَ وإنْ أَلانُوا ... قُلوبٌ كالحجارةِ لا تَرِقُّ
دمُ الثوارِ تعرفُهُ فرنسا ... وتعلمُ أنَّه نورٌ وحقُّ
ولِلْحُرِّيَّةِ الحمراءِ بابٌ ... بِكُلِّ يدٍ مُضَرَّجَةٍ يُدَقُّ

مجاميع الشعر

يسمعُ المرءُ الشعر الجميل ويحبُّ أن يستزيد منه. اسمعوا هذين البيتين لحسان بن ثابت في وصف الرسول عليه الصلاة والسلام:

وأحسنُ منكَ لم تَرَ قَطُّ عيْني وأَجملُ منكَ لم تَلِدِ النساءُ
خُلِقْتَ مُبَرَّءًا مِن كلِّ عَيْبٍ كأَنَّكَ قد خُلِقْتَ كما تَشاءُ

أنشدتُ هذين البيتين قبل أن أقرأ أولى نشراتِ الأخبارِ في الفجر – كنتُ مذيعًا آنذاك، قبل نحو سبع سنين – فكتبَ إِلَيَّ مُستَمِعٌ من إثيوبيا يستعيدُهما؛ لأَنَّه لم يتمكَّن من كتابتهما فاضطُررت إلى أن أرسلَ إليه بهما بالبريد. ولكنني حلفت ألا أفعلها ثانية، فمن أراد فليحضر قلمًا وورقةً، وسأنشدهما بعد حين.

أقول: يريد المرء أن يستزيد من الشعر الجميل، فيفتح ديوان حسَّانٍ فيجد قصائد كثيرة، ويجد أنها ليست جميعًا في جمال ذينك البيتين. ويقلب صفحات الديوان ويمل. قد لا يملك القارئ محصولًا كبيرًا من المفردات العتيقة، وقد لا يملك الوقت ولا الدافع الكافي لمطالعة ديوان كبير من أجل اكتشاف أبياتٍ ذات بريق كالبيتين المذكورين. انتبه... الآن أعيد:

وأحسنُ منكَ لم تَرَ قَطُّ عيني وأجملُ منك لم تَلِدِ النساءُ
خلقتَ مُبَرَّءًا مِن كلِّ عَيبٍ كأَنَّك قد خُلقتَ كما تشاءُ

ثمة سبب آخر.. قد لا يسهل الحصولُ على دواوين الشعراء. والحلُّ؟ المختارات الشعرية، وأول ما نعرف منها حماسةُ أبي تمام.

كان أبو تمام فيما ذكروا عائدًا من خراسان. وفي طريقه عرَّج على صديق له في منطقة جبلية، واتفق أن نزل ثلج عظيم سدَّ الطرق. رأى أبو تمام من

صديقه ضيافةً حسنةً، ورأى عنده مكتبة عامرة بالدواوين النادرة. فأخذ يختار من كل ديوان عيونَ قصائده وأبياته. وصنَّف أبو تمام أبياته حسب موضوعاتها. كان الموضوعُ الأول الحماسة، والثاني المراثي، والثالث الأدب... وهكذا عشرة موضوعات في عشَرة أبواب. وسُمِّيَ الكتاب باسم أول أبوابه: **الحماسة**. وصار كل كتاب للمختارات الشعرية منذئذ يسمى حماسة.

وقد وصلتنا **حماسة أبي تمام**. إنها مجموعة من أجمل الشعر القديم. قال التبريزي أحد شراحها: «كان أبو تمام في اختياره الحماسة أشعر منه في شعره». وصنع البحتري تلميذ أبو تمام مجموعة سُميت **حماسة البحتري**، وهي أقل شهرة من حماسة أبي تمام، ولكنها عندي من المجاميع المهمَّة، ولا أراها تنحط كثيرًا عن حماسة أبي تمام. ثم كثرت بعد ذلك كتبُ المختارات الشعرية.

قد تتضاعفُ قيمةُ هذه المجاميع إذا ضاعت الدواوين التي جرى النقل عنها. وهذا وارد بالنسبة لحماستي أبي تمام والبحتري. ولكن كل مجموعة مختارات مفيدة، وتقرِّب الأمر على محب الشعر.

بين يدي الآن ثلاث حماسات اشتريتها منذ أقل من سنة وسعدت بها كلِّها، وهذا شيء نادر. الأولى اسمها **مجموعة المعاني** وجامع أشعارها مجهول. وقد طُبِعت هذه المجموعة في إسطنبول قبل أكثرَ من مئة سنة، وأُعيد طبعها قبل ثلاث سنوات بتحقيق عبد السلام هارون أحدِ المحققين الكبار. وتضم هذه المجموعة ألفًا وستمئة قطعة موزعةً على مئة موضوع. وقد شرحها المحقِّق شرحًا طيبًا. هذا بيتٌ منها:

إذا ضاقَ صدرُ المرءِ عن سرِّ نفسِه   فَصَدْرُ الذي يُستَوْدَعُ السِّرَّ أضيَقُ

ومن مجموعة المعاني هذان البيتان لأبي فراس الحمداني:

من كان مثليَ لم يَبِتْ إلا أميـرًا أو أسـيرًا
ليسـت تَحُلُّ سَراتُنا إلا القصورَ أو القبورا

الحماسـة الثانيـة هي **الحماسـة المغربيـة**، وقد حقَّق الطبعة وشـرحها وأخرجها إخراجًا فاخرًا الدكتور محمد رضوان الداية. وقسَّمها صاحبها، الجراوي التادلي، على عشرين موضوعًا، وأكثر فيها من الاختيار للمتنبي. وأفضـلُ شـيءٍ في هذا الكتاب التحقيقُ الجيـد والتخريج الجيد للأبيات، والقيـام على الكتاب في المطبعة. والفرق بين كتاب يشـرف على طباعته رجلٌ مثل الدكتور الداية وكتاب يطبعه تاجر لا يكاد يفك الحرف فرقُ ما بيـن أن يقـدَّمَ إليك لحم الخروف مطبوخًـا مطيَّبًا وبين أن يُؤتى بالخروف حيًّـا يقول: ماء ماء، ويوضعَ أمامك على الخـوان، بصوفِهِ وقرونه، ويقال لك: تفضل، كُل حتى تشبع.

المجموعة الثالثة هي **الحماسة البصرية** وجامعها مجهول، أما محققها فمختـار الديـن أحمد. نشـرت هـذه أَالطبعة عام أربعة وسـتين، وسـرقتها بيروت تصويرًا بعد عشرين سنة. وفي الطبعة مشكلات من أهمها أنك لا تطمئـن إلـى أن المحقق نقل عن المخطوط نقلًا صحيحًا؛ لأن عربيته لغةٌ ثانية على لسـانه، كما أنَّ المحقق اسـتثنى القطع المشهورة الموجودة في الدواويـن بين أيدي الناس، ولم يطبع سـوى البيـت الأول من كل واحدة من هذه القطع المشـهورة. وقد أحسـن المحقق أن لم يشـرح أي بيت أو مفـردة، فليس هذا مما يُنتظر منه، وأحسَـنَ أن خرَّج الأبيات من المصادر الأخرى وصنع هوامش جيدة.

(يقـول المحـرر بعد سـبع وعشـرين سـنة على هـذا الحديـث: جرى المقدار بأن تكون لي حماسة. وقد طبعتها باسم **الزبدة**، وخرجت عن دار المشرق فـي خمسـة مجلـدات ضمـت ثلاثـة آلاف وخمسَـمئة صفحة، ولقيت قبولًا معقولًا في زمن ليس فيه للشعر سوق).

ناقة الشمّاخ والسيارة الفارهة

أراد الشاعر الشماخ أن يذبح ناقته إذا أوصلته إلى الممدوح؛ فالممدوح منتهى أمله، وهو لا يريد أن يركب ناقته ليقصد أيّ شخصٍ آخر بعد الآن. ولا نعرف إن كان الشمَّاخ ذبح ناقته فعلًا.

ولعلك تتخيَّل أحد شعراء هذه الأيام ممن يركضون وراء أمراءِ هذه الأيام، وجوائزِ هذه الأيام، والمؤتمرات الشعرية في هذه الأيام. لعلك تتخيل هذا الشاعر وقد ذهب إلى أميره ممتطيًا صهوة سيارة فارهة. لعله يرمي السيارة في ساحة السكراب (والسكراب تعريب لكلمة إنجليزية صار معناها عندنا في الخليج مقبرة السيارات)، ولعل شاعرنا ينظم أرجوزةَ مدحٍ يقول فيها عن سيارته:

إذا بلغتُ فوقَكِ المُرادَ أَجمَعَهْ
وجئتِ بي إلى الأميرِ مُسْرِعَةْ
سِكرابُ يا ذاتَ العِجالِ الأَربعةْ

انقسم الشعراء في سرقة هذا المعنى قسمين: فمنهم من أراد ذبح الناقة، فهذا حزب الشماخ، ومنهم من أكرمها وحرَّم على نفسه ركوبها. نذكر لك أن أبا نواس والفرزدق كانا رحيمين بناقتيهما، وشعرهما في هذا مشهور، فنحن نتجاوز عنه.

نذكر من حزب الشماخ (ابن أبي عاصية السُّلَمي) الذي ورد على معن بن زائدة في صنعاء بقصيدة جاء فيها:

نَذرٌ عليَّ لئن لقيتُكَ سالمًا أن يستَمِرَّ بها شِفارُ الجَازِرِ

ووفى بنذره فذبح ناقته فور وصوله، فتشاءم الأمير من ذلك.

وقريبٌ من هذا الباب بابُ تداوُلِ المعنى الواحد معدولًا أو مقلوبًا. ومن هذا ما قاله أبو العلاء المعري عندما قلب معنى جاء في شعر لأبي فراس الحمداني. قال أبو فراس:

معلِّلتي بالوصلِ، والموتُ دونَه إذا مـتُّ ظَمآنًـا فـلا نَـزَلَ القَطْرُ

جاء أبو العلاء المعري بعده بسنوات كثيرة فقال:

ولـو أنّي حُبيتُ الخُلـدَ فَردًا لمـا أحببـتُ بالخلـدِ انفرادا
فلا هَطَلَتْ عليَّ ولا بِأرضي سَـحائِبُ ليس تَنتَظِمُ البِلادا

ونعـود إلـى موضـوع الناقـة وذبحهـا لكـي نختم بـه. كان العـرب في جاهليتهـم إذا مـات أحدُهـم ربطـوا ناقتـه عنـد قبـره حتـى تمـوت جوعًا وعطشًا، وأبطل الإسلام هذه العادة الذميمة. وقد رأينا الرسول يكره أيضًا ذبح الناقة بعد ركوبها مسافة طويلة. قصدَته امرأةٌ من مكان بعيد، ونَذَرت إن هـي وصلـت أن تذبحَ ناقتها، فقال لها الرسـول صلى الله عليه وسـلم: «بئس الجزاءُ جازيتِها».

المتنبي

لا أقدِّم على المتنبي أحدًا: لا امرأ القيس ولا طرفة ولا حسَّانًا ولا جريرًا. إنه سيد الشعراء. وإنما أُغفل ذكرهُ في هذه الدقائق التي يُسمَحُ لي بالكلام فيها؛ لأنني لا أعرف من أين أبدأ. في إحدى قراءاتي لديوانِه أمسكت قلم رصاص وأخذت أضع إشارةً إزاء كلِّ بيت يروقني. وعندما انتهيت خطر لي أن أحصيَ عددَ هذه الأبياتِ العيون. وجدتُها ألفًا ومئة وتسعةً وأربعين بيتًا. تم لي هذا في الأول من يوليو/ تموز عام خمسة وثمانين، أي قبل عشر سنوات. وفي هذه السنوات العشر كانت لي في ديوان المتنبي قراءاتٌ كثيرةٌ. وفي هذه القراءات كنت أكتشف أبياتًا أخرى تعجبني. ولكن لم يكن القلم متاحًا فأضعَ إشارةً إزاء تلك الأبيات الجديدة. ولو أردت أن أنشدكم من شعر المتنبي في كل أسبوع عشَرة أبيات حتى أنتهي من الأبيات التي أعجبتني كثيرًا، فإنني سأنفق سنتين وثلاثةَ أشهرٍ وأسبوعًا ولا شغلَ لي إلَّا أبا الطيب المتنبي.

إذن فقد عرفتم علة إرجائي هذا الشاعر العظيم: لم أعرف من أين أبدأ. وحتى الآن فأنا لا أعرف من أين أبدأ؛ ولهذا ترونني أحدِّثكم عن قصتي مع شعره لا عن شعره. أحيانًا أبتعد عن المتنبي أشهرًا. أقرأ أشعارًا لقدامى ومحدَثين وأنسجم مع بعض الدواوين، وأخوض بعض المغامرات، وأكتشف اكتشافات في صندوق الشعر العربي القديم، وقد تصيبني حالةٌ من الفرح الشديد بالوقوع على قصيدة رائقة ما كنت عرفتُها، أو بالعثور على آثارٍ أو أخبارٍ لشاعر ضاع مني وتهت عنه منذ سنين. تمرُّ عليَّ أشهر على هذه الحال. ثم في ليلة من ليالي الأرق، أبدأ بتقليب

صفحات ديوان المتنبي. هنا أشعر شعور رجل مغترب ظل يأكل في المطاعم زمنًا، ثم عاد إلى وطنه وإلى طبيخ أمه.

أقرأ شعر المتنبي الذي أعرفه وأحفظ، وقليلًا ما أحفظ، وأرى فيه معاني جديدة. أقول لنفسي: أين كنت يا هذا في الأشهر الماضية... ما قيمة كل تلك الاكتشافات إزاء هذا الشعر العظيم. نبغ في عصر المتنبي شعراء كثيرون، ولكنه أخملهم جميعًا وطمسهم في زمنه، وإلى يوم الدين. وظل حتى يومنا هذا يفعل ذلك بالشعراء.

كره النقاد المتنبي في حياته، وكرهه الشعراء والأمراء والوزراء. كان متكبرًا، وكان فيه حمق الصلف. لا ألومه في ذلك فهو شاعر، وللشاعر أن يكُونَ أشياءَ لا يجمل بغيره أن يكُونَها، وهو قدير وعظيم، ثم إن تلك هي طبيعته. ولكنني ألومه أن جعلَ طموحَه الوحيد أن ينال ولايةً يحكمُها ويصرِّفُ شؤونها. فالمتكبر التياه بنفسه أبعدُ الخلق عن القدرة على تصريف شؤون الناس ومراعاة أحوالهم. المتنبي لم يكن سيدًا. كان فارسًا. وإنك لتقبل من الفارس المغوار أن يتباهى وأن يتبختر بين الصفوف. فأما سيد القوم فتريد منه أن يبسط عباءته على التراب ليدوس الضعفاءُ عليها، حتى إذا جلسوا ضمَّهم ضمًّا رفيقًا.

ظل المتنبي طول عمره يظنُّ أنه سيِّدٌ وفارس في آن معًا. اسمعوا هذا البيت الذي قاله في صباه:

أَمِطْ عنكَ تشبيهي بما وكأنَّه   فما أحدٌ فوقي وما أحدٌ مِثلي

وانظروا إلى هذه الأبيات الثلاثة (وهي من شعره في صباه أيضًا)، وفيها من التكبُّر والتعجرف والغطرسة والتشامخ والزهو والخيلاء والعُجب والتيه ما لا تجده في سربِ طواويس. يقول:

أيَّ مَكانٍ أَرتَقي أيَّ عظيمٍ أَتَّقي
وكلُّ ما قد خَلَقَ اللهُ وما لم يَخلُقِ
محتَقَرٌ في هِمَّتي كَشعرَةٍ في مَفرِقي

وقال المتنبي:

إن أَكُنْ مُعْجَبًا فعُجْبُ عجيبٍ لم يجدْ فوقَ نفسِه مِن مَزيدِ
أنا تِرْبُ النَّدى ورَبُّ القَوافي وسِمامُ العِدا وغَيظُ الحَسودِ

وهذه أيضًا من قصائده في صباه وهي جميلة. وفي هذه القصيدة يشبِّهُ نفسه باثنين من الأنبياء. ويقول الواحدي أحدُ شراح المتنبي: إن هذا هو الذي جلب على أبي الطيب لقب المتنبي، ليس غير. يقول أبو الطيب في هذه القصيدة:

ما مُقامي بأرضِ نخلَةَ إلَّا كمُقامِ المسيحِ بين اليهودِ
مَفْرَشي صَهوَةُ الجوادِ ولكنَّ قميصي مَسرودَةٌ مِن حديدِ
ضاق صَدري وطالَ في طلبِ الرزقِ قِيامي وقلَّ عنهُ قُعودي
أَبدًا أقطعُ البلادَ ونَجمي في نُحوسٍ وهِمَّتي في سُعودِ
عِشْ عزيزًا أو مُتْ وأنتَ كريمٌ بين طعنِ القَنا وخَفْقِ البُنودِ
لا بِقَوْمي شَرُفْتُ بل شَرُفُوا بي وبِنفسي فَخَرتُ لا بجُدودي
أنا في أُمَّةٍ، تدارَكها اللهُ غريبٌ كصالحٍ في ثَمودِ

لقد شبَّه نفسه بالمسيح عليه الصلاة والسلام، وبنبي الله صالح عليه الصلاة والسلام.

ما أعجبَ أمري: لا أتناول شاعرًا كبيرًا إلا انحرفتُ عن جلاء عظمته إلى انتقاده. فإن لم أجد في شعره مَغمَزًا انتقدتُ خصاله وسلوكه؛ ليس عن حسد ولا عن رغبة في الهدم، بل إنني رأيت الكاتبين والمتحدِّثين يسرفون في تمجيد القدماء، فأحببتُ أن أقدِّم للمستمع فاكهة أخرى.

للمؤلف

- **قواعد اللغة العربية** (عمَّان: دار الشروق، ٢٠٠١).
- **المسألة الفلسطينية** (فلسطين: نشر ذاتي، ٢٠٠٣).
- **الكتابة للراديو** (فلسطين: معهد الإعلام بجامعة بيرزيت، ٢٠٠٤).
- **زبدة النحو** (فلسطين: معهد الإعلام بجامعة بيرزيت، ٢٠٠٤).
- **موجز النحو** (الدوحة: قناة الجزيرة، ٢٠٠٦).
- **عزيزي المستمع** (فلسطين: معهد الإعلام بجامعة بيرزيت، ٢٠١٤).
- **مفاوضات أوسلو** / مترجم عن الإنجليزية (القدس – بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ٢٠١٤).
- **غلط غلط**: ٢٦٨ حديثًا إذاعيًّا، تم بثها من راديو أجيال، (فلسطين: راديو أجيال، ٢٠١٤).
- **اللغة العالية** (الدوحة: قطاع ضبط الجودة بشبكة الجزيرة، ٢٠١٤).
- **حياتي في الإعلام** (الدوحة: مركز الدراسات في شبكة الجزيرة، ٢٠١٥).
- **سلسلة الزبدة، أنطولوجيا الشعر العربي في خمسة أجزاء** (القاهرة: دار المشرق، ٢٠١٦).
- **الرخيصة والرخيص**، قصص قصيرة (القاهرة: ميريت للنشر والمعلومات، ٢٠١٧).
- **إعصار في الهلال الخصيب**، رواية (بيروت: دار ثقافة، ٢٠١٨).
- **العَروض: العلم اللَّاعلم** (السويد: دار صفحات، ٢٠٢٠).

هَكَذا أفَكِّرُ

مجموعة مقالات موزَّعة بين التجارب التربوية، والإعلامية، والمغامرات اللغوية. كُتبت هذه المقالاتُ على مدى نحو ثلاثين عامًا، ولم يُنشر أيٌّ منها في كتاب، وأكثرها لم يُنشر في أيِّ موقع.

عمِل المؤلف في التعليم المدرسي والجامعي، وعمِل في حقل الإدارة الإعلامية، وقدَّم برامج إذاعية وتلفزيونية. ومن وحي حياته العملية جاءت مادة هذا الكتاب.

مدارات للأبحاث والنشر
٥ ش ابن سندر - الزيتون - القاهرة
جمهورية مصر العربية
٠١٠٢٤٤٤٦٣٧٢ (+٢)
info@madarat-rp.com
مدارات للأبحاث والنشر

ISBN 978-977-6459-51-9
9 789776 459519